الغبي



رحلة في اكتشاف الإنسان عبر أوهامه

د. أيمن نور

الغبي ..

رحلة في اكتشاف الإنسان عبر أوهامه

الغبي ..

رحلة في اكتشاف الإنسان عبر أوهامه

د. أيمن نور

تاسك للنشر
2026

TASQ

+213 784 02 93 44 contact@tas-q.com https://tas-q.com

حقوق النشر © TASQ 2026
جميع الحقوق محفوظة

ردمك (ISBN)	978-1-291-56427-3
عنوان الكتاب	الغبي -- رحلة في اكتشاف الإنسان عبر أوهامه
تأليف	د. أيمن نور
الطبعة	الأولى
سنة النشر	2026
مكان النشر	الولايات المتحدة

الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي المؤلف وحده، ولا تعكس بالضرورة رأي الناشر.
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر. لا يجوز نسخ أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في أي نظام لاسترجاع المعلومات أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة سواء إلكترونية أو ميكانيكية أو عبر التصوير الضوئي أو أي طريقة أخرى، دون إذن خطي مسبق من الناشر.



إهداء

أُهدي هذا الكتاب...

إلى كل غبي-:

(لا أقصدك)...

🚫ولا أُهديه...

للذين سيغلقونه غاضبين؛

لأنهم يظنون أنه كُتب عنهم،

لا عن غيرهم.

فالغبي لا يرى إلا نفسه...

...هذا الكتاب ليس لإدانة أحد،

فقط هو محاولة لإنقاذ كل أحد

من أقرب أعدائه إليه...

من الغبي الذي يسكن

داخله

وداخلي..

وداخلك..

د. أيمن نور

اسطنبول: سبتمبر ٢٠٢٦

مقدمة

[كتاب الغبي]...

>>رحلة في اكتشاف الإنسان عبر أوهامه<<

◆ لا يولد الإنسان وفي يده الحقيقة، ولا يخرج إلى الدنيا مزودًا ببوصلة تهديه إلى نفسه. يولد بعينين مفتوحتين على العالم، وقلب يبحث عن الطمأنينة، وعقل يتعلم الأشياء كما يتعلم الطفل أسماء الألوان؛ يصدق أول ما يُقال له، ثم يكتشف بعد سنوات أن العالم لم يكن بسيطًا كما ظنه، وأن الحقيقة لم تكن تسير وحدها في الطريق، بل كانت تمشي دائمًا إلى جوار ظل طويل اسمه الوهم.

◆ لست أكتب هذا الكتاب لأن البشر أغبياء، ولا لأنني أزعم امتلاك الحكمة التي حُرم منها الآخرون. فمن يظن أنه بلغ الحكمة النهائية، يكون قد خطا الخطوة الأولى بعيدًا عنها. وما هذه الصفحات إلا محاولة متواضعة لفهم تلك اللحظة الخفية التي يختلط فيها الصواب بالرغبة، واليقين بالخوف، والواقع بالصورة التي نحب أن نراها عنه. هناك، في تلك المنطقة الضبابية، تبدأ الحكاية التي أحاول تتبع أثرها.

◆ كل إنسان يحمل في داخله أكثر من سيرة، وأكثر من صوت، وأكثر من وجه. وليس أصعب على المرء من أن يميز بين الوجه الذي صنعته التجربة، والوجه الذي صنعته المجاملة،

والوجه الذي رسمه الخوف على مهل، حتى بدا كأنه الحقيقة نفسها. ولعل المأساة الكبرى أن الإنسان قد يقضي عمرًا كاملًا يدافع عن صورة لم يكن هو من رسمها، وإنما رسمتها يد خفية من تربية، أو بيئة، أو هزيمة، أو انتصار، ثم أقنعته بأنها صورته الوحيدة.

◆ نحن لا نعيش داخل العالم وحده، بل نعيش داخل تفسيرنا للعالم. وما بين العالم كما هو، والعالم كما نراه، مسافة قد تكون أقصر من طرفة عين، وقد تكون أوسع من تاريخ أمة بأكملها. في هذه المسافة تنشأ العقائد، وتولد الخصومات، وتشتعل الحروب، ويولد الحب أيضًا. فالحقيقة وحدها لا تحرك البشر، وإنما الصورة التي يحملونها عنها.

◆ لذلك لم يكن الوهم، في نظري، كذبة عابرة، ولا خدعة يتقنها المخادعون. الوهم أكثر رهافة من ذلك، وأكثر خطورة. إنه القدرة المدهشة التي يمتلكها الإنسان على أن يصنع لنفسه عالمًا يريحه، ثم ينسى، مع مرور الأيام، أنه هو الذي صنعه. وحين ينسى ذلك، يتحول الوهم من ضيف إلى صاحب بيت، ومن فكرة إلى عدسة، ومن عدسة إلى قدر.

◆ وربما لهذا السبب، لم يخطر ببالي يومًا أن أكتب كتابًا عن الغباء بوصفه نقصًا في الذكاء. فالذكاء وحده لم يمنع

حضارات من السقوط، ولم يحل دون أن يخطئ علماء، أو يتعصب فلاسفة، أو يستبد حكام، أو تخدع الجماهير نفسها بنفسها. كان ينقصهم شيء آخر؛ القدرة على أن يقف الواحد منهم، ولو مرة واحدة، أمام نفسه، دون محامٍ يدافع عنها، ودون جمهور يصفق لها، ودون مرآة تجاملها.

◆ هذا الكتاب لا يفتش عن الغبي في الآخرين، لأن ذلك أسهل ما يمكن أن يفعله أي كاتب. إنه يفتش عن تلك البقعة التي قد يعبرها كل إنسان، مهما بلغ علمه أو خبرته أو مكانته، حين ينتصر الوهم على الحقيقة في داخله. فهناك، في تلك اللحظة الصامتة التي لا يسمعها أحد، يبدأ كثير من المصائر التي ظن الناس أنها بدأت في مكان آخر.

◆ وإذا كانت هذه الرحلة ستقودنا إلى السياسة، فذلك لأن الإنسان يحملها معه حيثما ذهب. وإذا عبرت بنا إلى التاريخ، فلأن التاريخ هو السجل الطويل لأوهام البشر كما هو سجل إنجازاتهم. وإذا توقفت عند الفلسفة، فلأنها لم تكن يومًا إلا محاولة متجددة للإجابة عن سؤال قديم: كيف يرى الإنسان العالم، وكيف يرى نفسه؟ لكن البداية، والنهاية، ستظلان هنا... عند الإنسان.

◆ لذلك، لا أدعوك في الصفحات القادمة إلى أن تبحث عن وجه تعرفه، ولا عن خصم تختلف معه، ولا عن زعيم تؤيده

أو تعارضه. أدعوك إلى شيء أصعب كثيرًا: أن تسمح لهذه الرحلة بأن تمر، في هدوء، بينك وبين نفسك. فإن اكتشفت خلالها أن بعض ما ستقرأه يشبهك، فلا تتعجل الدفاع، ولا تتعجل الرفض. فربما كانت تلك هي اللحظة التي تبدأ فيها الحرية الحقيقية؛ يوم يمتلك الإنسان الشجاعة لأن يرى نفسه، قبل أن ينشغل برؤية الآخرين.

كل صفحة لا تجعل منك أكثر تواضعًا أمام نفسك... هي ليست صفحة من هذا الكتاب.



الغبي

◆ ليس من يعاني نقصًا في الفهم...

بل من يعاني يقينٌ أعمى،

يجعله مختالا بنفسه مرفوع الرأس،

كأنّه يملك الحقيقة وحده.

◆ أخطر أنواع الغباء

هو فرط ثقة الغبي

بأنه أذكى الاذكياء.

وان قلة أدبه قوة

وقلة علمه عبقرية.

◆ الشرّ، مهما اشتدّ بطشه،

تعرف روحه ارتعاشة التردّد،

فيتراجع حينًا...

أو يتراجع خلف مبرر.

... ◆ أمّا الغباء،

فلا يرتبك، ولا يُصغى،

ولا يعترف إلا بكذبه،

يمضي صلبًا كالوهم...

لا يرى حدوده،

لأنّه لا يرى أصلًا.

◆ لا يتعب...

لأنّه لا يشعر،

ولا يراجع نفسه...

لأنّه لا يشكّ،

ولا يراجع قناعاته الساذجة ...

لأنّه يظنّ نفسه اليقين.

◆ أخطر ما في العالم،

ليس فقط شرّ الأشرار...

بل يقين الجاهلين الاغبياء،

الذي يبتسم لنفسه...

وهو يهدم كل ما حوله.



الغبي

◆ أعرف شخصًا يصلي علنًا وجهارًا، ويدعو الله سرًا ألا يحرمه من نعمة الغباء.

كلما تذكرته، ضحكت قليلًا، ثم أقلق كثيرًا. فالشخصيات الساخرة العظيمة لا تضحكنا لأنها طريفة، بل لأنها تقترب أكثر مما ينبغي من الحقيقة المؤلمة .

◆ سنوات طويلة من العمر قضيتها بين السياسة والإعلام والعمل العام أقنعتني بأن البشرية لم تعانِ عبر تاريخها من نقص الحكماء بقدر ما عانت من وفرة الأغبياء الواثقين من أنفسهم.

◆ لعقود، التقيت بأصحاب علم ازدادوا تواضعًا، كلما ازدادت معارفهم، وأصحاب تجارب كبرى ازدادوا حذرًا كلما تراكمت خبراتهم.

لكنني صادفت في حياتي أيضا، صنفًا آخر من البشر؛ كلما ضاقت معرفتهم اتسع يقينهم،

وكلما قلت خبرتهم، ارتفعت ثقتهم بنفسهم، وكلما ابتعد عن الحقيقة ازداد اقتناعًا بأنه يحتكرها وحده.

◆ يطلق الاحكام من على منصته وكانه القاضي العارف بالله والقانون وهو لم يدرس القانون ولم يلم يوما بعلوم الشريعة ومقاصدها،

□ في زماننا كنا نقول على القاضي العادل:

انه يضع عمامة بن حنبل فوق راسه وكتاب حكمة الشافعي على يمينه، وكتاب الجبرتي على يساره، ويصدر احكامه مختتمها (بالله اعلم) .

〰 □ وفي زمن اخر، بتنا نرى القاضي العادل، يعتلي منصات اليوتيوب والتيك توك ، ويضع فوق راسه،" زعبوط شكوكو"

وعلى يمينه، كتاب فقه الترينذ ، وعلى يساره كتاب (ذا بيج بوك اوف سوير ووردز) الكتاب المقدس للكلمات والشتائم النابية، لمؤلفه الكندي ريان ماجينا... ويصدر ويستهل أحكامه ليس باسم الله، ولا بإسم الشعب، بل بوسم وهشتاج

ويختتمها، باضغط على الجرس ،والليك والسير

◆ منذ سنوات باتت تراودني وتلح على فكرة كتابة كتاب عن [الغباء].

فكره انفعالية، أهرب منها أحيانًا، ثم أعود إليها. أحاول منذ

سنوات، إقناع نفسي بأن الموضوع لا يستحق، ثم تفاجئني الحياة بمشهد جديد أو شخصية جديدة (سياسية /اعلامية/طبية)

أو واقعة جديدة تؤكد أن جانبًا كبيرًا من مآسي البشر لم تصنعه المؤامرات وحدها، ولم يصنعه الفساد وحده، بل صنعه أيضًا ذلك الخليط –عجيب الصنعة– من الجهل، والغرور، والعناد الذي نطلق عليه اختصارًا اسم الغباء المزمن.

◆ الغبي الفاسد في السلطة، والغبي من خارجها، مشكلته أكثر تعقيدًا؛ لأنه غالبًا لا يعرف أنه غبي، بل يعتقد أنه أكثر الناس فهمًا، وأكثرهم إدراكًا، وأبعدهم نظرًا. ولهذا كانت بعض الكوارث في التاريخ من صنع أناس كانوا مقتنعين تمام الاقتناع أنهم آباء الحكمة وسلامه الوطنية ، ساهم الله لينقذون العالم، بينما هم يدفعونه دفعا نحو الهاوية.

◆ سؤال ظل يلاحقني :

هل الغباء مرض؟

أم عرض لمرض آخر؟

أم حالة متقدمة من الحماقة؟

أم خلل عارض يصيب القدرة على الحكم على الذات والأشياء؟

ربما لا أملك جوابًا قاطعًا.

لكنني أعرف أن الجهل والغباء ليسا شيئًا واحدًا. فالجهل ظرف بينما الغباء مرض

فالجاهل يستطيع أن يتعلم، أما الغبي المغرور مريض بالزهان العقلي، وغالبًا ما يكون مقتنعًا أنه الأستاذ الذي ينبغي أن يتعلم منه الآخرون.

- الجهل فراغ يمكن ملؤه بالمعرفة،

أما الغباء فامتلاء زائف يمنع صاحبه من استقبال أي معرفة جديدة .

الجاهل يسأل لأنه لا يعرف،

أما الغبي فلا يسأل لأنه يظن أنه يعرف.

ومن هنا تبدأ المشكلة الحقيقية.

- ليست المعضلة أن يخطئ الإنسان، فالخطأ جزء من الطبيعة البشرية.

المعضلة أن يتحول الخطأ إلى إقامة دائمة، وأن يصبح الاعتراف به أصعب من ارتكابه. فالمسافة بين الحكمة والغباء ليست المعرفة،

بل القدرة على التراجع خطوة واحدة عندما يكتشف الإنسان أنه يسير في الاتجاه الخطأ.

◆ ثمة بشر يبدلون آراءهم كل صباح لأنهم بلا مبادئ،

■ وثمة بشر لا يبدلون آراءهم أبدًا لأنهم بلا عقل .

أما العقلاء فيفعلون الأمر الأصعب وهو:- يتمسكون بالمبادئ

ويعيدون النظر في المواقف .

يحافظون على البوصلة،

لكنهم لا يقدسون الطريق.

[الأغبياء وحدهم لديهم مهاره فريده في ان يقولوا نفس الكلمات، ويفعلون نفس الافعال، وينتظرون- بابتسامه بلهاء- تحقيق نتيجة مختلفة]!

◆ الغباء ليس لونا واحدا ،فهو عنابر متعددة و <عنبر الخطرين> يسكنه حكماء العبرة

من يسترون عوراتهم بثياب الحكمة .

فلا يفرقون بين المبدأ والموقف،

ولا بين القيمة والوسيلة،

ولا بين الحقيقة واوهامهم الخاصة عنها.

▫ فيتحول كل رأي يسمعه بأذنه لرأيه،

ويتكلس في عقله، لعقيدة، وتتحول في فهمه المعتقل مراجعته إلى خيانة، ويصبح الاعتراف بالخطأ عنده أقرب إلى الاعتراف بالهزيمة. والهزيمة في عنبر الخطرين انتحار!

◆ في عنبر الأغبياء،

((الأقل خطورة))

يتعاملون مع أفكارهم ومعتقداتهم، كما يتعامل أصحاب المتاحف مع القطع الأثرية.

يضعونها خلف الزجاج، ويمنعون الاقتراب منها،

ويضعون لافتات تقول ممنوع الاقتراب او التصوير او التطوير، ويعتبرون مجرد مناقشتها عدوانًا عليهم.

■ تمر السنوات وتتغير الوقائع وتسقط المسلمات القديمة وتظهر حقائق جديدة، بينما تبقى أفكارهم في مكانها، لا لأنها صحيحة، بل لأنها ممنوعة من الحركة.

مشكله هذا الصنف الاقل خطورة في درجات الغباء انه لم

يقرا التاريخ واذا قرا لم يفهم واذا فهم بعض الاشياء انكر على نفسه هذا الحق

لم يقرا هؤلاء حقيقة موقف سعد زغلول مثلا من دستور ١٩٢٣ الذي وصفه بدستور الاشقياء ثم عاد وتولى الحكم وفقا لهذا الدستور وعندما حاول الملك الاعتداء على هذا الدستور ناضل سعد زغلول دفاعا عنه لم يقرا هؤلاء دلاله تبني مصطفى النحاس باشا ملاك الوطنية المصرية اتفاقيه ١٩٣٦ من اجل تحقيق استقلال جزئي لمصر ومن اجل مصر ثم قيامه هو شخصيا بإلغاء اتفاقيه ١٩٣٦ قائلا من اجل مصر وقعت على الاتفاقية ومن اجل مصر الغيها.

◆ ليست المشكلة أن يتمسك الإنسان برأي، بل أن يتحول الرأي إلى صنم.

وأن يصبح الدفاع عنه أهم من البحث عن صحته .

وأن يصبح الانتصار له أهم من الانتصار للحقيقة. عندها يتحول العقل من وسيلة للاكتشاف إلى أداة للحراسة،

ومن نافذة على العالم

إلى جدار يعزل صاحبه عنه.

◆ أخطر ما يفعله الغباء بصاحبه أنه يمنحه شعورًا

دائمًا بالاكتفاء. فكلما ازداد الإنسان معرفة اتسعت أمامه مساحة المجهول،

■ أما الغبي فيحدث له العكس تمامًا .

كلما قلت معرفته ازداد يقينه .

وكلما ضاقت رؤيته اتسعت ثقته بنفسه.

وكلما ابتعد عن الحقيقة ازداد اقتناعًا بأنه يحتكرها ويختزنها تحت سريره.

◆ اقول دائما لأبنائي وزملائي في الصحافة قبل المحاماة

■ منذ سنوات ليست بالبعيدة ،وضعت لافته على صاله الاعداد التلفزيوني والصحفي في قناه الشرق مفادها-:

لا يقلقني الخطأ بقدر ما يقلقني اليقين المطلق بالصواب.

□ فالإنسان الذي يشك أحيانًا في رأيه ما زال يملك فرصة للنجاة،

أما الإنسان الذي لا يشك– إلا في الاخرين– ينتحر بإغلاق باب هواء المراجعة على نفسه.

◆ الحقيقة كائن حي. تتحرك وتتسع وتكشف كل يوم جانبًا جديدًا من نفسها.

أما الغباء فيعشق الحقائق الميتة،

والأجوبة الجاهزة،

والقوالب المغلقة،

والعالم البسيط الذي لا يحتاج إلى تفكير.

ولذلك يبدو مولعًا باليقين،

مع أن اليقين في كثير من الأحيان ليس علامة قوة، بل علامة كسل ذهني وبلاده.

◆ بعض الناس يضاعفون جهدهم بعد أن ينسوا هدفهم .

فيواصلون السير في الاتجاه الخطأ بسرعة أكبر، ثم يتصورون أن زيادة السرعة تعوض خطأ الاتجاه .

والحقيقة أن الذين يركضون نحو الهاوية أسرع من غيرهم لا يصلون إلى النجاة أولًا، بل يصلون إلى الهاوية أولًا.

◆ ليست كل حركة تقدمًا، وليست كل صلابة قوة، وليست كل قدرة على التمسك بالموقف فضيلة. فهناك من يتمسك بموقفه لأن الحقيقة ما زالت تؤيده، وهناك من يتمسك به لأن غروره لم يعد يسمح له بالتراجع. والفرق بين الحالتين هو الفرق بين الحكمة والغباء.

◆ الغبي وحده لا يفهم أنه ليست كل مراجعة خيانة.

بل إن بعض المراجعات أعلى درجات الوفاء. وفاء للحقيقة، ووفاء للعقل، ووفاء للواقع. أما الذين يقدسون المواقف أكثر من الحقائق فينتهون غالبًا إلى الدفاع عن أخطائهم بدل الدفاع عن مبادئهم.

◆ أكثر العقول فقرًا ليست تلك التي لا تعرف، بل تلك التي تعتقد أنها لم تعد بحاجة إلى أن تعرف. وأكثر الناس بعدًا عن الحقيقة ليسوا الذين أخطأوا في الوصول إليها، بل الذين أقنعوا أنفسهم أنهم وصلوا إليها نهائيًا.

◆ الغريب أن كثيرًا من الناس يدعون الله أن يثبتهم .

والدعاء جميل ونبيل،

لكن السؤال الذي لا يسألونه لأنفسهم: يثبتهم على ماذا؟

فالثبات على العدل فضيلة، والثبات على الحرية فضيلة، والثبات على الكرامة فضيلة.

أما الثبات على وهم فقدت أسبابه، وسقطت مبرراته، وانكشفت نتائجه، فليس حكمة ولا بطولة .

إنه مجرد غباء عاري العورة ومحض ادعاء يرتدي ثياب المبدأ.

- ⭕ هناك فرق بين الوفاء للفكرة والعداء للحقيقة.

الأغبياء وحدهم

يخلطون بين الأمرين .

يتمسكون بفكرة قديمة بعدما تتغير الظروف وتتبدل الوقائع وتتراكم الأدلة على خطئها،

- ☐ ثم يسمون ذلك ثباتًا .

والحقيقة أن الأفكار التي لا تتطور تتحول إلى سجون،

والعقول التي لا تراجع نفسها تتحول إلى متاحف خربه.

- الغبي لا يحب الحقيقة بقدر ما يحب امتلاكها.

- ولا يبحث عن الصواب بقدر ما يبحث عن إثبات أنه كان على صواب .

- ولذلك تتحول المناقشة معه من رحلة للبحث

إلى معركة للدفاع عن الذات .

ويصبح الحوار مستحيلًا،

لأن الحوار يفترض احتمال الخطأ،

أما الغبي فيبدأ من يقين كامل بأنه على حق وأن الآخرين موجودون فقط، لاكتشاف هذه الحقيقة متأخرين.

وهي جمله مأثوره يكررها كل الاغبياء-:

(الم اقل لكم هذا؟)

- لا يشترط في الغبي أن يكون ضعيف التعليم أو محدود الثقافة أو ركيك اللغة. قد يكون أنيقًا احيانا

او مشهورًا وصاحب منابر وجمهور. لكن العلامة الفارقة تبقى واحدة:

عجزه عن مراجعة نفسه.

فالعقل الحقيقي لا يقاس بعدد ما يعرف، بل بقدرته على إعادة النظر فيما يعرف.

- لهذا لا أخشى على المجتمعات من الجهل بقدر ما أخشى عليها من الغباء المصحوب بالسلطة أو المنبر أو الجمهور .

فالجهل يمكن علاجه بالتعليم، أما الغباء حين يمتلك ادوات فإنه يبدأ في تعليم الآخرين كيف يكرهون المراجعة ويقدسون الخطأ ويعاملون الوهم باعتباره حقيقة.

◆ ⛔ لم أبدأ هذا الكتاب بحثًا عن الأغبياء، فهم أكثر من أن يُحصوا، وأقدم من أن يُؤرخوا، وأوسع من أن تُرسم لهم حدود. بدأت هذه الرحلة بحثًا عن ذلك الخيط الرفيع الذي يفصل بين الحكمة والعناد، وبين الثبات والجمود، وبين المبدأ والموقف، وبين العقل الذي يبحث عن الحقيقة والعقل الذي يتصور أنه امتلكها.

◆ وربما كان التعريف الأقرب للغباء بعد رحلة طويلة من التأمل والتجربة هو أنه اللحظة التي يتوقف فيها الإنسان عن التعلم لأنه توهم أنه وصل لمنهي العلم او المجد او الذكاء.

◆ أما الحقيقة نفسها، فما زالت تقف هناك في الأفق البعيد، تبتسم في هدوء لكل الذين يعرفون أن الطريق إليها يبدأ دائمًا بسؤال، ولا ينتهي أبدًا بيقين مطلق.

◆ ولأن الغباء لا يعترف بنفسه، فإنه نادرًا ما يأتي إلى الدنيا معلنًا عن هويته. لا يحمل بطاقة تعريف، ولا يضع لافتة فوق رأسه، ولا يقدم نفسه باعتباره غبيًا. بل يحدث العكس تمامًا. فكلما اشتدت الإصابة ازداد اقتناع صاحبها بأنه الأكثر حكمة، والأكثر بعد نظر، والأقدر على فهم ما عجز الآخرون عن فهمه.

◆ وربما لهذا السبب كانت العلاقة بين الغباء والغرور علاقة قديمة ومستقرة. فالغرور يمنح الغباء ما يحتاجه من وقود،

والغباء يمنح الغرور ما يحتاجه من أوهام. وكل منهما يغذي الآخر حتى يصبح الإنسان أسير دائرة مغلقة لا يسمع فيها إلا صدى صوته، ولا يرى إلا انعكاس صورته.

◆ تأملت طويلًا في الشخصيات التي مرت علي خلال سنوات العمر. شخصيات اختلفت مواقعها وأفكارها وخلفياتها، لكنها اشتركت في شيء واحد؛ اعتقادها الدائم أنها لا تحتاج إلى مراجعة نفسها. كانت تتعامل مع النقد باعتباره مؤامرة، ومع النصيحة باعتبارها تطاولًا، ومع الرأي الآخر باعتباره جريمة تستحق العقاب.

◆ الغريب أن بعض هؤلاء لم يكونوا قليلي الذكاء بالمعنى التقليدي. بعضهم امتلك ذاكرة قوية، أو قدرة خطابية لافتة، أو سرعة بديهة، أو مهارات تنظيمية لا يستهان بها. لكن الذكاء وحده لا يحمي صاحبه من الغباء. فالعقل الذي لا يراجع نفسه قد يتحول إلى أداة أكثر كفاءة في إنتاج الأخطاء والدفاع عنها.

◆ هناك أشخاص يملكون موهبة نادرة في العثور على الحجج التي تبرر لهم ما يريدون تصديقه. لا يبحثون عن الحقيقة، بل عن الأدلة التي تخدم النتيجة التي قرروها مسبقًا. وحين تتحول النتيجة إلى عقيدة، تصبح الوقائع مجرد مواد خام يعاد تشكيلها لخدمة تلك العقيدة.

◆ عند هذه النقطة يتوقف التفكير ويبدأ التبرير.

ويتوقف البحث ويبدأ الدفاع.

ويتوقف العقل ويبدأ الهوى.

◆ ومن هنا أيضًا تبدأ إحدى أخطر صور الغباء؛ أن يصبح الإنسان محاميًا دائمًا عن نفسه، وقاضيًا دائمًا لصالح نفسه، وشاهدًا وحيدًا في القضية نفسها.

◆ الحياة أكثر تعقيدًا من أن تختصرها فكرة واحدة، والسياسة أكثر تعقيدًا من أن تفسرها نظرية واحدة، والبشر أكثر تعقيدًا من أن يحاكموا بمعيار واحد. لكن الغبي يحب التبسيط المفرط، لأنه يوفر عليه مشقة التفكير.

◆ العالم عنده أبيض أو أسود.

الناس عنده ملائكة أو شياطين.

الأحداث عنده مؤامرة كاملة أو براءة كاملة.

والحقائق عنده نهائية لا تحتاج إلى مراجعة.

ولهذا يبدو دائمًا مرتاحًا.

فالتفكير المتعب تركه لغيره.

◆ أما العقلاء فيدفعون ثمنًا مختلفًا.

يدفعون ثمن الشك.

وثمن السؤال.

وثمن المراجعة.

وثمن الاعتراف بأن الصورة قد تكون أكثر تعقيدًا مما تبدو عليه.

◆ ذات مرة تأملت الفارق بين الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة، والإنسان الذي يبحث عن الانتصار.

الأول قد يخسر مناظرة ويكسب فكرة.

أما الثاني فقد يكسب المناظرة ويخسر الحقيقة.

الأول يفرح حين يكتشف خطأه لأنه اقترب خطوة من الصواب.

أما الثاني فيعتبر اكتشاف الخطأ فضيحة يجب إخفاؤها لا فرصة يجب الاستفادة منها.

◆ ولهذا فإن بعض الناس لا يتعلمون من تجاربهم.

ليس لأن التجارب لم تعلمهم شيئًا.

بل لأنهم رفضوا الإنصات إلى ما تعلمهم إياه.

فالخبرة لا تأتي من مرور السنوات، وإنما من القدرة على التأمل فيها.

وقد يعيش إنسان سبعين عامًا دون أن يضيف إلى عقله يومًا واحدًا من الحكمة.

◆ أكثر ما يخيفني في الغباء السياسي أنه لا يكتفي بإيذاء صاحبه.

الإنسان الغبي في حياته الخاصة قد يدمر مستقبله أو علاقاته أو مصالحه.

أما الغبي حين يمتلك نفوذًا أو منصة أو تأثيرًا، فإنه يوزع أخطاءه على الآخرين.

ويحول أوهامه إلى قرارات.

ويقنع آلافًا أو ملايين أن يسيروا معه في الاتجاه الخطأ.

◆ ولهذا فإن المجتمعات التي تشجع المراجعة أقل عرضة للكوارث من المجتمعات التي تقدس العصمة.

والمؤسسات التي تسمح بالنقد أقل عرضة للأخطاء من المؤسسات التي تعتبر النقد تمردًا.

والأمم التي تتعلم من تجاربها أقل عرضة للهزائم من الأمم التي تكرر أخطاءها ثم تطالب التاريخ بالاعتذار لها.

◆ ثمة عبارة ظلت ترافقني طويلًا: ليست المشكلة أن يسقط الإنسان، بل أن يسقط في المكان نفسه مرات متتالية ثم يصر على أن الطريق آمن.

فالعاقل قد يتعثر.

وقد يخطئ.

وقد يسيء التقدير.

لكن الخطأ عنده تجربة.

أما عند الغبي فهو عقيدة قابلة للتكرار.

◆ ولهذا لا أستطيع أن أتعاطف كثيرًا مع أولئك الذين يفعلون الشيء نفسه عشرات المرات، ويكررون الخطاب نفسه، ويرتكبون الأخطاء نفسها، ثم ينتظرون نتائج مختلفة.

فالتاريخ لا يجامل أحدًا.

والواقع لا يتأثر بالهتاف.

والحقائق لا تغير طبيعتها إرضاءً لأحد.

◆ ربما كانت هذه هي النقطة التي يبدأ عندها التعافي من الغباء.

أن يكتشف الإنسان أنه ليس معصومًا.

أن يدرك أن رأيه ليس قرآنًا.

أن يفهم أن الحقيقة أكبر منه.

وأن العالم لا يدور حول قناعاته الشخصية.

◆ حين يصل الإنسان إلى هذه المرحلة يبدأ التعلم الحقيقي.

ويبدأ العقل الحقيقي.

وتبدأ الحكمة الحقيقية.

أما قبل ذلك فكل ما يملكه ليس أكثر من يقين مؤقت، قد يبدو له حكمة، بينما يراه الآخرون شكلًا أنيقًا من أشكال الغباء.

◆ لهذا كله لم أبدأ هذه السلسلة (الكتاب) بحثًا عن الأغبياء بقدر ما بدأتها بحثًا عن تلك اللحظة الدقيقة التي يتوقف فيها العقل عن التعلم، ويتحول فيها الرأي إلى صنم، ويتحول فيها الثبات إلى جمود، ويتحول فيها الإخلاص للفكرة إلى عداوة للحقيقة.

◆ تلك اللحظة هي بداية الغباء.

وهي أيضًا بداية كثير من المآسي التي عرفتها السياسة، وعرفها الإعلام، وعرفها التاريخ، وعرفها البشر في حياتهم الخاصة والعامة.

◆ ومن هنا تبدأ رحلتنا.

فإذا كان الغباء مرضًا، فسنحاول تشخيصه.

وإذا كان وباءً، فسنحاول تتبع طرق انتشاره.

وإذا كان سلوكًا بشريًا، فسنحاول فهمه.

أما إذا كان مزيجًا من كل ذلك، فربما يكون هذا الكتاب محاولة متأخرة للدفاع عن العقل في زمن يزداد فيه عدد الذين يظنون أنهم امتلكوا الحقيقة، بينما لم يبدأوا بعد رحلة البحث عنها.

◆ في هذا الكتاب سنقترب أكثر من أول أعداء العقل وأقرب خصوم الحرية:

⭕ (فالغبي...

عدو المراجعة ونفسه والعقل والحرية) ⭕ .

✣✦❖✧

✳ الغبي.. والأحمق.. والعاقل(1) ✳

◆ الغبي لا يكتفي بأن يجهل نفسه، بل يصنع لها صورة أخرى، ثم يقضي عمره مدافعًا عنها وكأنها الحقيقة.

◆ الأحمق يحكي ما فعل، ثم ينسى ما حكى، فيعود لينقضه بلسانه، ويخاصم اليوم ما قاله بالأمس.

◆ أما العاقل، فتنشغل يداه بالفعل أكثر مما ينشغل لسانه بالكلام؛ يترك أثره يتحدث عنه، ويكتفي من الضجيج بما يكفي للوصول إلى المعنى.

◆ لذلك يكثر حديث الغبي عن نفسه، ويكثر تناقض الأحمق مع نفسه، بينما يندر أن تسمع العاقل يتحدث عن نفسه... لأن أعماله سبقت حديثه إليها.

✣✦❖✧

✳ الغبي (2) ✳...

- الغبي يظن أن امتلاك الإجابة اي اجابة يغنيه عن البحث.
- والأحمق يبدّل أكاذيبه عن نفسه كل يوم،

ويتوهم ان الآخرين نسوا ما قاله بالأمس.

- أما الحكيم، فيعرف أن الحقيقة أكبر من أن يحتكرها أحد،

وأوسع من أن تُختزل في رأي،

وأعمق من أن تُغلق عليها أبواب اليقين.

- الغبي يبحث فقط عمن يصفق له.
- والأحمق يبحث فقط عمن يصدقه.
- والحكيم يبحث عمن يصحح له.
- الأول يخشى الالتزام بما ينبغي عليه، لأنه يهدد أوهامه.
- والثاني يهرب من المراجعة لأنها تفضح تناقضاته.

◆ أما الثالث، فيعتبر كل مراجعة فرصة جديدة للاقتراب من الحقيقة.

◆ لذلك لا يُقاس العقل بما نعرفه، بل بقدرتنا على الاعتراف بما لا نعرفه.

فأخطر أنواع الغباء...

أن يظن الإنسان أنه وصل،

بينما هو في الحقيقة فقط

توقّف عن السير للأمام.



ومضة من كتاب «الغبي» (3)

◆ الغبي لا يخسر لأنه أخطأ،

بل لأنه اتخذ من الخطأ بيتا لا يغادره،

ومن العناد بابًا لا يطرق غيره،

ومن تصفيق السذج دليلًا على أنه على صواب .

أما العاقل فيخاف من غرور يقينه،

أكثر مما يخاف من خصمه،

ويعرف أن مراجعة نفسه انتصار،

وشجاعة لا اعتذار.

✣✦❖✧

فصل

من كتاب «الغبي»

✳ الغباء السياسي..
سجون مريحة... نصنعها لأنفسنا ✳

◆ لكل جماعة إنسانية أو سياسية بابان: باب تدخل منه إلى التاريخ، وباب تخرج منه من العقل. تدخل الأول عندما تجعل الانتماء طريقًا إلى اتساع الإنسان، وتخرج من الثاني عندما تحول الانتماء إلى سور عالٍ حول الفكرة، ومفتاح واحد لكل الأسئلة، وحارس خفي يجلس داخل الضمير باسم الوفاء.

◆ في مشروع كتاب «الغبي» لا أنشغل بالغباء كصفة عابرة تُلصق بشخص، ولا كإهانة تُقال في لحظة غضب، بل أحاول أن أتبعه في تحولاته. أحيانًا يظهر الغباء في فرد يسيء قراءة نفسه والناس والزمن، وأحيانًا يتسع حتى يصير بيئة كاملة تنتج العمى وتكافئه، وأحيانًا يبدأ كنمط تفكير جماعي ثم يعود فيتجسد في أشخاص يظنون أنهم أذكياء لأنهم يرددون ما اتفقت عليه جماعتهم. الغباء هنا ليس شخصًا دائمًا، ولا جماعةً دائمًا، بل حالة تنتقل بين الفرد والقطيع، بين النفس والبيئة، بين الخطأ الخاص والمناخ العام الذي يمنحه شرعية ودفئًا وتصفيقًا.

◆ السياسة لا تفسد فقط بسطوة الحكومات، ولا تنحرف فقط عندما تطغى الدولة أو تتغول السلطة. أحيانًا يبدأ العطب من

المعارضات نفسها، من جماعات تتحدث عن الحرية بلغة مغلقة، وعن الديمقراطية بسلوك لا يحتمل الاختلاف، وعن المستقبل بعقل لم يغادر غرفته القديمة. والتغيير الذي لا يمر من داخل أصحابه يبقى وعدًا ناقصًا، أو يصير، مع الأيام، نسخة أخرى مما كان يزعم أنه يقاومه.

◆ لهذا لا أكتب هنا عن الحكومات وحدها، ولا عن خصوم السلطة وحدهم، ولا عن جماعة بعينها. أكتب عن تلك المساحة المعتمة في السياسة، حيث يتحول الإيمان بالفكرة إلى إعفاء من التفكير، ويتحول الانتماء إلى طاعة، وتتحول الذاكرة إلى قيد، ويتحول الألم القديم إلى رخصة دائمة لتبرير أخطاء جديدة. هنا يقيم «الغبي» الذي أحاول الاقتراب منه في هذا الكتاب؛ لا بوصفه شخصًا نسخر منه، بل بوصفه حالة قد تسكننا جميعًا عندما نطمئن أكثر مما ينبغي إلى يقيننا.

◆ الغباء السياسي ليس قلة معرفة فحسب. قد يكون صاحبه واسع الاطلاع، حسن العبارة، حاضر الحجة، موصولًا بالكتب والمنابر والشاشات. لكنه يغدو غبيًا سياسيًا عندما يفقد القدرة على مراجعة أدواته، وعندما يخلط بين الثبات والجمود، وبين الصلابة والعناد، وبين الوفاء للفكرة وعبادتها. أخطر الجهل ذلك الذي يرتدي ملابس اليقين، ويمشي مرفوع الرأس لأنه لا يعرف أنه لا يعرف.

◆ تذكرت، وأنا أعيد ترتيب هذا الفصل، العبارة القديمة المنسوبة إلى الرئيس الراحل أنور السادات، عندما وصف بعض حلفائه الذين صاروا خصومًا بعد أن تبدلت المواقع واقتربت السلطة أو ابتعدت، بأنهم يستحقون أن يحاكموا بتهمة «الغباء السياسي». لم تكن الجملة، في جوهرها، شتيمة عابرة في معركة حكم، بل وصفًا لذلك العمى الذي يصيب السياسي عندما يقرأ اللحظة بعين الأمس، ويمسك بالموقف كما لو كان حجرًا مقدسًا، ويفقد مرونة العقل في اللحظة التي يحتاج فيها إليها أكثر من أي وقت آخر.

◆ والغباء السياسي، بهذا المعنى، ليس مرضًا حكوميًا فقط. قد يسكن مكتب الوزير، وقد يجلس في مقعد المعارض، وقد يختبئ خلف لافتة حزب، أو بيان جماعة، أو منصة غاضبة، أو ندوة عن الحرية لا تسمح بسؤال حر. جوهره واحد: رفض الاعتراف بأن الزمن تحرك، وأن الناس تغيروا، وأن الوسائل التي صلحت في لحظة قد تصير عبئًا في لحظة أخرى، وأن النية الطيبة لا تكفي وحدها لبناء طريق صحيح.

◆ الجماعات المغلقة لا تغلق بابها دفعة واحدة. تبدأ عادة بعبارات تبدو معقولة ومؤقتة: لا وقت للخلاف، لا نريد إضعاف الصف، لا تفتحوا معركة جانبية، لا تمنحوا الخصوم فرصة. ثم

تصير هذه العبارات عادات، ثم تصير قواعد، ثم تصير محاكم صغيرة. وبعد زمن، تكتشف الجماعة أنها لم تحم وحدتها، بل حمت أخطاءها من الهواء، وأنها لم تؤجل الخلاف، بل أجلت النضج.

◆ في السياسة العربية، كثيرًا ما ذهبنا إلى تغيير الحكومات بأدوات لم نغيرها في أنفسنا. طالبنا بالدولة المدنية ونحن نحمل داخل جماعاتنا شهوة الوصاية. دافعنا عن الحريات ونحن نضيق بالمختلفين معنا. هاجمنا الإعلام الموجه ونحن نصنع لأنفسنا إعلامًا مضادًا بالتوجيه نفسه. رفضنا تقديس الحاكم ثم قدسنا الزعيم الصغير، أو الرمز الصغير، أو النص التنظيمي الصغير، أو الذاكرة التي لا تقبل أن يلمسها سؤال.

◆ هنا تبدأ السجون التي نصنعها ونختارها بأنفسنا. سجون لا تحتاج إلى حديد، ولا إلى مفاتيح معلقة في حزام سجان. يكفيها قاموس مغلق، وذاكرة لا تسامح، ورفاق يصفقون قبل أن يسمعوا، وخصوم نكرههم قبل أن نفهمهم. يكفيها أن تستبدل الجماعة ضمير الفرد بضمير جماعي جاهز، وتقول له بهدوء: لا تحمل عبء التفكير وحدك، نحن فكرنا عنك.

◆ الإنسان يحتاج إلى جماعة، كما يحتاج إلى بيت، وإلى رفقة، وإلى معنى يتكئ عليه في الطريق الطويل. لكن البيت قد

يصير قفصًا إذا أغلقت نوافذه، والرفقة قد تصير قطيعًا إذا كرهت السؤال، والمعنى قد يصير صنمًا إذا منع من المراجعة. ليست المشكلة في الانتماء، بل في اللحظة التي يأكل فيها الانتماء صاحبه.

◆ في منتصف الطريق بين السياسة وعلم النفس، تلوح لنا حقيقة قاسية: أكثر الناس لا يتخلون عن حريتهم لأنهم يكرهونها، بل لأنهم يتعبون من ثمنها. الحرية مرهقة. تضعك أمام نفسك بلا عذر جماعي، وتمنعك من الاحتماء الكامل بالهتاف، وتطلب منك أن تقول لرفاقك أحيانًا: أخطأتم. وربما كان قول هذه الكلمة داخل جماعتك أصعب من قولها في وجه خصمك.

◆ في هذا السياق، تحضر على نحو عابر محاضرات الكاتبة البريطانية دوريس ليسينج التي جمعت في كتابها «سجون نختار أن نحيا فيها». لم تكن تلك المحاضرات رواية، رغم أن صاحبتها من كبار أهل الرواية، بل كانت تأملًا صارمًا في الطبيعة البشرية، وفي ميل الإنسان إلى دخول سجون غير مرئية؛ سجون الجماعة، والأيديولوجيا، والخطاب المغلق، والرغبة في أن نرى العالم كما يراه الذين يشبهوننا. ما يعنيني من هذه الإشارة ليس عرض الكتاب، بل ذلك التنبيه العميق: أخطر السجون تلك التي نحبها ونمنحها أسماء جميلة.

◆ بعض السجون مريح لأنها تعفينا من الاختيار. داخله نعرف مسبقًا من نحب ومن نكره، ومن نصفق له ومن نرميه بالحجارة، وأي عبارة تصلح للنشر، وأي سؤال ينبغي أن يظل مؤجلًا. نضع لافتة على الباب تقول «ثبات»، بينما الجدار من الداخل اسمه خوف. نكتب فوق النافذة «وحدة صف»، بينما الهواء محبوس منذ سنوات.

◆ نحن بحاجة إلى إصلاح فكري عميق، لا إلى تبديل بعض الكلمات في الخطاب. وإلى إصلاح نفسي عميق، لا إلى بيان جديد يعلن نوايا جديدة. نحتاج أن نراجع الأدوات قبل أن نلوم الطريق، والأهداف قبل أن نعاتب الجمهور، والنتائج قبل أن نغضب من الناس لأنهم لم يصدقونا. السياسة ليست أن نمتلك قضية عادلة فقط، بل أن نمتلك أيضًا عقلًا قادرًا على خدمتها دون أن يخنقها.

◆ إصلاح الخطاب السياسي يبدأ من اللغة. فاللغة ليست ثوبًا خارجيًا للفكرة، بل بيتها الأول. عندما نصف كل مخالف بالخائن، وكل متردد بالجبان، وكل ناقد بالمندس، وكل مراجعة بالانكسار، فنحن لا نحمي قضيتنا، بل نمنعها من أن تكبر. الفكرة التي لا تحتمل سؤالًا صغيرًا ليست فكرة قوية، بل فكرة خائفة ترتدي قناع القوة.

◆ القبول بالآخر لا يبدأ في المؤتمرات، ولا في الصور المشتركة، ولا في العبارات المهذبة أمام الكاميرات. يبدأ في الداخل، في تلك اللحظة الصغيرة التي تسمع فيها رأيًا يجرح يقينك فلا تبحث فورًا عن نية صاحبه. يبدأ عندما تسمح لمن خالفك بالأمس أن يفتح صفحة معك اليوم دون أن تطلب منه طقس توبة علنيًا. يبدأ عندما تكتشف أن من لا يشبهك قد يحمل جزءًا من الحقيقة التي غابت عنك.

◆ لا أدعو إلى غسل الذاكرة، ولا إلى مصالحة رخوة تنكر ما جرى أو تساوي بين الجلاد والضحية، ولا إلى أن نضع الألم في درج مغلق ونمضي. هناك حقوق لا يجوز التنازل عنها، وجرائم لا يليق تجميلها، وجروح لا تلتئم بالأمنيات. لكن الذاكرة إذا تحولت إلى محكمة أبدية، منعت السياسة من أن تتنفس. والحق لا يخسر قيمته عندما نفكر في المستقبل، بل يخسرها عندما يتحول إلى حجر نلقيه على كل باب جديد.

◆ الجماعات التي تريد تغيير أوطانها مطالبة بأن تغير طريقتها في النظر إلى ذاتها. هل تربي أعضاء أحرارًا، أم جنودًا صغارًا؟ هل تصنع عقلًا نقديًا، أم ذاكرة شعارات؟ هل تفتح الطريق للشباب، أم تطلب منهم أن يرثوا الجمل نفسها، والعداوات نفسها، والأدوات نفسها؟ هل ترى النساء والجيل الجديد

والمختلفين شركاء كاملين، أم تضيف أسماءهم إلى البيان وتترك القرار حيث كان؟

◆ لا مستقبل لخطاب سياسي يكتفي بإدانة السلطة، ولا يفتح نافذة على المجتمع. الناس لا تريد قاموس غضب لا ينتهي، ولا معارك رمزية تستهلك العمر، ولا منابر ترفع الصوت ولا تقترب من الحياة. الناس تريد كرامة، وعدالة، وأمانًا، ومدرسة لا تهين أبناءها، ومستشفى لا يطرد فقراءه، وقانونًا لا يخاف منه الضعيف، وحرية تترجم نفسها إلى خبز ودواء وطمأنينة.

◆ ومن لا يترجم الحرية إلى حياة يومية يتركها معلقة في سماء البلاغة. جميلة، نعم، لكنها بعيدة عن يد الناس. الليبرالية التي أؤمن بها ليست أناقة لفظية ولا شارة فكرية، بل احترام الإنسان كما هو، بضعفه وحقه في الاختيار والخطأ والمراجعة. إنها إيمان بأن الدولة لا تملك المواطن، وأن الجماعة لا تملك الفرد، وأن الحقيقة لا تقيم إقامة أبدية في مقر حزب، ولا في مكتب حاكم، ولا في ذاكرة جرح واحد.

◆ مشروع التغيير لا ينجح إذا ظل أسير فكرة الطهارة المطلقة. السياسة ليست ديرًا، ولا محكمة تفتيش، ولا مسابقة أبدية في النقاء. السياسة عمل مع البشر كما هم، بخوفهم وترددهم ومصالحهم وأحلامهم وذاكرتهم القلقة. ومن لا يقبل

البشر في تعقيدهم لن يعرف كيف يخاطب شعبًا كاملًا. ومن لا يرى إلا النسخة التي يريدها من الناس، سيظل يخاطب جمهورًا متخيلًا يصفق له في الفراغ.

◆ لهذا أرى أن إصلاح المعارضات ليس خدمة للسلطة، ولا تنازلًا في مواجهة الاستبداد، ولا خروجًا من المعركة. هو جزء أصيل من أي إصلاح وطني جاد. فالمعارضة التي تراجع نفسها تصبح أقوى لا أضعف، والتي تطور خطابها تقترب من الناس لا تبتعد عن مبادئها، والتي تفتح صفحات جديدة لا تمحو تاريخها، بل تمنحه فرصة ألا يتحول إلى عبء فوق كتفها.

◆ يا أصحاب الجماعات المغلقة، اتركوا قليلًا من الهواء يدخل. أخطر من يهدد الجماعة ليس الذي يسأل، بل الذي يصفق دائمًا. ليس الذي يراجع، بل الذي يحرس الخطأ باسم الوفاء. ليس الذي يفتح نافذة، بل الذي يبيع لكم الاختناق باعتباره دفئًا تنظيميًا. الجماعة التي تخاف من المختلف داخلها لا تستطيع أن تبني وطنًا يتسع للمختلفين خارجه.

◆ كل فكرة عظيمة تحتاج إلى مؤمنين بها، لكنها تحتاج أيضًا إلى منقذين لها من غرور المؤمنين. وكل جماعة سياسية تحتاج إلى وحدة، لكنها تحتاج قبل الوحدة إلى حياة داخلية لا تموت فيها الأسئلة. وكل معارضة تحتاج إلى شجاعة في

مواجهة السلطة، لكنها تحتاج إلى شجاعة أندر: مواجهة صورتها عن نفسها، وتفكيك الأسطورة الصغيرة التي بنتها حول نقائها الدائم.

◆ في كتاب «الغبي»، لا أبحث عن غبي نعلقه على مشجب السخرية. أبحث عن الغباء كحالة إنسانية وسياسية تتسلل إلى كل المعسكرات. أحيانًا يكون الغبي فردًا ضيق الأفق، وأحيانًا يكون بيئة تمنح ضيق الأفق اسمًا نبيلًا، وأحيانًا يكون جمهورًا صغيرًا يتبادل الطمأنينة ويخاف من المرآة. الغبي هنا هو من يظن أن المراجعة هزيمة، وأن الاعتراف ضعف، وأن فتح الصفحات الجديدة تفريط، وأن الجماعة لا تخطئ إلا قليلًا، وأن المستقبل سيأتي لأن النوايا طيبة. أما العاقل، فهو من يعرف أن النوايا لا تبني وطنًا وحدها، وأن الحرية لا تنبت في تربة مغلقة، وأن أول باب ينبغي أن نفتحه هو الباب الذي أغلقناه من الداخل.

◆ لعلنا نحتاج الآن إلى شجاعة لا تبدو في ظاهرها صاخبة: شجاعة أن نعيد التفكير في أنفسنا. أن نسأل عما فعلناه لا عما نويناه فقط. أن نزن النتائج لا الخطابات. أن نصغي لمن غادرونا لا لمن بقوا يصفقون حولنا. أن نمد اليد إلى المختلف دون أن نطالبه بالتشبه بنا. أن نكف عن معاملة السياسة كأنها

ثأر طويل، ونبدأ في معاملتها كفن صعب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الإنسان والوطن.

◆ الصفحات الجديدة لا تبدأ بإنكار الصفحات القديمة، بل بقراءتها دون خوف. لا تبدأ بمحو الذاكرة، بل بتحريرها من رغبة الانتقام. لا تبدأ بتبديل العناوين، بل بتبديل السلوك. وأحيانًا يكون أصدق ما تقدمه جماعة سياسية لنفسها ولوطنها أن تقول: لقد أخطأنا في أشياء، وتعلمنا من أشياء، ولم نعد نريد أن نسكن السجن الذي بنيناه بأيدينا، ثم سميناه يقينًا.

◆ السجن الذي نصنعه لأنفسنا أخطر من السجن الذي يفرضه الآخرون علينا، لأننا نزين جدرانه بحججنا، ونعلق فوق بابه صور أحلامنا، ونطرد من يشير إلى ضيقه. أما الحرية الحقيقية، فتبدأ في اللحظة التي نسمع فيها صوت المفتاح داخلنا، وندرك أن الباب لم يكن مغلقًا كما توهمنا، وأن الطريق إلى تغيير العالم يمر أولًا من تلك الزاوية الصغيرة في النفس، حيث يختبئ الغبي، مطمئنًا، باسم الجماعة.

✣✦❖✧

الباب الثاني:

الوهم...

والمرايا المكسورة

الوجه الذي رسمه الآخرون

◆ لا يصنع الإنسان صورته وحده. هذه حقيقة موجعة، لكنها لازمة لفهم الوهم في بداياته الأولى. نحن ندخل الحياة بلا مرآة داخلية، ثم يعيرنا الآخرون مراياهم؛ يبتسمون فنظن أننا مقبولون، يعبسون فنظن أننا خطأ، يمدحون فننتفخ، يخذلون فننكمش، ثم تمضي السنوات فإذا بنا نحمل وجوهًا كثيرة لا نعرف على وجه الدقة أيها لنا، وأيها استعير من عين عابرة، أو كلمة جارحة، أو مديح مسموم، أو خوف قديم.

◆ في الطفولة، لا تكون الكلمات مجرد أصوات. الكلمة الأولى التي يسمعها الطفل عن نفسه قد تتحول إلى بذرة عمر كامل.

◆ من قيل له إنه ذكي قد ينفق عمره في الدفاع عن صورة الذكاء أكثر مما ينفقه في طلب المعرفة.

◆ ومن قيل له إنه فاشل قد ينجح كثيرًا، ثم يظل في أعماقه يعتذر عن وجوده.

◆ ومن وُصف بالشجاعة قد يخاف من الاعتراف بخوفه، لأن صورته أمام الناس صارت أقوى من صدقه مع نفسه.

هكذا لا تبقى الكلمات في الهواء، بل تدخل إلى الروح، وتجلس هناك كأنها من أهل البيت.

◆ أخطر ما يفعله الآخرون بنا أنهم لا يكتفون برؤيتنا، بل يقترحون علينا كيف نرى أنفسنا.

الأسرة تقترح، والمدرسة تقترح، والجماعة تقترح، والسلطة تقترح، والهزيمة تقترح، والانتصار أيضا يقترح .

◆ كل اقتراح، إذا تكرر طويلا، يصبح أقرب إلى الحقيقة. وقد يمضي الإنسان زمنًا طويلًا وهو يظن أنه يختار طريقه، بينما هو يسير في ممر ضيق بناه له خوف أبيه، أو رغبة أمه، أو صدمة معلمه، أو تصفيق جمهور لا يعرفه إلا من بعيد.

◆ لذلك ليست الهوية دائمًا اكتشافًا بريئًا للنفس، بل قد تكون أحيانًا اتفاقًا صامتًا بين الإنسان ومن حوله على صورة نافعة أو مريحة أو مقبولة.

◆ قد يرضى الإنسان بصورة البطل لأنها تمنحه حب الناس،

وقد يرضى بصورة الضحية لأنها تمنحه إعفاء داخليًا من المسؤولية.

وقد يرضى بصورة الحكيم لأنها تحميه من مشقة الاعتراف بالحيرة .

وفي كل مرة يختار الإنسان صورة على حساب حقيقته، يضيف قشرة جديدة إلى الوهم....

ثم يندهش بعد سنوات لأنه لم يعد يسمع صوته الأصلي الحقيقي.

◆ ما أصعب أن يعيش الإنسان أسيرًا للمديح .

الذم مؤلم، لكنه يكشف جرحه بسرعة .

أما المديح فقد يكون قفصًا من حرير. يبدأ لطيفًا كنسمة، ثم يتحول إلى شرط قاس للبقاء في الصورة التي أحبها الناس .

◆ فمن تعود أن يراه الناس قويًا قد يخجل من ضعفه،

ومن اعتادوا أن يسمعوه واثقًا قد يعجز عن قول لا أدري،

ومن صفقوا له طويلًا قد يكره الصمت، ولو كان الصمت هو الطريق الوحيد إلى الحقيقة.

◆ هكذا يتحول الإنسان من صاحب حياة إلى ممثل في حياة صاغها الآخرون له.

لا يكذب بالضرورة، لكنه يواصل أداء دور لم يعد يعرف كيف يخرج منه.

◆ قد يضحك لأن صورته تتطلب الضحك،

وقد يقسو لأن مكانته لا تحتمل اللين،

وقد يواصل معركة لم يعد يؤمن بها لأن الناس يرونه مقاتلًا، لا متراجعًا .

وما أكثر الذين يخسرون أنفسهم لا لأنهم فشلوا، بل لأنهم نجحوا لكن في الصورة الخطأ.

◆ ولا يقتصر الأمر على الأفراد وحدهم. للأمم أيضا وجوه يرسمها الآخرون لها، ثم تكررها حتى تصدقها .

أمة يقال لها إنها وُلدت لتحكم،

وأخرى يقال لها إنها وُلدت لتطيع،

وثالثة تُحبس في تاريخ مجيد حتى تعجز عن بناء حاضر لائق،

ورابعة تُدفع إلى احتقار نفسها حتى تصير الهزيمة جزءًا من شخصيتها العامة.

وما يحدث للإنسان يحدث للمجتمعات؛ تبدأ الحكاية بصورة، ثم تصير الصورة خطابًا، ثم يصير الخطاب قدرًا سياسيًا وأخلاقيًا وثقافيًا.

◆ في السياسة، تبلغ المرايا أقصى خطرها. فالحاكم لا يرى

نفسه غالبًا كما هو، بل كما تعكسه مرايا المحيطين به .

والمعارض لا يرى نفسه دائمًا كما هو، بل كما تعكسه مرايا المظلومية أو البطولة أو الجماعة. والجمهور لا يرى الحقيقة عارية،

بل يراها عبر مرايا الخوف، والغضب، والانتماء، والاحتياج. لذلك لا يبدأ فساد السياسة دائمًا من كذب معلن، بل من صورة مريحة يتفق الجميع على تصديقها؛ الحاكم يصدق أنه ضرورة، والمعارض يصدق أنه وحده البديل، والجمهور يصدق أن خلاصه سيأتي من خارج وعيه.

◆ وربما كان الغباء في أحد وجوهه الأولى هو عجز الإنسان عن التمييز بين صورته وحقيقته.

ليس الغبي هو من لا يعرف، بل من يتوقف عن السؤال لأن صورته تمنحه طمأنينة كاذبة .

◆ قد يكون واسع الثقافة، حاضر الحجة، أنيق العبارة، لكنه إذا وقف أمام مرآته الداخلية فلم ير إلا ما يحب أن يراه، صار أقرب إلى الغباء مما يظن.

◆ فالغباء هنا ليس نقصًا في العقل، بل فائض في التصديق. تصديق النفس عندما تجامل نفسها. وتصديق

الجمهور عندما يصفق. وتصديق الذاكرة عندما تحذف ما يؤلمها وتبقي ما يخدم غرورها.

◆ من هنا تبدأ الرحلة الصعبة وهي:

أن يسأل الإنسان نفسه عن الصور التي يعيش داخلها. من منحني هذه الصورة؟ من يستفيد من بقائها؟

ماذا أخسر إذا غادرتها؟ وماذا أكتشف إذا رأيت نفسي بلا رتوش؟

◆ ليست هذه أسئلة مريحة، لكنها ضرورية. فالتحرر لا يبدأ بإسقاط صورة الآخرين عنا فقط،

بل بإسقاط حاجتنا المرضية إلى صورة نهرب إليها كلما ضاقت الحقيقة بنا.

◆ ولعل أشجع ما يفعله الإنسان في حياته أن يخلع عنه وجهًا أحبه الناس،

لأنه لم يعد يشبهه.

◆ أن يقول: لقد تغيرت.

أو: لقد أخطأت .

أو: لم أعد أؤمن بما دافعت عنه طويلًا.

أو: كنت أرى نفسي كبيرًا لأن المرآة كانت صغيرة.

◆ هذه الجمل لا تصنع هزيمة، كما يتوهم كثيرون، بل تصنع بداية الإنسان الحقيقي. فالقوة ليست أن تحتفظ بالصورة نفسها إلى النهاية، بل أن تمتلك شجاعة خيانة الصورة من أجل الحقيقة.

◆ لا يولد الوهم إذن من الظلام وحده، بل قد يولد من الضوء الزائد. من المديح الزائد، ومن الخوف الزائد، ومن الحب الزائد، ومن الانتماء الذي يتحول إلى قيد، ومن النجاح الذي يتحول إلى قناع. وما لم يتعلم الإنسان أن يشك قليلًا في صورته الجميلة، كما يشك في صورته القبيحة، سيظل عبدًا للمرآة التي تختاره، لا للوجه الذي يبحث عنه.

◆ لهذا لا تكفي معرفة العالم من حولنا .

لا بد من معرفة الطريقة التي عرّفنا بها العالم إلى أنفسنا .

فبين الإنسان وحقيقته تقف وجوه كثيرة: وجه منحه له الخوف، ووجه صنعه الطموح، ووجه فرضه الآخرون، ووجه ارتداه طويلًا حتى التصق بملامحه. أما الوجه الذي يستحق البحث، فهو ذلك الذي يظهر بعد أن تنطفئ المرايا قليلًا، ويهدأ التصفيق، وتنسحب الجموع، ويبقى الإنسان وحده أمام سؤال بسيط ومزلزل:

ماذا يبقى مني إذا لم يرني أحد؟

ورقة من كتاب «الغبي» (4)

☀️الإنسان عاريًا في محكمة..... يقدم الأعذار لا الاعتذار ☀️

«الغبي ليس من يجهل الحقيقة... بل من عشق الرواية التي كتبها عن نفسه أكثر من حبه للحقيقة التي عاشها».

◆ تبدأ أكثر المحاكم خطورة في المكان الذي لا تدخله القوانين، ولا تبلغه كاميرات الصحافة، ولا يسمع الناس أحكامه. إنها المحكمة التي يقيمها الإنسان في أعماقه كلما هددت الحقيقة الصورة التي أحبها عن نفسه. هناك لا يكون الهدف اكتشاف العدل، بل حماية الرواية. ولا يصبح السؤال: ماذا حدث؟ بل: كيف أخرج من هذه الجلسة بريئًا؟ ومنذ تلك اللحظة، لا يعود الإنسان يبحث عن الحقيقة، بل عن الصيغة التي يستطيع بها احتمال نفسه.

◆ يولد الإنسان مزودًا بضمير، لكنه يولد أيضًا بحاجة عميقة إلى أن يظل متصالحًا مع صورته. وبين الضمير والصورة تبدأ أول معارك العمر. الضمير يطلب الاعتراف، والصورة تطلب التبرير. الضمير يهمس: لقد أخطأت. أما الصورة فتجيب: كانت الظروف أقوى. وهكذا لا ينشأ الغباء من غياب العقل، بل

من اللحظة التي ينجح فيها الإنسان في إسكات ضميره، دون أن يشعر بأنه فعل ذلك.

◆ في تلك المحكمة الداخلية، يجلس العقل على منصة القضاء، لكنه لا يكون دائمًا سيد الجلسة. يجلس مرتديًا ثوب الوقار، بينما يقترب القلب منه، لا ليذكره بالعدل، بل ليذكره بما يخشى خسارته. وتحضر الذاكرة شاهدة، لكنها لا تروي كل ما رأت، بل ما تسمح به الرواية التي يريد الإنسان أن يبقيها حية. أما الوهم، فلا يدخل القاعة متهمًا، بل يدخل متخفيًا في هيئة ظروف، أو نوايا حسنة، أو واجب، أو ضرورة، أو سوء فهم، حتى إذا انتهت المرافعات، خرج كما دخل... بلا إدانة.

◆ ليست هذه المحكمة اختراعًا للسياسيين، ولا للمشاهير، ولا لأصحاب السلطة. إنها تبدأ في الإنسان العادي، قبل أن يعرف السياسة، وقبل أن يقرأ الفلسفة. الطفل الذي يكسر شيئًا ثم يقنع نفسه أن غيره فعل، يضع الحجر الأول فيها. والطالب الذي يحمل رسوبه إلى المعلم، والزوج الذي يحمل قسوته إلى ضغط العمل، والكاتب الذي يحمل غروره إلى سوء فهم القراء، كلهم يجلسون، من حيث لا يشعرون، في القاعة نفسها.

◆ لذلك لا أحب أن أسخر من الأعذار، لأن بعضها يولد من الألم حقًا. فالإنسان قد يحتاج إلى عذر صغير كي ينجو

من انهيار كبير. لكن الغباء يبدأ عندما يتحول العذر من جسر نعبر به الأزمة إلى بيت نسكنه. عندها لا يعود العذر علاجًا، بل يصبح هو المرض. ويغدو الإنسان مشغولًا بحماية العذر أكثر من حماية الحقيقة.

◆ ما أكثر الذين يظنون أنهم شرحوا أنفسهم، بينما هم في الحقيقة برروا أنفسهم. والفرق بين الأمرين هو الفرق بين طبيب يبحث عن سبب المرض، ومحامٍ يبحث عن ثغرة في القضية. الشرح يقود إلى الفهم، أما التبرير فيقود إلى النجاة من الفهم. الأول يفتح باب التغيير، والثاني يغلقه بإحكام، لأن الإنسان الذي ينجح في تبرئة نفسه من كل شيء، لن يجد سببًا واحدًا ليصبح أفضل.

◆ ولعل أخطر ما في الغباء أنه لا يحتاج إلى الكذب الصريح. يكفيه أن يبدل أسماء الأشياء. فيسمي الخوف حكمة، والعجز واقعية، والتراجع اتزانًا، والانتهازية مرونة، والصمت مسؤولية. وما إن تتغير الأسماء، حتى تبدأ المحكمة في إصدار أحكام جديدة، لا لأن الوقائع تغيرت، بل لأن اللغة التي تحاكم بها الوقائع تغيرت.

◆ عبر سنوات طويلة من العمل في الصحافة والإعلام والسياسة، أدركت أن أكثر الناس قدرة على الدفاع عن أنفسهم،

ليسوا دائمًا أكثرهم براءة، بل أكثرهم مهارة في بناء هذه المحكمة الداخلية. رأيت من يملك لكل خطأ تفسيرًا، ولكل تناقض رواية، ولكل هزيمة بطولة مؤجلة. وكان أكثر ما يلفت انتباهي أنهم، مع مرور الزمن، لا يعودون يخدعون الآخرين فقط، بل يصدقون ما صنعوه بأيديهم. وهنا يبلغ الغباء ذروته؛ حين يتحول التبرير إلى إيمان.

◆ لا يخسر الإنسان شيئًا أثمن من قدرته على أن يقول لنفسه: كنت مخطئًا. فهذه الجملة القصيرة تهدم قاعة المحكمة كلها. تجعل القاضي ينزل عن منصته، والمحامي يغلق ملفه، والشاهد يتذكر ما نسيه، والوهم يقف لأول مرة بلا قناع. لذلك تبدو هذه الجملة ثقيلة، لا لأنها مهينة، بل لأنها تحرر الإنسان من السجن الذي بناه بنفسه.

◆ ليست الحرية أن تنتصر في كل القضايا، بل أن تمتلك الشجاعة لتخسر القضية التي رفعتها ضد الحقيقة. فالإنسان لا يكبر عندما يربح كل المرافعات، بل عندما يجرؤ على أن يعيد فتح الملف الذي أغلقه منذ سنوات، ويقرأه بعين لا تبحث عن البراءة، بل عن الصدق.

◆ ومن هنا يبدأ الغباء الحقيقي. لا حين يخطئ الإنسان، فالخطأ جزء من بشريته، وإنما حين يحول خطأه إلى قضية

مقدسة، ثم يقضي عمره كله يدافع عنها، ويستدعي لها الشهود، ويكتب لها المرافعات، حتى ينسى أن المحكمة لم تُقم يومًا من أجل الحقيقة، بل من أجل الرواية التي أحبها أكثر من نفسه.

«كلما احتجت إلى أعذار أكثر... كان ذلك دليلًا على أن الحقيقة أصبحت أبعد مما تظن».

ورقة من كتاب «الغبي» (5)
✳ الإنسان أمام مرآته... لماذا يخدع نفسه أولًا؟ ✳

«أخطر الأكاذيب ليست تلك التي نقولها للناس... بل تلك التي ننجح في تصديقها عن أنفسنا».

◆ ليس أصعب على الإنسان من أن يرى نفسه كما هي. فالحقيقة لا تؤلم لأنها قاسية فقط، بل لأنها تُسقط الصورة التي تعب طويلًا في بنائها. لذلك لا يبدأ الخداع من الخارج، ولا يولد في أفواه الآخرين، بل يتسلل أولًا إلى الداخل، حيث يقيم الإنسان حوارًا طويلًا مع نفسه، ينتهي غالبًا إلى اتفاق غير مكتوب: سأمنحك الطمأنينة... مقابل ألا تقترب من الحقيقة كثيرًا.

◆ نحن لا نتذكر الماضي كما وقع، بل كما نستطيع احتماله. وكلما مر الزمن، أخذت الذاكرة تهذب بعض التفاصيل، وتحذف أخرى، وتضيف ما يجعل الحكاية أكثر انسجامًا مع الصورة التي نحبها عن أنفسنا. وهكذا لا يصبح الماضي سجلًا للوقائع، بل رواية يعاد تحريرها في كل مرة نستدعيها.

◆ الغباء لا يبدأ عندما يكذب الإنسان على الآخرين، فذلك سلوك عرفته البشرية منذ بداياتها. لكنه يبدأ عندما يصبح هو أول من يصدق كذبته. عندها يفقد الكذب وظيفته المؤقتة،

ويتحول إلى يقين دائم، وتغدو الرواية البديلة أقوى حضورًا من الحقيقة نفسها.

◆ تأمل كم مرة أقنعنا أنفسنا بأننا لم نغضب، بينما كنا نشتعل من الداخل. وكم مرة سمينا الخوف حكمة، والعجز قناعة، والتراجع تعقلًا، والغيرة حرصًا، والكبرياء كرامة. الكلمات لا تغيّر الوقائع، لكنها كثيرًا ما تغيّر الطريقة التي نرى بها الوقائع، ومن هنا تبدأ أخطر أشكال الوهم.

◆ ليست النفس بارعة في الكذب فقط، بل بارعة في الانتقاء. فهي تحتفظ بما يرضيها، وتضعف ذاكرتها أمام ما يدينها. تتذكر الإحسان، وتنسى الإساءة. تحفظ لحظات المظلومية، وتغفل لحظات الظلم التي صنعتها بيديها. ولذلك كان الإنسان شاهدًا غير محايد في قضيته منذ اللحظة الأولى.

◆ لهذا تبدو مراجعة النفس عملًا شاقًا. فهي ليست رحلة لاكتشاف الأخطاء، بل معركة مع الصور التي ألفناها حتى حسبناها جزءًا من هويتنا. وما أكثر الذين يدافعون عن صورة قديمة لأنهم يخشون أن يكتشفوا أن أعمارًا كاملة بُنيت على وهم صغير لم يجرؤوا يومًا على مساءلته.

◆ وفي السياسة كما في الحياة، رأيت أشخاصًا لم تهزمهم الهزائم، بل هزمهم تفسيرهم للهزائم. كانوا يجدون لكل سقوط

مؤامرة، ولكل فشل خيانة، ولكل عزلة بطولة، حتى انتهى بهم الأمر إلى عالم لا يحتاج إلى الوقائع، لأن الرواية أصبحت تكفي وحدها. ولم يعد أحد يخدعهم؛ فقد تكفلوا هم بالمهمة منذ زمن.

◆ الإنسان الذي يخدع نفسه لا يفقد الحقيقة دفعة واحدة، بل يفقدها بالتقسيط. يتنازل عن اعتراف صغير، ثم عن مراجعة بسيطة، ثم عن سؤال كان يمكن أن يوقظه. وبعد سنوات، يكتشف أنه لم يعد يعيش داخل الواقع، بل داخل النسخة التي صنعها عنه.

◆ ولعل أعظم فضيلة يمتلكها العقل ليست الذكاء، بل القدرة على الشك في نفسه. فالعقول الكبيرة لا تخشى أن تعيد النظر، ولا ترى في الاعتراف هزيمة، بل تعتبره بداية معرفة جديدة. أما الغباء، فلا يطلب من صاحبه أن يكون جاهلًا، وإنما أن يكون واثقًا دائمًا، حتى فيما لا يستحق الثقة.

◆ لا يحتاج الإنسان إلى مرآة تكشف ملامحه، بل إلى مرآة تكشف روايته عن نفسه. فملامح الوجه يراها كل صباح، أما ملامح الوهم فلا تظهر إلا لمن امتلك شجاعة السؤال: ماذا لو كنت أنا أكثر الناس خداعًا لي؟

◆ وربما كانت البداية الحقيقية للحكمة أن يتوقف الإنسان، مرة واحدة على الأقل، عن الدفاع عن نفسه، وأن يصغي إليها

كما يصغي قاضٍ عادل إلى شاهد مرتبك. فالحقيقة لا تطلب منا الكمال، وإنما تطلب الصدق. وكل خطوة يخطوها الإنسان نحو الصدق، هي خطوة يبتعد بها عن الغباء، مهما كثرت أخطاؤه.

«ليس كل من خدع الناس غبيًا... لكن كل من خدع نفسه، وأصر على تصديقها، أغلق بيده آخر أبواب الحكمة».



ورقة من كتاب «الغبي» (6)

✳ الإنسان في قفص اليقين.. حين يصبح الشك فضيلة ✳

«ليس أخطر ما يملكه الإنسان أن يخطئ... بل أن يعتقد أن احتمال الخطأ قد مات إلى الأبد».

◆ لا يبدأ الغباء من الجهل، كما اعتدنا أن نظن، بل يبدأ أحيانًا من اللحظة التي يقتنع فيها الإنسان أنه لم يعد في حاجة إلى أن يتعلم. فالجهل يعترف ـ ولو بصمت ـ بأنه لا يعرف، أما اليقين المغلق فيعلن، دون أن يقول، أن الرحلة انتهت، وأن الحقيقة استقرت أخيرًا بين يديه. ومنذ تلك اللحظة، لا يعود العقل مسافرًا يبحث، بل يصبح حارسًا يقف على باب فكرة واحدة، يمنع عنها الهواء، ويحسب أنه يحميها، بينما هو يخنقها ببطء.

◆ ليست المشكلة في أن يمتلك الإنسان يقينًا؛ فالحياة لا تُبنى على الشك المطلق، كما لا تستقيم بلا ثوابت أخلاقية أو إيمانية أو إنسانية. وإنما تبدأ المشكلة عندما يختلط اليقين بالإعجاب بالنفس، وعندما تتحول القناعة من محطة يتزود منها العقل إلى نهاية يمنع نفسه من تجاوزها. هناك يتوقف الفكر عن

النمو، لا لأن المعرفة اكتملت، بل لأن صاحبها أقنع نفسه بأنها اكتملت.

◆ أكثر ما يدهشني أن الحقيقة لا تخشى الأسئلة، بينما يخشاها الذين يزعمون الدفاع عنها. فالحقيقة، إن كانت حقًا، تزداد وضوحًا كلما تعرضت للاختبار، أما الوهم فلا يعيش إلا في البيئات المغلقة التي تمنع عنه الضوء. ولهذا كان السؤال، عبر التاريخ، عدوًا للطغيان، وصديقًا للمعرفة في الوقت نفسه. فالاستبداد لا يخاف السلاح بقدر ما يخاف عقلًا يسأل: لماذا؟

◆ تأمل تاريخ الحضارات؛ لن تجد اكتشافًا عظيمًا بدأ بإجابة، بل ستجد سؤالًا صغيرًا رفض صاحبه أن يخجل منه. طفلًا سأل عن سقوط التفاحة، أو بحارًا شك في نهاية البحر، أو طبيبًا لم يقتنع بأن المرض قدر لا يُقاوم، أو فيلسوفًا لم يطمئن إلى ما اطمأن إليه الناس. هكذا تقدم الإنسان؛ لا لأنه امتلك يقينًا أكبر، بل لأنه امتلك شجاعة أكبر في مساءلة يقينه.

◆ لذلك يبدو الشك، في معناه النبيل، فضيلة عقلية لا نقيصة أخلاقية. إنه ليس ارتيابًا يهدم كل شيء، ولا نزوة تستمتع بالاعتراض، بل قدرة هادئة على مراجعة النفس قبل مراجعة الآخرين، وعلى اختبار الفكرة قبل تحويلها إلى عقيدة، وعلى الاعتراف بأن العقل مهما اتسع، سيظل يرى من العالم أقل مما يظن.

◆ وما أكثر الذين خلطوا بين الثبات والجمود، وبين الوفاء للفكرة وعبادتها. فالفكرة الحية تشبه النهر؛ تحتفظ باسمها، لكنها لا تحتفظ بالماء نفسه. أما الفكرة التي تتوقف عن الحركة، فإنها لا تتحول إلى صخرة فحسب، بل قد تتحول إلى سجن يسكنه أصحابها طوعًا، ثم يدعون الآخرين للدخول إليه باعتباره الطريق الوحيد إلى النجاة.

◆ أخطر ما يصنعه اليقين المغلق أنه يعيد تعريف الفضائل نفسها. فيصبح التراجع عن الخطأ ضعفًا، والمراجعة ترددًا، والاعتذار انكسارًا، والإنصات تنازلًا، بينما تُمنح صفات البطولة لمن يكرر الخطأ بثقة أكبر، أو يرفع صوته كلما ضاقت حجته. وهكذا تختلط الشجاعة بالعناد، والثبات بالجمود، حتى يفقد الإنسان القدرة على التمييز بين قوة الفكرة، وقوة التمسك بها.

◆ عبر سنوات طويلة من العمل العام، رأيت أشخاصًا خسروا مناصبهم، وآخرين خسروا أحزابهم، وغيرهم خسروا جماهيرهم، لكن أكثر الخسائر إيلامًا كانت خسارة الإنسان لحقه في مراجعة نفسه. كان بعضهم يمتلك من الذكاء والخبرة ما يؤهله لاكتشاف خطئه في لحظاته الأولى، لكنه كان يمتلك من الكبرياء ما يمنعه من الاعتراف به. ومع مرور الوقت، لم يعد يدافع عن رأيه لأنه صحيح، بل لأنه رأيه. وهنا يبدأ اليقين في افتراس العقل من داخله.

◆ ولعل أخطر ما في هذا القفص أن أبوابه لا تُغلق من الخارج. فلا سلطة هي التي أوصدتها، ولا خصوم هم الذين أحكموا أقفالها، بل صاحبها نفسه. يضع حول عقله أسوارًا من المسلمات، ثم ينسى أنه هو من بناها، ويقضي عمره يهاجم كل من يحاول أن يفتح فيها نافذة يدخل منها ضوء جديد.

◆ فلا يكتفي اليقين المغلق بأن يمنع الإنسان من رؤية الحقيقة، بل يمنعه أيضًا من رؤية نفسه. فكل فكرة لا تعود قابلة للمراجعة، تتحول شيئًا فشيئًا إلى جزء من الهوية، حتى يصبح نقدها في نظر صاحبها اعتداءً عليه شخصيًا. عندها لا يعود يدافع عن رأي، بل عن ذاته، ولا يناقش حجة، بل يقاتل من أجل صورة رسمها لنفسه، ثم نسي أنها مجرد صورة.

◆ ومن هنا تبدأ الجماعات المغلقة في التشكل. ليست لأنها تملك الحقيقة كاملة، بل لأنها تتفق على ألا يسأل أحدٌ منها السؤال الذي قد يهز يقين الجميع. ومع مرور الزمن، تصبح الطاعة فضيلة، والتشابه دليلًا على الإخلاص، ويغدو الاختلاف تهمة تحتاج إلى تبرئة. وما أكثر الأفكار التي ماتت، لا لأن خصومها كانوا أقوى منها، بل لأن أصحابها منعوا عنها حقها الطبيعي في المراجعة.

◆ والطغيان، في جوهره، لا يبدأ في القصور ولا في مقار

الحكم، بل يبدأ داخل عقل يرفض أن يسمع إلا صداه. فالسلطة المستبدة ليست إلا صورة مكبرة لعقل أغلق أبوابه من الداخل. ولهذا لم يكن الاستبداد السياسي يومًا منفصلًا عن الاستبداد الفكري؛ كلاهما يولد من الوهم نفسه: أن الحقيقة اكتملت، وأن مهمة الآخرين ليست البحث عنها، بل التصفيق لها.

◆ وما أشبه الإنسان الذي يسجن نفسه داخل يقينه بمن يقف أمام بحر واسع، ثم يملأ كفيه بالماء، ويعلن أنه امتلك البحر كله. ليست المشكلة في ضيق ما يحمله، وإنما في اتساع الوهم الذي يسكنه. فالحقيقة أكبر من أن تختصرها يد، وأرحب من أن يحتكرها عقل، وأغنى من أن تنطق بها مدرسة واحدة، أو حزب واحد، أو جماعة واحدة، أو جيل واحد.

◆ ولأن الحياة لا تتوقف عن التغير، فإن الأفكار التي ترفض الحركة تتحول إلى آثار، مهما بدت في ظاهرها صلبة. وما من حضارة انهارت لأنها سألت كثيرًا، لكن حضارات كثيرة دفعت ثمن يقينها حين أقنعت نفسها بأنها بلغت نهاية الطريق. فالعقل الذي يتوقف عن التعلم لا يحافظ على ما لديه، بل يبدأ في فقدانه دون أن يشعر.

◆ لست أدعو إلى إنسان يتردد أمام كل خطوة، ولا إلى عقل يشك في كل شيء. فالحياة تحتاج إلى الإيمان كما تحتاج

إلى العقل، وتحتاج إلى الثقة كما تحتاج إلى الحذر. لكن بين الإيمان الذي يمنح الإنسان سلامًا، واليقين الذي يمنعه من التفكير، مسافة واسعة يضيع فيها كثيرون. الأول يفتح القلب، والثاني يغلق العقل، وما أكثر الذين ظنوا أنهما شيء واحد.

◆ وربما كانت العبارة الأصعب في حياة أي إنسان ليست: «لقد أخطأت»، بل: «ربما أكون مخطئًا». ففي هذه الكلمة الصغيرة يتخلى العقل عن غروره، لا عن كرامته، ويعترف بأن الحقيقة لا تنتمي إليه وحده. وكلما اتسعت هذه المساحة، اتسعت معها قدرة الإنسان على التعلم، وعلى الإنصاف، وعلى رؤية العالم كما هو، لا كما يشتهي أن يكون.

◆ إن الحكمة لا تسكن أولئك الذين يملكون أكبر عدد من الإجابات، بل أولئك الذين لا يتوقفون عن طرح الأسئلة الصحيحة. فالأسئلة الصادقة لا تُضعف الحقيقة، وإنما تنزع عنها غبار العادة، وتحررها من أوهام التكرار. أما الإجابات التي تُمنع من الامتحان، فإنها تتحول مع الزمن إلى أصنام فكرية، يعبدها أصحابها وهم يظنون أنهم يحرسونها.

◆ لذلك لم يكن الشك، عبر تاريخ المعرفة، نقيضًا للإيمان بالحقيقة، بل أحد طرق الوصول إليها. فالعقول الكبيرة لا تخجل من مراجعة أفكارها، ولا ترى في التراجع عن الخطأ هزيمة، بل

انتصارًا على وهم كان يمكن أن يستعبدها. أما الغباء، فلا يبدأ عندما يجهل الإنسان، وإنما عندما يرفض أن يمنح نفسه فرصة جديدة ليتعلم.

◆ وربما كانت الحرية الحقيقية هي أن يمتلك الإنسان الشجاعة ليخرج، بين الحين والآخر، من قفص يقينه، وأن ينظر إلى أفكاره كما ينظر إلى أفكار الآخرين؛ بعين تحترمها، لكنها لا تقدسها، وتحبها، لكنها لا تستعبدها. فالعقل الذي لا يراجع نفسه، يشبه ساعة توقفت عقاربها منذ زمن، لكنها ما زالت تظن أنها تقيس الوقت.

◆ ومن هنا يبدأ طريق الحكمة، لا حين يعثر الإنسان على الإجابة الأخيرة، بل حين يوقن أن رحلته مع الحقيقة لن تعرف إجابة أخيرة أبدًا. فالحقيقة ليست محطة يصل إليها العقل ليستريح، وإنما أفق كلما اقترب منه، اكتشف أن أمامه أفقًا آخر، وأن المعرفة ليست امتلاكًا للحقيقة، بل تواضعًا دائمًا أمام اتساعها.

»الجهل قد يتعلم... أما اليقين الذي أغلق بابه، فلا يسمع إلا صدى صوته«.



ورقة من كتاب «الغبي» (7)

✳الإنسان الذي يسمع صدى صوته فقط✳

«ليست المشكلة أن تختلف مع الآخرين... بل أن تعيش طويلًا حتى تظن أن صوتك هو الصوت الوحيد».

◆ بعد أن يغلق الإنسان باب الشك، لا يتوقف الأمر عند هذا الحد. فالعقل الذي أقنع نفسه بأنه امتلك الحقيقة، يبدأ في البحث عمن يرددها له كل صباح. ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من رحلة الغباء؛ مرحلة لا يكتفي فيها الإنسان بيقينه، بل يصنع حوله عالمًا كاملًا لا يسمع فيه إلا صداه.

◆ في بدايات العمر، نستمع لنتعلم. ثم نكبر قليلًا، فنستمع لنفهم. لكن شيئًا خفيًا يحدث لبعضنا بعد ذلك؛ إذ يتحول السماع إلى عملية انتقاء، فلا يعود الإنسان يفتح أذنيه لكل صوت، وإنما للأصوات التي تمنحه راحة داخلية، وتؤكد أنه كان على صواب منذ البداية. وهكذا تتحول الأذن إلى حارس، لا للحقيقة، بل للقناعة.

◆ ليس الغباء أن يكون للإنسان رأي، فالرأي ثمرة العقل الحر، وإنما أن يصبح الرأي سورًا يمنع صاحبه من رؤية ما

وراءه. فالفكرة لا تموت عندما يعارضها الآخرون، وإنما عندما يعجز صاحبها عن احتمال وجود رأي آخر إلى جوارها. ومنذ تلك اللحظة، يصبح الاختلاف خطرًا، لا فرصة، ويغدو الحوار معركة يجب أن تنتهي بانتصار طرف وهزيمة الآخر.

◆ كل إنسان يحمل داخله ميلًا طبيعيًا إلى من يشبهه. وهذا ليس عيبًا في ذاته، فالتشابه يبعث الطمأنينة، ويمنح النفس شعورًا بالألفة. لكن الخطر يبدأ عندما تتحول الألفة إلى عزلة، وعندما يصبح المختلف ضيفًا غير مرغوب فيه، لا لأنه أخطأ، بل لأنه اختلف.

◆ تأمل كثيرًا من الحوارات اليومية؛ ستجد أن معظم الناس لا ينصتون لكي يفهموا، بل ينتظرون دورهم في الكلام. لا يسمعون الحجة كاملة، لأنهم منشغلون بإعداد الرد. ولا يبحثون عن الحقيقة المشتركة، لأنهم يبحثون عن الجملة التي تمنحهم شعور الانتصار. وهكذا تتحول الكلمات إلى متاريس، ويتحول الحوار إلى مبارزة لا يخرج منها أحد أكثر معرفة.

◆ أخطر ما في صدى الصوت أنه يمنح صاحبه وهم الإجماع. فحين لا يسمع الإنسان إلا من يوافقه، يظن أن العالم كله يفكر بالطريقة نفسها. وإذا صادف رأيًا مختلفًا، لم يسأل نفسه: ماذا لو كان يحمل جزءًا من الحقيقة؟ بل يسأل: كيف

وصل هذا الإنسان إلى كل هذا الخطأ؟ وهنا يبدأ العقل في فقدان تواضعه، ويبدأ الغباء في ارتداء ثياب الحكمة.

◆ في السياسة، كما في الدين، كما في الثقافة، تتشكل الدوائر المغلقة بالطريقة نفسها. يجلس أفرادها متقاربين، يروون القصص ذاتها، ويقتبسون العبارات نفسها، ويصفق بعضهم لبعض، حتى يصدقوا أن التصفيق دليل الحقيقة، وأن كثرة المرددين تغني عن قوة البرهان. لكن الحقيقة لم تكن يومًا مسابقة في عدد المؤيدين، بل امتحانًا دائمًا لقدرة الفكرة على الصمود أمام النقد.

◆ ومع اتساع وسائل الاتصال، ظن الإنسان أنه أصبح أقرب إلى العالم، بينما حدث أحيانًا العكس. فقد صار قادرًا على أن يبني لنفسه عالمًا صغيرًا، لا يدخل إليه إلا من يشبهه، ولا يظهر فيه إلا ما يؤكد قناعاته. فيقرأ ما يحب، ويتابع من يوافقه، ويحذف من يزعجه، حتى تتحول الشاشة إلى مرآة كبيرة، لا نافذة واسعة.

◆ ومن أخطر ما يفعله هذا الصدى أنه لا يسرق من الإنسان معلومات جديدة فحسب، بل يسرق منه فضيلة التواضع. فالعقل الذي لا يصطدم بغيره، يظن أنه اكتمل، والإنسان الذي لا يسمع إلا نفسه، ينسى أن الحقيقة كانت دائمًا أكبر من صوت

واحد، وأوسع من عقل واحد، وأرحب من تجربة واحدة.

◆ لذلك لم يكن المختلف عدوًا للعقل، بل كان أحد أسباب نضجه. فالإنسان لا يكتشف حدود أفكاره إلا عندما يلتقي بأفكار لا تشبهها. أما إذا عاش عمره بين المصفقين، فلن يعرف أبدًا إن كانت قناعاته قوية حقًا، أم أنها لم تُختبر بعد.

◆ ليس أكثر فقرًا من عقلٍ لم يعد يجد من يعترض عليه. فالاعتراض الصادق لا ينتقص من الفكرة، بل يكشف ما فيها من قوة وما فيها من ضعف. أما العقل الذي يعيش بين المصفقين، فإنه يفقد تدريجيًا مناعته الفكرية، حتى يصبح عاجزًا عن احتمال سؤال بسيط، لأن الأسئلة التي لم تُطرح في وقتها، تعود لاحقًا على هيئة أزمات لا تجد لها جوابًا.

◆ والغريب أن الإنسان لا يختار دائمًا من يشبهه، بل يختار أحيانًا من يريحه. والفرق بين الأمرين كبير. فالتشابه قد يكون بداية حوار، أما الراحة المطلقة فغالبًا ما تكون نهاية التفكير. لذلك يهرب كثيرون من المجالس التي تربك يقينهم، ويهرعون إلى المجالس التي تمنحهم شعورًا زائفًا بأنهم يمتلكون الحقيقة كاملة، لا لأن الحقيقة هناك، بل لأن الاعتراض غائب.

◆ وما أكثر الأفكار التي ماتت اختناقًا داخل دوائر أصحابها. لم يسقطها خصومها، ولم تهزمها الوقائع، وإنما

أفسدها أولئك الذين منعوا عنها الهواء، وأغلقوا نوافذها، ثم حسبوا أنهم يحافظون عليها. فالفكرة التي لا تُراجع، تشيخ. والفكرة التي لا تُناقش، تضمر. أما الفكرة التي تُقدَّس، فإنها تكف عن الحياة، حتى لو بقي أتباعها يرددونها كل يوم.

◆ ولأن الإنسان يميل بطبيعته إلى الطمأنينة، فإنه قد يخلط بين كثرة الموافقين وصحة الرأي. بينما يعلمنا التاريخ أن الإجماع كثيرًا ما كان بداية الخطأ، وأن الحقيقة بدأت غير مرة بصوت واحد، لا لأن صاحبه كان معصومًا، بل لأنه امتلك شجاعة أن يرى ما لم يره الآخرون. لذلك لا تقاس قيمة الفكرة بعدد المؤمنين بها، وإنما بقدرتها على احتمال النقد، والبقاء بعد الامتحان.

◆ وفي العمل العام تعلمت أن أخطر ما يواجه القائد، أو الكاتب، أو المفكر، ليس خصومه، بل أصدقاؤه الذين لا يقولون له إلا ما يحب أن يسمع. فالنقد المخلص يحمي الإنسان من الغرور، أما المديح الدائم فقد يكون الطريق الأقصر إلى العمى. وما أكثر من خسروا معاركهم لأنهم أحاطوا أنفسهم بأصوات تؤكد لهم أنهم لا يخطئون.

◆ لهذا كان الإنصات فضيلة نادرة. فالإنصات ليس انتظارًا للدور في الحديث، ولا مجاملة اجتماعية، بل شجاعة عقلية تسمح للإنسان بأن يمنح الفكرة المخالفة فرصة عادلة، قبل أن

يحكم عليها. وليس مطلوبًا أن يقتنع بكل ما يسمع، وإنما أن يفهمه أولًا. فكم من خصومة بدأت بسوء فهم، وكم من حقيقة ضاعت لأن أحدًا لم يُصغِ إليها بما يكفي.

◆ إن المجتمعات التي تتسع للاختلاف لا تصبح أضعف، بل تصبح أكثر قدرة على تصحيح أخطائها. أما المجتمعات التي تطرد كل صوت مختلف، فإنها لا تحقق الوحدة، وإنما تحقق الصمت. وبين الوحدة والصمت فرق كبير؛ فالوحدة تُبنى على احترام التنوع، أما الصمت فيُبنى على الخوف، أو على الكسل الفكري، أو على عبادة الرأي الواحد.

◆ وليس المطلوب من الإنسان أن يعيش بلا قناعات، وإنما أن يترك نافذة مفتوحة في كل قناعة. نافذة يدخل منها سؤال جديد، أو تجربة جديدة، أو حقيقة لم يكن يعرفها بالأمس. فالعقل الذي يغلق جميع نوافذه لا يحمي نفسه من الريح، بل يحرم نفسه من الهواء.

◆ وربما كان أكثر الناس حكمة، ليس من يملك أعظم الأفكار، بل من يملك أعظم القدرة على مراجعتها. فهو لا يشعر بأن الاعتراف بخطأ فكرة يهدم كرامته، لأن كرامته لا تقوم على العصمة، بل على الصدق. لذلك يظل تلميذًا للحقيقة، مهما تقدم به العمر، ومهما كثرت تجاربه، ومهما اتسعت شهرته.

◆ ومن هنا تبدأ أولى خطوات التحرر الحقيقي. لا عندما يجد الإنسان من يوافقه، بل عندما يبحث عمدًا عن صوت لا يشبه صوته، ثم ينصت إليه بإنصاف، لا ليهزمه، بل ليمتحن نفسه. فالعقول لا تنضج في المرايا، وإنما تنضج في اللقاء الصادق مع الاختلاف.

◆ إن الغباء لا يبلغ ذروته عندما يحتكر الإنسان الكلام، بل عندما يحتكر الاستماع أيضًا. فالكلمات التي لا تسمح إلا لصداها بالعودة إليها، لا تصنع معرفة، وإنما تصنع عزلة مزينة باليقين، حتى يظن صاحبها أنه يسمع العالم كله، بينما لم يكن يسمع، طوال الوقت، إلا نفسه.

«إذا أصبح الاتفاق شرطًا لكي تُصغي... فقد بدأت رحلتك بعيدًا عن الحقيقة، مهما ظننت أنك تقترب منه».

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي»(8)

✳الإنسان الذي يعبد الفكرة✳

«ما إن تتحول الفكرة إلى مقدس... حتى تتوقف عن إنارة الطريق، وتبدأ في حجبه».

◆ لم تُخلق الأفكار لتُعبد، وإنما لتساعد الإنسان على أن يفهم العالم، ثم يعيد فهمه كلما اتسعت تجربته. كانت، في أصلها، جسورًا نعبر بها إلى الحقيقة، لا بيوتًا نسكنها إلى الأبد. لكن الإنسان، في لحظات ضعفه، لا يكتفي بأن يحب فكرته، بل يخلط بينها وبين نفسه، حتى إذا اقترب أحد من الفكرة، شعر وكأنه اقترب من كرامته، أو من تاريخه، أو من وجوده كله.

◆ لا يحدث هذا التحول فجأة. يبدأ بإعجاب مشروع، ثم يتحول إلى تعلق، ثم إلى انحياز، ثم إلى يقين، حتى يصل إلى المرحلة الأخطر؛ حين تكف الفكرة عن أن تكون وسيلة للفهم، وتصبح معيارًا للحكم على البشر. عندها لا يعود الإنسان يسأل: هل هذه الفكرة صحيحة؟ بل يسأل: من قالها؟ وإذا قالها من ينتمي إلى معسكره، منحها التصديق قبل أن يختبرها، وإذا قالها خصمه، حكم عليها قبل أن يسمعها.

◆ وهنا يفقد العقل إحدى أعظم فضائله: القدرة على الفصل بين الفكرة وصاحبها. فكم من حقيقة خرجت من فم خصم، وكم من خطأ نطق به صديق. لكن الإنسان الذي عبد فكرته لا يعود يرى هذا كله؛ إذ يصبح الولاء أهم من البرهان، والانتماء أعلى منزلة من الحقيقة، ويغدو الدفاع عن الراية مقدَّمًا على مراجعة الطريق.

◆ أخطر ما في عبادة الفكرة أنها تمنح صاحبها شعورًا خادعًا بالنقاء. فهو لا يرى نفسه متعصبًا، بل مخلصًا. ولا يعتبر رفضه للنقد ضعفًا، بل ثباتًا على المبدأ. ومع مرور الوقت، يختفي الخط الفاصل بين الوفاء للفكرة، والعبودية لها، حتى يصبح كل تعديل خيانة، وكل مراجعة سقوطًا، وكل سؤال بابًا للشك يجب إغلاقه.

◆ تأمل كيف تبدأ معظم الصراعات الكبرى. نادرًا ما تبدأ من اختلاف في الوقائع، وإنما تبدأ عندما تتحول الأفكار إلى هويات مغلقة. فالفكرة الحية تسمح لصاحبها أن يراجعها، أما الفكرة التي صارت صنمًا، فإنها تطلب منه أن يحرسها، وأن يقدم لها كل يوم قربانًا جديدًا من حريته، ومن عقله، ومن قدرته على الإنصاف.

◆ ولهذا كانت الحضارات التي ازدهرت هي تلك التي

احترمت الأفكار دون أن تقدسها. كانت تسمح لها بأن تتنافس، وأن تخطئ، وأن تُصحح نفسها. أما الحضارات التي حولت فكرة واحدة إلى نهاية التاريخ، فلم تلبث أن تحولت إلى متحف كبير، يحرس الماضي أكثر مما يصنع المستقبل.

◆ لا أظن أن الإنسان يصبح خطيرًا لأنه يحمل فكرة قوية، بل لأنه يعتقد أن هذه الفكرة لم تعد تحتاج إلى مراجعة. فمنذ تلك اللحظة، لا يتوقف عن التفكير فحسب، بل يتوقف عن الإصغاء أيضًا. ويصبح المختلف، في نظره، خصمًا للحقيقة، لا شريكًا في البحث عنها.

◆ عبر سنوات العمل العام، أدركت أن كثيرًا من الأزمات لم تكن بسبب ضعف الأفكار، بل بسبب تقديسها. رأيت أحزابًا تضع شعاراتها فوق مصالح الناس، وجماعات ترفع نصوصها فوق مقاصدها، وسلطات تجعل بقاءها أهم من الوطن الذي تزعم حمايته. ولم يكن القاسم المشترك بينها جميعًا أنها امتلكت الحقيقة، بل أنها توقفت عن احتمال احتمال الخطأ.

◆ وما إن تصل الفكرة إلى هذه المرحلة، حتى تبدأ في تغيير اللغة نفسها. فلا يعود المختلف «مخالفًا»، بل يصبح «خائنًا»، ولا يعود الناقد «مجتهدًا»، بل «عدوًا»، ولا يعود السؤال اجتهادًا مشروعًا، بل مؤامرة تستحق العقاب. وهكذا تمتلئ

الكلمات بالغضب، لأن الأفكار فقدت ثقتها بنفسها، ولم يعد يحميها إلا الخوف.

◆ لذلك لم يكن أعظم ما قدمه العقل الإنساني أنه أنتج أفكارًا عظيمة، بل أنه امتلك الشجاعة ليتجاوز بعضها عندما أثبتت التجربة قصورها. فالفكرة التي لا تقبل أن تُراجع، لا تختلف كثيرًا عن باب أُغلق بالمفتاح، ثم ألقى صاحبه المفتاح في البحر، وأعلن أن الطريق انتهى.

◆ لا تموت الفكرة حين تُناقش، بل حين تُمنع من النقاش. فالأفكار تشبه الكائنات الحية؛ تنمو بالاختبار، وتقوى بالنقد، وتتجدد بالمراجعة. أما إذا أُحيطت بسياج من القداسة، فإنها لا تعود قادرة على التنفس، ويبدأ أتباعها في الدفاع عن بقائها أكثر من دفاعهم عن صدقها.

◆ أخطر ما تصنعه عبادة الفكرة أنها تُبدّل وظيفة العقل. فبدلًا من أن يكون وسيلة لاكتشاف الحقيقة، يصبح أداة لتبرير ما آمن به سلفًا. ومنذ تلك اللحظة، لا يعود الإنسان يقرأ ليعرف، بل ليؤكد، ولا يصغي ليفهم، بل ليرد، ولا يبحث عن البرهان، بل عن الشاهد الذي يسانده. وهكذا يتحول العقل، من قاضٍ يبحث عن العدل، إلى محامٍ لا يرى مهمته إلا في تبرئة موكله.

◆ ولأن الفكرة المقدسة لا تسمح بالمراجعة، فإنها لا تكتفي

بإغلاق باب الاجتهاد، بل تغلق باب الرحمة أيضًا. فكل من يختلف معها يصبح مشروع متهم، وكل من يسأل يُعامل وكأنه يهدد الوجود نفسه. وما أكثر ما دفعت البشرية من أثمان، لأن أناسًا خلطوا بين احترام الفكرة، وتحريم الاقتراب منها.

◆ تأمل تاريخ البشر؛ ستجد أن أكثر المآسي لم تبدأ من نقص الأفكار، بل من الإفراط في تقديسها. فحين تتحول الأيديولوجيا إلى عقيدة مغلقة، والسياسة إلى إيمان لا يُراجع، والجماعة إلى وطن، والزعيم إلى رمز لا يخطئ، يصبح الطريق إلى الاستبداد أقصر مما يتصور الناس. فالطغيان لا يعيش على القوة وحدها، بل يعيش أيضًا على أفكار لم يعد أحد يجرؤ على مساءلتها.

◆ والمفارقة أن الفكرة التي تُعبد، تتوقف عن خدمة أصحابها. فهي تطلب منهم، كل يوم، تنازلًا جديدًا؛ مرة عن سؤال، ومرة عن ضمير، ومرة عن صديق، ومرة عن حقيقة رأوها بأعينهم. حتى يأتي يوم لا يعود فيه الإنسان مالكًا للفكرة، بل مملوكًا لها، يحرسها أكثر مما تحرسه، ويخاف عليها أكثر مما يخاف على حريته.

◆ لهذا كانت الحرية الفكرية ليست حرية تغيير الأفكار فقط، بل حرية مراجعتها أيضًا. فالعقل الحر لا يخون مبادئه

عندما يعيد النظر في بعضها، وإنما يخونها عندما يمنعها من أن تتطور. والمبدأ الذي يخاف من السؤال، لا يحتاج إلى من يهدمه؛ يكفي أن يُترك وحده، حتى ينهار تحت ثقل الجمود.

◆ ليست الحكمة أن يهدم الإنسان كل ما يؤمن به، كما أنها ليست أن يتمسك بكل ما ورثه. الحكمة أن يميز، في كل مرحلة من حياته، بين ما يستحق الثبات، وما يستحق المراجعة. فهناك قيم إنسانية كبرى يزداد بريقها كلما تقدم الزمن، وهناك أفكار بشرية لا يحفظها إلا قدرتها على التجدد.

◆ لقد تعلمت الحياة من النهر أكثر مما تعلمت من الصخر. فالنهر يبقى هو النهر لأنه يجري، أما الصخر فيبقى حيث هو، حتى تتجاوزه الطرق، وتلتف حوله الحياة. وكذلك الأفكار؛ ليست قيمتها في أنها لا تتغير، بل في أنها تعرف كيف تتغير دون أن تفقد روحها.

◆ وربما كان الفرق بين المفكر والداعية إلى فكرة واحدة، أن الأول يحب الحقيقة أكثر مما يحب أفكاره، أما الثاني فيحب أفكاره أكثر مما يحب الحقيقة. الأول يفرح إذا صحح له أحد خطأه، لأن الحقيقة ربحت، والثاني يغضب، لأن صورته اهتزت. ومن هنا يبدأ الافتراق بين العقل الحر، والعقل الأسير.

◆ ليست المشكلة أن ننتمي إلى مدرسة فكرية، أو فلسفة،

أو تيار سياسي، أو رؤية للحياة. فكل إنسان يحتاج إلى إطار يهتدي به. المشكلة تبدأ عندما يتحول هذا الإطار إلى جدار، وعندما تتحول الخريطة إلى الوطن، والوسيلة إلى غاية، والفكرة إلى معبود. فالأفكار العظيمة خُلقت لتقود الإنسان، لا لتستعبده.

◆ وربما كانت أعظم لحظة في حياة العقل، هي تلك التي يكتشف فيها أن الحقيقة كانت دائمًا أكبر من أفكاره، وأرحب من مدارسه، وأوسع من انتماءاته. عندها فقط يتحرر من عبادة ما صنعه بنفسه، ويعود إلى مكانه الطبيعي؛ باحثًا عن الحقيقة، لا مالكًا لها.

«حين تصبح الفكرة أغلى من الحقيقة... يبدأ الغباء في ارتداء ثياب الإيمان».

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي» (9)

✳ غبي من يخاف أن يقول: لا أعرف ✳

«ليست المعرفة أن تمتلك جوابًا لكل سؤال... بل أن تمتلك الشجاعة لتقول: لا أعرف، حين لا تعرف».

◆ من أغرب مفارقات الإنسان أنه يخجل أحيانًا من جهله أكثر مما يخجل من كذبه. فإذا سُئل عما لا يعلم، اندفع يبحث عن إجابة، أي إجابة، كأن الاعتراف بعدم المعرفة ينتقص من قيمته، أو يهز صورته أمام الآخرين. وهكذا تصبح عبارة قصيرة، لا تتجاوز كلمتين، من أثقل العبارات على اللسان: لا أعرف.

◆ ليست المشكلة في الجهل؛ فالجهل هو الحالة الطبيعية التي يبدأ منها كل تعلم. يولد الإنسان جاهلًا بكل شيء تقريبًا، ثم يمضي عمره يضيف إلى معرفته لبنة بعد أخرى. لكن المشكلة تبدأ عندما يتوقف عن التعلم، لا لأنه عرف كل شيء، بل لأنه أقنع نفسه بأنه يعرف ما يكفي، وأن الاعتراف بحدود معرفته هزيمة لا يحتملها.

◆ لعل أكثر ما يميز العقل الحر أنه لا يشعر بالإهانة حين يكتشف مساحة جديدة من جهله. فهو يدرك أن كل باب يفتحه

في المعرفة، يكشف له أبوابًا أخرى لم يكن يراها من قبل. أما العقل المغلق، فإنه كلما عرف شيئًا، ظن أنه اقترب من نهاية الطريق، لا من بدايته. وهكذا يتحول العلم عنده إلى غرور، بدل أن يتحول إلى تواضع.

◆ وما أكثر الذين يجيبون عن كل سؤال، لا لأنهم يعلمون، بل لأنهم يخافون أن يقال عنهم إنهم لا يعلمون. يفسرون الاقتصاد كما يفسرون الطب، ويتحدثون في الفلسفة كما يتحدثون في الفيزياء، ويصدرون الأحكام في التاريخ كما لو كانوا شهوده. وليس أخطر من إنسان فقد القدرة على التمييز بين ما يعرف، وما يظن، وما يتخيل.

◆ عبر التاريخ، لم يكن العلماء الكبار أكثر الناس ادعاءً للمعرفة، بل أكثرهم وعيًا بحدودها. كانوا يدركون أن اتساع الأفق لا يجعل الإنسان يرى كل شيء، بل يجعله يرى حجم ما لم يره بعد. ولذلك لم تكن عبارة «لا أدري» علامة نقص، بل كانت، في كثير من الأحيان، أول علامات الأمانة العلمية.

◆ إن الجهل الصريح أقل خطرًا من الجهل الذي يرتدي ثياب المعرفة. فالجاهل الذي يعرف أنه جاهل، قد يسأل، وقد يتعلم، وقد يغير رأيه. أما الذي يجهل ويعتقد أنه يعلم، فإنه يغلق الباب أمام كل احتمال للتعلم، لأنه لا يشعر أصلًا أنه في حاجة

إليه. ومن هنا يبدأ الغباء في بناء قلعته، حجرًا بعد حجر.

◆ ليست المعرفة مخزنًا تمتلئ رفوفه بالمعلومات، وإنما هي عادة عقلية، تقوم على السؤال، والمراجعة، والتمييز بين اليقين والاحتمال. لذلك قد تجد إنسانًا واسع الثقافة، لكنه فقير المعرفة، لأنه لا يراجع شيئًا مما يحفظه. وقد تجد آخر لا يملك إلا القليل من المعلومات، لكنه يمتلك عقلًا متواضعًا، يعرف كيف يسأل، وكيف يصغي، وكيف يتعلم.

◆ أخطر ما يفعله الخوف من عبارة «لا أعرف» أنه يدفع الإنسان إلى اختراع الإجابات بدل البحث عنها. ومع مرور الوقت، لا يعود يميز بين الحقيقة وما اخترعه، فيصدق رواياته الخاصة، ويعيش داخلها مطمئنًا، بينما الواقع يبتعد عنه خطوة بعد أخرى.

◆ وربما لهذا السبب، كانت الحضارات التي احترمت السؤال، أكثر قدرة على الاكتشاف، بينما بقيت الحضارات التي عاقبت السؤال، تدور طويلًا حول الإجابات نفسها. فالسؤال لا يهدد المعرفة، وإنما يوقظها. أما الإجابة التي تخشى السؤال، فهي لا تدافع عن الحقيقة، بل عن ضعفها.

◆ ليس من العيب أن يقول الإنسان: «لا أعرف.» العيب أن يخاف من قولها، وأن يملأ هذا الخوف بكلمات كثيرة، يظن

أنها تخفي جهله، بينما هي تكشفه أكثر مما تخفيه. فالكلمات تستطيع أن تستر النقص أمام الآخرين، لكنها لا تستطيع أن تمنح العقل معرفة لم يكتسبها.

◆ لا يتوقف أثر الخوف من عبارة «لا أعرف» عند حدود الفرد، بل يمتد إلى الجماعات والدول والمؤسسات. فكم من قرار اتُّخذ لأن صاحبه خجل من الاعتراف بأنه يحتاج إلى مزيد من المعلومات، وكم من أزمة تفاقمت لأن أحدًا لم يمتلك الشجاعة ليقول: لست متأكدًا، فلنبحث أولًا. إن كثيرًا من الكوارث لم تبدأ بإجابة خاطئة، بل بدأت بادعاء امتلاك الإجابة الصحيحة.

◆ وفي الحياة العامة، يزداد هذا المرض خطورة. فالسياسي الذي يخشى الاعتراف بجهله، لا يتردد في تقديم وعود لا يستطيع الوفاء بها. والإعلامي الذي يخاف من قول «لا أعلم»، يملأ فراغ المعرفة بالضجيج. والمفكر الذي يظن أن مكانته لا تسمح له بالتراجع، يتحول تدريجيًا إلى سجين لما قاله بالأمس، ولو أثبتت الأيام خطأه. وهكذا تصبح السمعة عبئًا على الحقيقة، بدل أن تكون في خدمتها.

◆ وما أكثر القادة الذين سقطوا لأنهم أحاطوا أنفسهم بمن لا يسمحون لأنفسهم بقول: «لا نعرف». كانوا يظنون أن الثقة تُبنى على اليقين المطلق، بينما كانت تُبنى، في الحقيقة، على

الصراحة. فالقائد الذي يسمع الحقيقة، وإن كانت ناقصة، أقدر على اتخاذ القرار من قائد لا يسمع إلا ما يطمئنه، ولو كان وهمًا.

◆ ليس الاعتراف بالجهل ضعفًا في الشخصية، بل قوة في الضمير. فالضعيف هو من يخشى أن تهتز صورته إذا اعترف بحدود معرفته، أما القوي، فيدرك أن صورته لا يصنعها ادعاء الكمال، وإنما يصنعها صدقه مع نفسه قبل صدقه مع الآخرين. وما من عقل نضج إلا بعد أن تصالح مع حقيقة بسيطة: لن أعرف كل شيء، ولن أحيط بكل شيء.

◆ تأمل الطفل وهو يتعلم الكلام. إنه لا يخجل من السؤال، ولا يستحي من الخطأ، ولا يرى في جهله عارًا، ولذلك يتعلم بسرعة مدهشة. ثم يكبر، ويبدأ المجتمع في تعليمه درسًا آخر؛ أن الجواب أهم من السؤال، وأن الاعتراف بالجهل يضعف المكانة. ومنذ تلك اللحظة، يبدأ كثيرون في إخفاء جهلهم، بدلًا من معالجته.

◆ ولعل أجمل ما في العلماء الحقيقيين أنهم لا يتعاملون مع المعرفة باعتبارها ملكية خاصة، بل باعتبارها رحلة مشتركة. لا يأنفون من تعديل آرائهم، ولا يرون في اكتشاف خطأ سابق فضيحة، بل تقدمًا. إنهم يعلمون أن الحقيقة لا تكافئ من يدّعي

امتلاكها، وإنما تكافئ من يظل يسعى إليها، مهما طال الطريق.

◆ وما أكثر الذين يخلطون بين الحسم والحكمة. فالحسم قد يحتاجه القرار، أما الحكمة فتحتاج إلى التروي. وقد يكون أكثر الناس ثقة أقلهم معرفة، بينما يكون أكثرهم علمًا أشدهم حذرًا في إطلاق الأحكام. وليس ذلك ترددًا، بل احترامًا لتعقيد الحياة، وإدراكًا أن الواقع أكبر من أن يُختزل في إجابة واحدة جاهزة.

◆ إن العقل الذي يتصالح مع عبارة «لا أعرف» لا يفقد هيبته، بل يكتسبها. لأنه يعلن أن الحقيقة عنده أغلى من صورته، وأن التعلم أهم من الادعاء، وأن السؤال ليس علامة نقص، بل دليل حياة. أما العقل الذي يخاف هذه العبارة، فإنه يظل أسيرًا لها، يهرب منها بالكلمات، بينما تطارده في صمت.

◆ وربما كان الفرق الأعمق بين الحكيم والغبي، أن الحكيم يجعل جهله نقطة البداية، بينما يجعلها الغبي نقطة النهاية. الأول يسأل لأنه يريد أن يعرف، والثاني يجيب لأنه يخشى أن يقال إنه لا يعرف. الأول يتقدم مع كل سؤال، والثاني يتراجع مع كل إجابة ادعاها قبل أوانها.

◆ ليست المعرفة الحقيقية فيما نملكه من أجوبة، بل فيما نملكه من شجاعة لمراجعة تلك الأجوبة كلما ظهرت حقيقة أوسع منها. فالعقول التي تتجدد، لا تخاف من اكتشاف نقصها، لأنها

تعلم أن النقص بداية الاكتمال، لا نقيضه. أما العقول التي تخشى الاعتراف، فإنها تكتفي بتكرار ما تعرفه، حتى وإن توقف العالم كله عن تصديقه.

◆ ومن هنا، لا يكون الغباء في أن يجهل الإنسان، فالجهل قدر البداية لكل عقل. وإنما يكون الغباء في أن يجعل خوفه من الاعتراف بالجهل حاجزًا بينه وبين المعرفة. فليس كل من قال: «لا أعرف» أقل علمًا، لكن كل من عجز عن قولها، حرم نفسه من الطريق الذي يبدأ منه كل علم.

«لا يولد الإنسان عالمًا، ولا يموت جاهلًا إلا إذا خجل، يومًا، من أن يقول: لا أعرف».



ورقة من كتاب «الغبي» (10)

✳من الغباء رفض الاعتذار بدعوى الكبرياء✳

«ليست الكرامة أن ترفض الاعتذار... بل أن ترفض أن تكذب على نفسك حتى لا تعتذر».

◆ من أكثر الأخطاء التي يقع فيها الإنسان أنه يخلط بين ما يحمي كرامته وما يغذي كبرياءه. والفرق بينهما ليس فرقًا في الألفاظ، بل في طبيعة الروح نفسها. فالكرامة تمنح الإنسان قدرة على الوقوف، أما الكبرياء فيمنعه أحيانًا من الانحناء ليلتقط الحقيقة من الأرض.

◆ يولد الإنسان محتاجًا إلى التقدير، وهذا احتياج طبيعي لا عيب فيه. لكنه قد يتحول، مع الزمن، إلى خوف دائم من أن يبدو ناقصًا، أو مخطئًا، أو أقل معرفة مما يظنه الناس. ومن هنا يبدأ الكبرياء في ارتداء قناع الكرامة، حتى يظن صاحبه أنه يدافع عن احترامه لنفسه، بينما هو، في الحقيقة، يدافع عن صورة رسمها لنفسه، ويخشى أن تتشقق.

◆ ليست الكرامة أن تنتصر في كل نقاش، ولا أن تكون صاحب الكلمة الأخيرة، ولا أن يخرج الجميع مقتنعين بأنك كنت

على حق. الكرامة أهدأ من ذلك كله؛ إنها أن تستطيع النظر إلى نفسك دون أن تحتاج إلى تزوير الوقائع، أو تجميل الأخطاء، أو اختراع الأعذار. إنها الصدق مع الذات قبل أن تكون الانتصار على الآخرين.

◆ أما الكبرياء، فإنه يعيش على فكرة واحدة: لا تتراجع. لا لأنه يعرف أن التراجع خطأ، بل لأنه يخشى أن يُفهم على أنه ضعف. لذلك يواصل الدفاع عن موقف فقد منطقه، ويتمسك برأي فقد أدلته، ويكرر كلمات لم يعد يؤمن بها تمامًا، فقط لأن الاعتراف يكلّفه أكثر مما يكلّفه الاستمرار في الخطأ.

◆ وما أكثر الذين خسروا علاقاتهم، أو أعمالهم، أو قضاياهم، لأنهم لم يستطيعوا أن يقولوا كلمة واحدة: كنت مخطئًا. لم يكن ينقصهم الذكاء، ولا الخبرة، ولا حسن النية، وإنما كانت تنقصهم الشجاعة التي تجعل الإنسان يفضل الحقيقة على صورته، والواقع على غروره.

◆ الكبرياء لا يرفض الاعتذار لأنه لا يرى الخطأ، بل لأنه يرى الاعتذار هزيمة. أما الكرامة، فلا ترى في الاعتذار انكسارًا، وإنما ترى فيه احترامًا للحقيقة، واحترامًا للآخر، واحترامًا للنفس أيضًا. ولهذا يعتذر صاحب الكرامة وهو مرفوع الرأس، بينما يظل صاحب الكبرياء يدافع عن خطئه، وإن انحنى له ضميره في الخفاء.

◆ والغريب أن الكبرياء لا يصنع الإنسان الكبير، بل يصنع الإنسان الهش. فكلما كانت صورة الإنسان عن نفسه أكثر هشاشة، ازداد خوفه من كل نقد، ومن كل ملاحظة، ومن كل اختلاف. أما من استقرت كرامته في داخله، فإنه لا يحتاج إلى أن يثبتها في كل لحظة، ولا يرى في النقد محاولة لإهانته، بل فرصة قد تكشف له ما لم يكن يره من قبل.

◆ في الحياة العامة، كثيرًا ما يتحول الكبرياء إلى سياسة. فترفض المؤسسات الاعتراف بخطأ واضح، لا لأن الحقيقة غامضة، بل لأن التراجع أصبح أثقل من الاستمرار. وتستمر قرارات خاسرة، لا لجدواها، وإنما لأن الاعتراف بفشلها يبدو أكثر كلفة من تحمل نتائجها. وهكذا يدفع الناس ثمن غرور لا علاقة له بكرامتهم.

◆ وفي العلاقات الإنسانية، يحدث الأمر ذاته. تبدأ خصومات طويلة بسبب كلمة كان يمكن أن يحسمها اعتذار صادق في دقائق. وتتفكك صداقات لأن أحد الطرفين رأى في الاعتذار تنازلًا عن مكانته، لا تعبيرًا عن نبل أخلاقه. ويخسر الإنسان أشخاصًا أحبوه، لأنه كان أكثر حرصًا على الانتصار في لحظة، من حرصه على استمرار العلاقة سنوات.

◆ وربما لهذا السبب، لا يُقاس نضج الإنسان بعدد المرات

التي انتصر فيها، بل بعدد المرات التي امتلك فيها الشجاعة ليراجع نفسه قبل أن يراجع الآخرين. فالعقل الناضج لا يخشى أن يتراجع خطوة إذا كانت تلك الخطوة تقربه من الحقيقة، بينما يواصل العقل الأسير لكبريائه السير في الطريق الخطأ، فقط لأنه بدأه بنفسه.

◆ لا يكتفي الكبرياء برفض الاعتذار، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؛ إذ يبدأ في إعادة كتابة الوقائع نفسها. فيصير الخطأ مجرد "سوء فهم"، والظلم "حزمًا"، والقسوة "صراحة"، والتراجع عن الوعد "تغيرًا في الظروف". وما إن ينجح الإنسان في تغيير أسماء الأشياء، حتى يخف عبء ضميره، لكنه في الوقت نفسه يبتعد خطوة أخرى عن الحقيقة.

◆ ولهذا، فإن أكثر الاعتذارات صدقًا ليست تلك التي تكثر فيها الكلمات، بل تلك التي يسبقها اعتراف هادئ بالمسؤولية. فالإنسان الذي يعتذر ثم يوزع اللوم على الجميع، لا يعتذر في الحقيقة، وإنما يبحث عن صيغة أكثر تهذيبًا لتبرئة نفسه. أما الاعتذار الحقيقي، فلا يحتاج إلى بلاغة، لأنه يولد من شجاعة لا من مهارة.

◆ وما أكثر الذين يظنون أن مكانتهم ستصغر إذا قالوا: «أخطأت.» بينما تكشف الحياة، مرة بعد أخرى، أن الناس

يغفرون الخطأ أكثر مما يغفرون المكابرة، ويحترمون من يراجع نفسه أكثر مما يحترمون من يتشبث بخطئه. فالكبرياء قد يفرض الصمت لحظة، لكنه يفقد الثقة على المدى البعيد، أما الصدق، فقد يوجع صاحبه لحظة، لكنه يبني احترامًا يبقى.

◆ وفي الحياة العامة، لا تُقاس قيمة القادة بعدد القرارات التي اتخذوها، بل بقدرتهم على تصحيح القرار حين تثبت التجربة أنه كان خطأ. فليس العيب أن تخطئ دولة، أو حزب، أو مؤسسة، وإنما العيب أن تتحول هيبة القرار إلى ذريعة تمنع مراجعته. فالقرارات خُلقت لخدمة الناس، لا ليُضحَّى بالناس من أجل المحافظة على صورة القرارات.

◆ وكذلك في الأسرة، وفي الصداقة، وفي الحب، لا تكون العلاقات أكثر قوة عندما يقل الخطأ، بل عندما يزداد الصدق. فكثير من البيوت لم تهدمها الأخطاء، وإنما هدمها الإصرار على إنكارها. وكثير من القلوب لم تكسرها القسوة الأولى، بل كسرها العناد الذي رفض أن يقول: "سامحني".

◆ إن الإنسان الذي لا يعتذر، لا يعاقب الآخرين وحدهم، بل يعاقب نفسه أيضًا. فهو يحمل عبء الدفاع عن موقف لم يعد يؤمن به، ويستهلك طاقته في حماية صورة بدأت تتصدع، بينما كان يستطيع أن يسترد راحته بكلمة واحدة. ولهذا يصبح

الكبرياء، في كثير من الأحيان، عقوبة يوقعها الإنسان على نفسه، وهو يظن أنه ينتصر لها.

◆ ليست الشجاعة أن ترفع صوتك حين تكون على حق، فذلك يقدر عليه كثيرون. الشجاعة الحقيقية أن تخفض صوتك حين تكتشف أنك كنت مخطئًا. وأن تمتلك من الثقة بنفسك ما يجعلك تعترف دون خوف، وتصحح دون خجل، وتبدأ من جديد دون أن تشعر أن كرامتك قد انتقصت.

◆ وما أكثر الذين أضاعوا أعمارهم وهم يدافعون عن أخطاء كان يمكن أن تتحول، لو اعترفوا بها مبكرًا، إلى خبرة نافعة. لكن الكبرياء لا يسمح لصاحبه أن يتعلم من خطئه، لأنه مشغول، طوال الوقت، بإثبات أنه لم يخطئ أصلًا. وهكذا لا يخسر الحقيقة فقط، بل يخسر الدرس الذي كانت الحقيقة تحمله إليه.

◆ ولعل الفارق الأعمق بين الإنسان الناضج والإنسان الأسير لكبريائه، أن الأول يرى الاعتذار نهاية الخطأ، بينما يراه الثاني بداية الهزيمة. الأول يحرر نفسه بالصدق، والثاني يقيدها بالمكابرة. الأول يخرج من التجربة أكثر حكمة، أما الثاني فيخرج منها أكثر تصلبًا، وأقل قدرة على رؤية نفسه.

◆ إن الكرامة لا تحتاج إلى أقنعة، لأنها لا تخاف الحقيقة. أما الكبرياء، فيعيش دائمًا خلف الأقنعة، لأنه يخشى أن يراه

الناس كما هو. ولذلك يزداد صاحبه قلقًا كلما بالغ في الدفاع عن صورته، بينما يزداد صاحب الكرامة طمأنينة كلما اقترب من الصدق.

◆ ومن هنا، لا يكون الغباء في الخطأ، ولا حتى في تأخر الاعتذار، وإنما في أن يتحول الكبرياء إلى سجن يمنع الإنسان من عبور المسافة القصيرة بين «كنت على حق» و**«كنت مخطئًا»**. فهذه المسافة، على قصرها، هي التي تفصل بين عقل يتعلم، وعقل يحكم على نفسه بالبقاء أسيرًا لصورته.

«ليس الاعتذار ما يكسر الإنسان... بل الإصرار على خطأ يعرف في أعماقه أنه كان يستطيع الاعتراف به».



ورقة من كتاب «الغبي»(11)

✳ غباء العقل الموروث..
حين يفكر الآخرون بالنيابة عنا ✳

«ليس أخطر ما يرثه الإنسان مالًا أو اسمًا... بل فكرةً لم يخترها، ثم يقضي عمره يدافع عنها كأنها ثمرة عقله».

◆ يولد الإنسان بلا أفكار، لكنه لا يولد في فراغ. يفتح عينيه على لغة لم يخترها، وأسماء لم يخترها، وعادات سبقته، وقصص تتردد في بيته، وأحكام جاهزة على الناس والأشياء. وهذا كله جزء من الطبيعة الإنسانية؛ فلا أحد يبدأ حياته من نقطة الصفر. لكن الفرق بين العقل الحي والعقل الكسول، أن الأول يتعامل مع هذا الميراث بوصفه بداية للطريق، بينما يتعامل الثاني معه بوصفه نهاية الطريق.

◆ ليست المشكلة فيما ورثناه، بل فيما توقفنا عن مراجعته. فليس كل قديم صحيحًا لأنه قديم، كما أن الجديد ليس صوابًا لمجرد أنه جديد. وبين التقديس الأعمى والرفض الأعمى تضيع الحكمة. أما العقل الناضج، فلا يسأل: متى وُلدت هذه الفكرة؟

بل يسأل: هل ما زالت صالحة؟ وهل ما زالت تحقق الخير الذي وُجدت من أجله؟

◆ والأديان السماوية لم تأتِ لتغلق أبواب العقل، وإنما لتفتحها. لقد خاطبت الإنسان بوصفه كائنًا يعقل، ويتدبر، ويتفكر، ويميز بين الحق والباطل. ولذلك فإن احترام الوحي لا يعني تجميد الاجتهاد البشري، كما أن توقير القيم لا يعني تحويل كل ما أنتجه البشر عبر التاريخ إلى منطقة محرمة على السؤال. فهناك فرق بين النص الإلهي الثابت، وبين الفهم الإنساني المتجدد لهذا النص، وبين العادات التي أضافها الناس إلى حياتهم عبر الأزمنة.

◆ يبدأ الغباء عندما تختلط هذه الحدود. حين يصبح الرأي البشري في منزلة الحقيقة المطلقة، والعادة في منزلة القيمة، والاجتهاد في منزلة النص، والتفسير في منزلة الوحي. عندها لا يعود الإنسان يدافع عن الدين، وإنما يدافع عن فهمه هو للدين، ويخلط بين قداسة الرسالة، وبشرية القراءة.

◆ وما يقال في المجال الديني، يقال أيضًا في السياسة، والثقافة، والاجتماع، والأسرة. فكم من فكرة يتعامل معها الناس على أنها حقيقة أزلية، بينما هي في الأصل اجتهاد بشري ولد في ظرف تاريخي معين، وربما كان صالحًا لزمانه، لكنه لم يعد

يجيب عن أسئلة زمن آخر. وليس في مراجعة هذه الاجتهادات انتقاص من أصحابها، بل اعتراف بأنهم بشر اجتهدوا، كما نجتهد نحن اليوم.

◆ أخطر ما في العقل الموروث أنه يمنح الإنسان شعورًا مريحًا بالإعفاء من مسؤولية التفكير. فلا يحتاج إلى أن يختبر، أو يقارن، أو يسأل، لأنه يجد الإجابات جاهزة، والطرق مرسومة، والأحكام مكتوبة سلفًا. وهكذا يتحول العقل من أداة للاكتشاف إلى مخزن للتكرار، ويصبح الحفظ بديلًا عن الفهم، والاتباع بديلًا عن الاقتناع.

◆ ومن العجيب أن كثيرًا من الناس يدافعون عن أفكار لم يجلسوا يومًا ليسألوا أنفسهم: لماذا أؤمن بها؟ هل وصلت إليها بعد بحث وتأمل؟ أم أنني وجدتها أمامي، فحملتها كما حملت اسمي ولغتي ولهجتي؟ وليس المقصود أن يرفض الإنسان كل ما ورثه، بل أن يعرف لماذا قبله، وأن يكون قبوله فعلًا واعيًا، لا مجرد استمرار لعادات لم تُختبر.

◆ إن العقل الذي لا يراجع موروثه، لا يختلف كثيرًا عن مسافر يحمل خريطة قديمة، ثم يغضب من الطريق لأنه لم يعد يشبهها. فالخرائط تُراجع، والاجتهادات تُراجع، والخطط تُراجع، أما الحقيقة فلا تخشى المراجعة، لأنها تزداد وضوحًا كلما اقترب

الإنسان منها بعقل مفتوح وقلب مطمئن.

◆ ولعل أكبر ظلم نرتكبه في حق أسلافنا، أن نحول اجتهاداتهم إلى أصنام. فما تركوه لنا لم يكن سجونًا نسكنها، بل خبرات نهتدي بها. ولو عاد أكثرهم إلى الحياة، لربما كان أول من يدعونا إلى أن نضيف إلى ما أنجزوه، لا أن نكتفي بترديده. فالأحياء يكرمون السابقين بالبناء، لا بالتوقف عند حدودهم.

◆ لذلك لا يكون الوفاء للميراث في تجميده، وإنما في إحيائه. ولا يكون احترام التاريخ في السكن داخله، وإنما في فهمه، ثم الانطلاق منه إلى المستقبل. فالميراث الحقيقي لا يطلب من الأبناء أن يكرروا الآباء، بل أن يكونوا جديرين بما ورثوه، وأن يضيفوا إليه ما يجعل الأجيال القادمة ترث منهم ما يستحق أن يُورث.

◆ ليس العقل الموروث هو ما ورثناه من آبائنا، وإنما ما ورثناه ثم أعفينا أنفسنا من مسؤوليته. فليس الإرث هو المشكلة، وإنما التنازل عن حقنا في فهمه، وتمييزه، واختباره. فالإنسان لا يُسأل عما وُلد عليه، لكنه يُسأل، مع مرور الزمن، عما اختار أن يبقى عليه بعد أن أصبح قادرًا على الاختيار.

◆ وكل فكرة لا تحتمل السؤال، لا تستحق أن تقود عقلًا حرًا. فالأفكار القوية لا تخشى الامتحان، لأنها تعرف أن قوتها

لا تأتي من الصمت المفروض حولها، بل من قدرتها على الصمود أمام النقاش. أما الفكرة التي ترتبك من أول سؤال، فغالبًا ما كانت تستمد هيبتها من الخوف، لا من البرهان.

◆ وقد يكون أخطر ما يفعله العقل الموروث أنه يختصر العالم في تجربة واحدة، وزمن واحد، وبيئة واحدة. بينما الحياة أكثر اتساعًا من أن تُقرأ بعين واحدة، أو تُفهم بعقل واحد. فالناس تتغير، والظروف تتغير، والمعارف تتسع، وما كان جوابًا مناسبًا في مرحلة، قد يصبح بحاجة إلى مراجعة في مرحلة أخرى، دون أن يعني ذلك انتقاصًا ممن اجتهدوا في الماضي أو استخفافًا بما قدموه.

◆ ليس من الوفاء للآباء أن نعطل عقولنا، بل أن نحسن استخدام العقول التي ربونا على احترامها. وليس من البر بالتاريخ أن نحوله إلى إقامة دائمة، بل أن نجعله نقطة انطلاق. فالأمم التي بقيت حية هي تلك التي حفظت جذورها، لكنها لم تمنع أغصانها من أن تمتد نحو ضوء جديد.

◆ وما أكثر الذين يرددون عبارات ورثوها، فإذا سألتهم عن معناها، أو عن سبب اقتناعهم بها، اكتشفوا أنهم لم يفكروا فيها يومًا. ليست المشكلة أنهم أخذوها عن غيرهم، فكل معرفة تبدأ بالتلقي، وإنما المشكلة أنهم لم ينتقلوا من التلقي إلى الفهم، ومن الحفظ إلى

الاقتناع، ومن الاقتناع إلى المراجعة كلما اقتضى الأمر.

◆ إن العقل الحر لا يشعر بالخيانة عندما يراجع ما ورثه، لأنه لا يراجع الأشخاص، بل يراجع الأفكار. وهو لا يقف موقف الخصومة من الماضي، ولا موقف العداء من السابقين، وإنما موقف الابن الذي يحترم ميراث أبيه، فيحافظ على ما ينفع، ويصلح ما يحتاج إلى إصلاح، ويضيف إليه ما تسمح به خبرة عصره. وهكذا يبقى الوفاء فعلًا حيًا، لا تكرارًا جامدًا.

◆ لقد تقدمت الإنسانية لأن كل جيل أضاف إلى ما ورثه، ولم يكتفِ بحراسته. ولو أن الناس اكتفوا بتكرار ما وجدوه، لما تطور علم، ولا ازدهرت حضارة، ولا نضج فكر. فالتاريخ ليس متحفًا نزوره بإجلال ثم نغادره كما دخلناه، بل مدرسة نتعلم منها لنواصل السير، لا لنتوقف عند أبوابها.

◆ وربما كانت أخطر لحظة في حياة الإنسان، تلك التي يكتشف فيها أنه يدافع عن فكرة، لا لأنه يؤمن بها حقًا، بل لأنه اعتادها. فالعادة تمنح الأفكار شعورًا زائفًا بالبداهة، حتى يظن الإنسان أن ما ألفه هو وحده الطبيعي، وأن كل ما عداه خروج عن الفطرة أو العقل، بينما الحقيقة أن كثيرًا من العادات ليست إلا حلولًا بشرية لظروف بشرية، تتغير حين تتغير الظروف.

◆ ليس المطلوب من الإنسان أن يبدأ كل صباح بإعادة

بناء العالم، ولا أن يعيش في صراع دائم مع كل ما ورثه. المطلوب فقط أن يحتفظ بحقه في السؤال، وأن يبقى مستعدًا، إذا ظهرت له حجة أوضح، لأن يراجع رأيًا، أو يصحح فهمًا، أو يعيد ترتيب فكرة. فالعقل الذي فقد القدرة على المراجعة، فقد في الحقيقة القدرة على النمو.

◆ ومن هنا لا يكون الغباء في أن يرث الإنسان أفكارًا، فكلنا نبدأ حياتنا بذلك. وإنما يكون الغباء في أن يموت بالأفكار نفسها، دون أن يمنحها فرصة واحدة لتتحاور مع عقله، أو مع تجاربه، أو مع حقائق الحياة. فالوراثة بداية لا يملكها الإنسان، أما الاختيار فهو الامتحان الحقيقي لعقله.

◆ حين يفكر الآخرون بالنيابة عنا، قد نكسب راحة مؤقتة، لكننا نخسر أثمن ما مُنح للإنسان: حريته الداخلية. فالعقل لا يصبح حرًا لأنه يرفض كل ما ورث، ولا لأنه يقبل كل ما ورث، وإنما لأنه يعرف كيف يزن، وكيف يميز، وكيف يختار. وهناك فقط، يتوقف الإرث عن أن يكون قيدًا، ويصبح رصيدًا.

«لا يُقاس نضج العقل بما ورثه... بل بما امتلك من شجاعة ليفهمه، ويميزه، ثم يختار منه ما يستحق أن يبقى».

ورقة من كتاب «الغبي»(12)

✳ غباء العقل الذي اكتفى ✳

«يذبل العقل في اللحظة التي يقتنع فيها أن ما بين يديه يغنيه عما وراءه».

◆ لا تقع لحظة الاكتفاء بضجيج يُسمع، ولا يصاحبها إعلان يلفت الانتباه. إنها تحدث في صمت، حين يغادر الفضول مكانه، ويحل الاطمئنان محله. عندئذٍ لا يتوقف الإنسان عن القراءة، ولا عن الكلام، ولا عن متابعة ما يجري حوله، لكنه يفقد، دون أن ينتبه، تلك الشرارة الخفية التي كانت تدفعه إلى الاقتراب أكثر، وإلى رؤية ما لم يكن يراه بالأمس.

◆ في البدايات، يتعامل الإنسان مع العالم كما يتعامل المسافر مع مدينة يزورها لأول مرة؛ يلتفت إلى التفاصيل، ويتوقف أمام المألوف كما لو كان جديدًا، ويمنح الأشياء فرصة أن تكشف له وجوهها. ثم تمضي الأعوام، فيختفي هذا الشغف عند بعض الناس، لا لأن العالم أصبح أقل ثراءً، بل لأن العين التي تنظر إليه اكتفت بما حفظته، ورضيت بما اعتادته.

◆ ليست المشكلة في أن يمتلك المرء قناعة، أو خبرة، أو

تجربة طويلة، فهذه جميعًا ثروات لا غنى عنها. إنما تبدأ الخسارة عندما تتحول هذه الثروة إلى سور مرتفع، يمنع صاحبها من رؤية ما يقع خارجه. فالخبرة التي لا تتجدد تتحول، مع الزمن، إلى عادة، والعادة قد تصبح حجابًا يحول بين الإنسان وبين رؤية ما استجد في الحياة.

◆ ثمة فرق دقيق بين الاستقرار والركود. الأول يمنح الإنسان أرضًا يقف عليها، أما الثاني فيسحب منه القدرة على الحركة وهو يظن أنه في مأمن. ولهذا تبدو بعض العقول واثقة، لكنها ليست واثقة بقدر ما هي مغلقة. فقد أغلقت أبوابها بإحكام، ثم فسرت غياب الريح بأنه دليل على سلامة البناء.

◆ القيم الكبرى لا يهددها الاتساع، والإيمان الصادق لا يخشى التأمل، والأخلاق الراسخة لا ترتبك أمام تغير الأزمنة. الذي يخاف من الاتساع هو ما يصنعه البشر من تصورات واجتهادات وعادات، لأنها بطبيعتها قابلة لأن تكتمل أو تُصحح أو تُستبدل بما هو أصلح. أما الخلط بين الثابت والمتغير، فهو الذي يجعل الإنسان يقف موقف الدفاع عن كل شيء، حتى ما لم يُخلق ليبقى على صورته الأولى.

◆ هناك عقول تمتلئ كل يوم بمعلومات جديدة، لكنها لا تفسح مكانًا لفكرة جديدة. تضيف إلى ذاكرتها، ولا تضيف إلى

رؤيتها. ولهذا قد يزداد الإنسان علمًا، من حيث الكم، بينما يضيق أفقه، من حيث القدرة على إعادة النظر، لأن المعرفة ليست ما نختزنه، بل ما يغير في طريقة رؤيتنا للعالم.

◆ لا يصنع الاكتفاء دائمًا غرور ظاهر، بل قد يتسلل في هيئة رضا هادئ. يقول الإنسان لنفسه: لقد رأيت ما يكفي، وجربت ما يكفي، وفهمت ما يكفي. ومن هذه العبارة القصيرة يبدأ الانكماش الداخلي. فالعالم لا يتوقف عن الاتساع، لكن صاحبه هو الذي يقرر، في لحظة غير مرئية، أن يكتفي بالمقدار الذي وصل إليه.

◆ يظل الماء عذبًا لأنه يتحرك، وتظل الشجرة مثمرة لأنها تستقبل فصلًا جديدًا كل عام. أما ما ينغلق على نفسه، فإنه يبدأ في استهلاك ما يملكه، لا في زيادته. وكذلك الإنسان؛ ما يحفظ نضارة بصيرته ليس كثرة ما جمع، وإنما استعداده الدائم لأن يضيف، وأن يراجع، وأن يسمح للحياة بأن تفاجئه من جديد.

◆ ليس العمر هو الذي يضيق الأفق، ولا التجربة هي التي تطفئ الدهشة، وإنما القرار الخفي الذي يتخذه بعض الناس، دون أن يشعروا، بالاكتفاء بما صار لديهم. ومنذ تلك اللحظة، يبقى الجسد في حركة، بينما تتوقف في الداخل تلك القدرة النادرة على

الاتساع، وكأن النوافذ ما زالت مفتوحة، لكنها لم تعد تستقبل نسيمًا جديدًا.

◆ لا يعلن العقل اكتفاءه، بل يكشفه سلوكه. تراه يبتسم لكل ما يعرفه، ويتجاوز في عجلة كل ما يربكه. لا يقترب من الآراء المختلفة ليزنها، بل ليطمئن إلى أنه ما زال على موقفه الأول. وما يبدو في ظاهره ثباتًا، قد لا يكون في حقيقته سوى خوف هادئ من مغادرة المنطقة التي اعتادها.

◆ يختلف الإنسان عن سائر المخلوقات بأنه قادر على أن يولد أكثر من مرة، لا بجسد جديد، بل ببصيرة جديدة. وكلما اتسعت خبرته، واتسعت معها رؤيته، بدا كأنه يعيد اكتشاف العالم من زاوية أخرى. أما الذي يكتفي بما بلغه، فإنه يحرم نفسه من هذه الولادات المتعاقبة، ويعيش بعين واحدة، مهما تبدلت المناظر من حوله.

◆ الحضارات لم تزدهر لأنها امتلكت أجوبة نهائية، وإنما لأنها لم تتعامل مع منجزها بوصفه الكلمة الأخيرة. كانت تضيف إلى خبرتها، وتنقح أدواتها، وتعيد قراءة نفسها كلما فرض الواقع لغة جديدة. وما إن ظنت أمة أن ما بلغته يكفيها، حتى بدأ الزمن يتجاوزها، بينما كانت لا تزال تنظر إلى الأمام بعيني الماضي.

◆ الإنسان الذي يكتفي لا يرفض الجديد دائمًا، بل يقبله

أحيانًا بشرط ألا يغير شيئًا في داخله. يرحب بالأدوات، لكنه يخشى تبدل الرؤية. يغير هاتفه، وسيارته، وبيته، لكنه يبقي طريقته في النظر إلى الحياة على حالها، وكأن التغيير مقبول ما دام لا يقترب من الداخل.

◆ بين الامتلاء والاكتفاء مسافة واسعة. فالامتلاء الحقيقي يجعل صاحبه أكثر تواضعًا، لأنه يدرك اتساع ما لم يبلغه بعد. أما الاكتفاء، فيوهم صاحبه بأن ما بين يديه هو القدر الكافي، فينصرف عن كل أفق جديد، لا لأنه أثبت خطأه، بل لأنه لم يعد يرى ضرورة للاقتراب منه.

◆ لا تحتاج البصيرة إلى أن تهدم ما استقر فيها كل يوم، لكنها تحتاج إلى أن تبقى يقظة. فالعقول التي تظل متصلة بالحياة تعرف كيف تميز بين ما ينبغي أن يثبت، وما ينبغي أن يتطور، وبين ما يزول لأنه كان ابن ظرفه، وما يبقى لأنه جزء من القيم التي تحفظ للإنسان إنسانيته.

◆ لذلك لا يكون النضج أن تتضاءل مساحة الدهشة، بل أن تصبح أكثر عمقًا. فالصغير يندهش من غرابة الأشياء، أما الناضج فيندهش من اتساعها. وكلما ازداد إدراك الإنسان، اكتشف أن العالم أرحب من أن يُختزل في تجربة واحدة، أو في عمر واحد، أو في عقل واحد.

◆ أخطر ما يصنعه الاكتفاء أنه لا يغلق الأبواب دفعة واحدة، بل يتركها مواربة، حتى يظن صاحبها أنها ما زالت مفتوحة. غير أنها لا تسمح بدخول شيء جديد، لأنها اكتفت بالهواء القديم، وألفت الضوء الذي تعرفه، وخشيت أن يكشف الضوء الآخر ما لم تكن تراه.

◆ الحرية الداخلية لا تُقاس بعدد ما نملكه من أفكار، وإنما بقدرتنا على ألا نصبح أسرى لها. والإنسان يظل حرًا ما دام قادرًا على الإنصات للحياة وهي تعلمه، وعلى استقبال التجربة وهي تهذبه، وعلى الاعتراف بأن الاتساع لا حد له، وأن الوقوف طويلًا في المكان نفسه ليس استقرارًا، بل بداية ضمور.

◆ ومن هنا، لا يكون الغباء في أن يعرف الإنسان كثيرًا أو قليلًا، وإنما في أن يقنع نفسه بأن ما عرفه هو آخر ما يستحق أن يُعرف. فذلك هو الاكتفاء الذي يطفئ وهج البصيرة، ويحول الخبرة من جناحين إلى قيد، ويجعل العقل يقيم في ما جمعه، بدل أن يواصل اتساعه.

«لا يفقد الإنسان حيويته عندما تقل معارفه... بل عندما يتوقف عن منح نفسه فرصة أن يصبح أوسع مما كان عليه بالأمس».

ورقة من كتاب «الغبي»(13)

✳ الغبي يري نفسه في مرايا متقابلة ✳

«ليس كل ما يتكرر حقيقة... فقد يكون مجرد انعكاسٍ لا يعرف الغبي أنه انعكاس».

◆ دخل القاعة وهو يبحث عن باب.

لم يكن يحمل خوفًا، ولا فضولًا استثنائيًا. كان يريد مخرجًا فحسب. لكن الجدار الأول الذي اقترب منه لم يكن جدارًا، بل مرآة. ثم التفت، فإذا بالجدار المقابل مرآة أخرى. وما إن تقدم خطوة، حتى امتلأت القاعة بوجوه لا تُحصى.

ابتسم.

لأول وهلة، ظن أنه لم يعد وحده.

◆ أخذ يسير ببطء. كلما تحرك، تحركت الوجوه معه. وكلما ابتسم، ابتسمت له. وكلما هز رأسه، هزت آلاف الرؤوس بالطريقة نفسها.

لم يعترضه أحد.

لم يخالفه أحد.

لم يرفع أحد حاجبه دهشة.

كان اتفاقًا كاملًا... إلى درجة أثارت الطمأنينة.

ولذلك لم يخطر بباله أن يسأل: أين اختفى الجميع؟

◆ بعد وقت لا يعرف مقداره، لاحظ أمرًا صغيرًا.

كل الوجوه كانت تتكلم بعده، لا قبله.

تضحك بعد ضحكته.

وتصمت بعد صمته.

وتشير بيدها بعد أن يشير.

عندها فقط، بدأ يشك في ذلك الحشد الذي ملأ القاعة.

لم يكن حشدًا. كان وجهًا واحدًا... يكرر نفسه إلى ما لا نهاية.

◆ منذ تلك اللحظة، تغيرت القاعة كلها.

لم تعد المرايا تمنحه شعورًا بالقوة، بل شعورًا بالوحدة.

فالكثرة التي لا تأتي إلا من انعكاس واحد، ليست كثرة.

والأصوات التي لا تضيف إلى الصوت الأول شيئًا، ليست حوارًا.

والتصفيق الذي لا يعرف الاعتراض، ليس اقتناعًا.

إنه مجرد صدى، أتقن تقليد الحياة حتى أوشك أن يصبح بديلًا عنها.

◆ يحدث هذا خارج قاعات المرايا أكثر مما يحدث داخلها.

هناك من يعيش عمره كله بين انعكاسات متشابهة؛ يقرأ العبارات التي تشبه عباراته، ويأنس بالوجوه التي تعيد إليه ملامحه، ويطمئن إلى الآراء التي لا تطلب منه تعديل كلمة واحدة مما استقر في داخله.

وبمرور الأيام، يفقد القدرة على ملاحظة أن العالم، في الخارج، لم يكن يشبه تلك القاعة أبدًا.

◆ أخطر ما في المرايا المتقابلة أنها لا تكذب.

هي تعرض الصورة كما هي. لكنها لا تعرض إلا صورة واحدة.

وحين تتكرر الصورة ألف مرة، يظن الناظر أنه أمام ألف حقيقة، بينما لم يغادر الحقيقة الأولى خطوة واحدة.

ولذلك لا تصنع المرايا وهمًا جديدًا، وإنما تمنح الوهم القديم

عددًا أكبر من النسخ، حتى يبدو أثقل وزنًا، وأكثر رسوخًا، وأشد إقناعًا.

◆ لا تبدأ خسارة الإنسان يوم يصدق الآخرين، بل يوم يتوقف عن الإصغاء إلى صوته الداخلي. ففي كل نفس مساحة هادئة لا يصل إليها التصفيق، ولا الضجيج، ولا هتاف الجماعات. هناك يقف الضمير وحده، لا يطلب أكثر من لحظة إنصاف. غير أن المرايا، إذا أحاطت بالمرء طويلًا، تجعل ذلك الصوت الخافت يبدو غريبًا، حتى يوشك صاحبه أن يشك فيه، بدل أن يشك في الصور التي تطارده من كل جانب.

◆ لا يحتاج الوهم إلى قوة خارقة كي ينتصر؛ يكفيه أن يجد مكانًا لا تدخل إليه الريح. فالفكرة التي لا تسمع إلا نفسها، لا تنمو، بل تتضخم. والجماعة التي لا ترى إلا صورتها، لا تزداد وضوحًا، بل يزداد عماها وهي تظن أنها بلغت ذروة البصيرة. وكلما ضاق الأفق، اتسعت الثقة، حتى يصبح اليقين تعويضًا عن غياب الرؤية، لا ثمرة لها.

◆ هناك فرق خفي بين الرفقة والأسر. الرفقة تمنح الإنسان دفئًا وهو يحتفظ بملامحه، أما الأسر فيطالبه، بصمت، أن يتخلى عن ملامحه ليشبه الباقين. وحين تصبح النجاة مرهونة بالتشابه، يبدأ الناس في تهذيب وجوههم، لا أخلاقهم، وفي تبديل

أصواتهم، لا أفكارهم، حتى لا يلفت اختلافهم انتباه أحد.

◆ ومن غرائب النفس أنها قد تهاب الوقوف وحدها، ولو كانت ترى ما لا يراه الجمع. فتؤجل اعتراضها مرة، ثم تؤجله مرة أخرى، حتى يتحول الصمت إلى عادة، والعادة إلى اقتناع، والاقتناع إلى جزء من الشخصية. وليس لأن الحقيقة غابت، بل لأن الشجاعة تأخرت حتى نسيها صاحبها.

◆ لم تتقدم الإنسانية بفضل الذين رأوا ما رآه الجميع، وإنما بفضل أولئك الذين امتلكوا شجاعة النظر من نافذة أخرى. لم يكن امتيازهم أنهم كانوا أكثر ذكاءً، بل أنهم لم يقايضوا بصيرتهم براحة التشابه، ولم يجعلوا القبول الاجتماعي ثمنًا لاستقلالهم الداخلي.

◆ ليست الدعوة إلى الانفراد بالرأي لذاته، ولا إلى معارضة الناس طلبًا للتميز. فالاختلاف ليس فضيلة إذا كان غرورًا، كما أن الاتفاق ليس نقيصة إذا جاء عن اقتناع. الفضيلة الحقيقية أن يبقى الميزان داخل الإنسان، لا خارجه؛ وأن يكون انضمامه إلى الناس اختيارًا، لا ذوبانًا، وموافقته لهم نتيجة اقتناع، لا خوفًا من العزلة.

◆ وكلما ازدادت المرايا حول الإنسان، ازدادت حاجته إلى نافذة. فالمرآة تعيد إليه وجهه، أما النافذة فتكشف له العالم. ومن

عاش عمره بين المرايا، خرج وهو يحفظ ملامحه عن ظهر قلب، لكنه يجهل ملامح الطريق، وملامح الناس، وملامح الحياة التي كانت تنتظره خارج ذلك اللمعان الخادع.

◆ ليست الحرية أن ترفض الجماعة، وإنما ألا تفقد نفسك داخلها. وأن تحب من معك دون أن تستعير عيونهم، وأن تنتمي دون أن تتخلى عن بصيرتك، وأن تصغي باحترام، لكن تترك لقلبك وعقلك حق الكلمة الأخيرة.

◆ عند باب القاعة، التفت الرجل مرة أخيرة. كانت المرايا ما تزال تكرر وجهه بلا نهاية، لكنه هذه المرة لم يرَ كثرةً، بل رأى عزلةً متقنة الصنع. ابتسم في هدوء، وفتح الباب الذي لم يكن يراه من قبل، ثم خرج.

لم تكن القاعة هي التي احتجزته كل ذلك الوقت...

بل كان انبهاره بانعكاسه.

«أخطر السجون ليست تلك التي تُغلق أبوابها... بل تلك التي تجعل الإنسان يظن أن صورته هي العالم».

...ورقة من كتاب «الغبي»(14)

✳ غباء العادة وشجاعة الجهل بها ✳

«ليست كل عادة تستحق أن تُحفظ... وبعض أجمل الاكتشافات تبدأ حين نتصرف، ولو مرة، كما لو أننا لا نعرفها».

◆ لم يكن الطفل يعرف أن الناس اعتادوا السير في الجانب الأيسر من الحديقة. ولهذا عبر من منتصفها، فرأى شجرة لم يكن يلتفت إليها أحد.

لم يكن أشجع منهم.

ولا أذكى منهم.

كل ما في الأمر أنه لم يرث عادتهم بعد.

◆ نحن لا نعيش بالعادات وحدها، ولولاها لتعثرنا في أبسط تفاصيل الحياة. فهي توفر علينا عناء البدء من جديد كل صباح، وتمنح أيامنا شيئًا من النظام والاستقرار. غير أن العادة، مثل الماء، تمنح الحياة إذا بقيت في مجراها، لكنها إذا غمرت كل شيء، أخفت ملامحه.

◆ تبدأ العادة خادمًا مطيعًا، ثم تتحول، من غير أن نشعر، إلى سيد خفي. لا تصرخ في وجوهنا، ولا تأمرنا، لكنها تهمس كل يوم: افعل ما فعلته أمس، فما دام الأمس قد مضى بسلام، فلماذا تغامر؟

ومن هنا يبدأ الاكتفاء بالتكرار، لا لأنه الأفضل، بل لأنه الأسهل.

◆ ليست كل عادة خطأ، كما أن كسر كل عادة ليس فضيلة. إنما الفضيلة أن يبقى الإنسان قادرًا، بين حين وآخر، على أن ينظر إلى ما اعتاده بعين من يراه للمرة الأولى. فكم من طريق بدا وحيدًا، لأنه الطريق الذي اعتدناه، وكم من باب ظل مغلقًا، لأن أحدًا لم يجرب أن يدير مقبضه منذ زمن بعيد.

◆ لعل أجمل ما في الأطفال أنهم يجهلون العادات التي قيدت الكبار. ولهذا يقتربون مما نبتعد عنه، ويسألون عما تجاوزناه، ويلعبون في الأماكن التي لم نعد نراها. إنهم لا يملكون خبرة أكثر منا، لكنهم يملكون امتيازًا نفتقده غالبًا: أنهم لم يتصالحوا بعد مع التكرار.

◆ ليست الدعوة إلى الجهل هنا دعوة إلى إنكار الخبرة، وإنما إلى التحرر المؤقت منها. أن يمنح الإنسان نفسه، ولو للحظة، فرصة أن يرى ما يعرفه بعين لا تعرفه. ففي تلك اللحظة

وحدها، تستعيد الأشياء قدرتها على الإدهاش، ويستعيد العقل حريته من أسر الاعتياد.

◆ ليست العادة خصمًا للإنسان، بل واحدة من أعظم نعمه. فمن دونها تتحول الحياة إلى فوضى لا تُحتمل، ويصبح كل صباح بداية مرهقة من الصفر. لكنها خُلقت لتختصر الجهد، لا لتختصر الوعي. فإذا امتدت من السلوك إلى البصيرة، ومن الوسيلة إلى طريقة النظر، بدأت تؤدي وظيفة لم تُخلق لها، وأصبح الإنسان يعيش ما اعتاده، لا ما يراه.

◆ أخطر العادات ليست تلك التي تسكن اليد، بل تلك التي تسكن العين. فهناك من يمر كل يوم بالطريق نفسه حتى يتوقف عن رؤية الأشجار، ويجلس إلى الوجوه ذاتها حتى يتوقف عن ملاحظة ملامحها، ويعيش داخل الأفكار نفسها حتى يظن أنها الصورة الوحيدة الممكنة للعالم. وليس لأن العالم فقد تنوعه، بل لأن الاعتياد سرق منه دهشته الأولى.

◆ لهذا لا تتغير حياة بعض الناس، رغم أن الأيام تتبدل من حولهم. فهم لا يرفضون الجديد عنادًا، وإنما لأن القديم أصبح شفافًا إلى درجة أنهم لم يعودوا يرونه. إنهم لا يختارون التكرار، بل يسكنونه، حتى يغدو الخروج منه أشبه بالخروج من بيت عاشوا فيه عمرًا كاملًا.

◆ وكل تقدم عرفته الإنسانية بدأ، في لحظة ما، بإنسان لم يتعامل مع المألوف بوصفه قدرًا. لم يكن أكثر تمردًا من غيره، ولا أقل احترامًا لما سبقه، لكنه امتلك شجاعة نادرة؛ أن ينظر إلى الشيء نفسه بعين لم تألفه. لم يهدم ما ورث، ولم يسخر مما اعتاده الناس، وإنما أزاح عنه غبار التكرار، فاكتشف وجهًا لم يكن ظاهرًا.

◆ ليست الخبرة في أن نكرر ما نجح بالأمس، وإنما في أن نعرف متى لم يعد نجاح الأمس كافيًا لليوم. فالحياة لا تعيد نفسها، وإن تشابهت وجوهها، والزمن لا يلبس الثوب ذاته مرتين. أما الذي يصر على معالجة كل يوم بالأداة نفسها، فإنه لا يحافظ على خبرته، بل يحولها إلى قيد يجره خلفه.

◆ لذلك كانت شجاعة الجهل بالعادة فضيلة نادرة. ليست جهلًا بالحياة، بل نسيانًا مؤقتًا لما ألفناه منها. أن يتقدم الإنسان خطوة، كأنه يرى المكان لأول مرة، ويصغي إلى من حوله كأنه يسمعهم للمرة الأولى، وينظر إلى أفكاره نفسها كما لو أنها وصلت إليه اليوم، لا قبل أعوام. في تلك اللحظة وحدها، يعود الذهن طازجًا، وتستعيد البصيرة قدرتها على الاكتشاف.

◆ ليست كل الأبواب المغلقة موصدة بالأقفال؛ بعضها يغلقه التكرار. وليست كل النوافذ المفتوحة تسمح بدخول الضوء؛ بعضها

يحجب الرؤية لأنه يطل دائمًا على المشهد نفسه. ولهذا قد يعيش الإنسان عمرًا كاملًا في المكان ذاته، ثم يكتشف، في لحظة صدق، أن العالم كان أوسع بكثير مما سمحت له عادته أن يراه.

◆ الحرية ليست أن يكسر المرء كل ما اعتاده، وإنما أن يبقى قادرًا على مغادرة عادته متى احتاج إلى ذلك، ثم يعود إليها إن وجدها أصلح. فالعادة التي نستطيع تركها متى شئنا، تخدمنا. أما العادة التي تعجزنا عن تركها، فهي التي بدأت تقودنا.

◆ ربما لا يحتاج الإنسان، بين حين وآخر، إلى أن يتعلم شيئًا جديدًا، بقدر ما يحتاج إلى أن ينظر إلى القديم بعين جديدة. فكثير من الاكتشافات لم تولد من إضافة شيء إلى العالم، بل من إزالة الغشاوة التي صنعتها الألفة، حتى بدا المألوف، فجأة، كما لو أنه يُرى لأول مرة.

◆ عندها فقط يدرك الإنسان أن أكثر القيود هدوءًا لم تكن القيود التي فرضها الآخرون عليه، بل تلك التي نسجها بنفسه، خيطًا بعد خيط، حتى ظنها جزءًا من طبيعته، مع أنها لم تكن، في حقيقتها، سوى عادات طال بها المقام.

«لا يصبح الإنسان أسير عاداته يوم يكررها... بل يوم يعجز عن تخيل الحياة خارجها».

الغبي

[مقدمة الباب الثاني]

✳وجوه الغباء✳

ليس الغباء فكرة مجردة، ولا عيبًا واحدًا يتكرر بالدرجة نفسها في كل إنسان. إنه وجوه متعددة، تتبدل ملامحها، بينما يبقى جوهرها واحدًا. فقد يتجسد في إنسان يتنازل عن صوته، أو في آخر يكثر الكلام حتى يضيع المعنى، أو في ثالث يعيش على تصفيق الآخرين، أو يستعير غضبه، أو يعجز عن مراجعة كلمة قالها.

في هذا الباب، لا نتتبع الأفكار بقدر ما نتتبع أصحابها. لا نفتش في النظريات، بل في البشر. فلكل وجه حكايته، ولكل حكاية مرآتها، ولكل مرآة شيء من وجوهنا جميعًا.

إنه ليس بابًا عن الآخرين وحدهم، بل عن ذلك الجزء الصغير الذي قد يختبئ في داخل كل واحد منا، ينتظر لحظة غفلة ليقودنا إلى أن نكون أقل صدقًا مع أنفسنا، وأقل شجاعة في أن نعيش كما نحن.

ورقة من كتاب «الغبي»(15)

✳ غباء الرجل الريتويت..
الذي يتنازل أن يكون نفسه✳

«أسهل الجمل هي التي قالها غيرك... وأصعبها تلك التي تخرج منك لأول مرة».

◆ دخل متأخرًا، وجلس حيث لا يلفت أحدًا. ظل صامتًا وقتًا طويلًا، ينصت بعناية لحديث امتلأ بالحماس والاعتراض والاقتناع. كان يبدو كمن يجمع شيئًا يتناثر أمامه. وحين انتهى المتحدث الأول، اعتدل في مقعده، ومسح على جبينه، ثم بدأ يتكلم.

لم يقل شيئًا جديدًا. أعاد الحديث كله.

بالترتيب نفسه. وبالنبرة نفسها.

حتى إن بعض الجالسين التفتوا، لحظة، إلى المتحدث الأول، كأنهم يريدون التأكد ممن كان الأصل، ومن كان الصدى.

◆ لم يكن الرجل كاذبًا، ولم يكن سارقًا بالمعنى المعروف.

كان يؤمن، في أعماقه، أنه يشارك في صناعة الفكرة، بينما لم يكن يفعل أكثر من نقلها من فم إلى فم. وكان يخرج من كل مجلس راضيًا عن نفسه، لأنه لم يترك رأيًا إلا ردده، ولا عبارة إلا حملها، ولا موقفًا إلا أعاد ترتيبه بالكلمات ذاتها، حتى خُيِّل إليه أن التكرار مشاركة، وأن النقل إبداع.

◆ عرفت، عبر سنوات طويلة، هذا الوجه الإنساني أكثر مما كنت أتمنى. رأيته في السياسة، كما رأيته في الصحافة، وفي الثقافة، وفي المجالس الخاصة. لا يعيش بفكره، بل بما يلتقطه من أفكار الآخرين. ينتظر دائمًا صاحب الصوت الأعلى، أو الاسم الأشهر، أو الرأي الأكثر انتشارًا، ثم يلبسه كما يلبس معطفًا جديدًا، ويمضي به بين الناس مطمئنًا، كأن أحدًا لن يلاحظ أن المقاس ليس مقاسه.

◆ ليست المشكلة أنه يقتبس. فالاقتباس أحد أبواب المعرفة، والإنسان ابن ما تعلمه ممن سبقوه. لكن الاقتباس شيء، والتنازل عن الذات شيء آخر. فالأول يعترف بأصحابه، ثم يضيف إليهم. أما الثاني، فيذيب نفسه فيهم، حتى لا يعود قادرًا على التمييز بين ما خرج من تجربته، وما دخل إليها من أفواه الآخرين.

◆ أخطر ما في هذا الغباء أنه لا يصادر الكلمات فقط، بل يصادر الشخصية. فالكلمة ليست حروفًا تُنقل، وإنما أثر حياة

كاملة. وكل جملة صادقة تحمل، في أعماقها، رحلة صاحبها، وخيباته، وانتصاراته، وأسئلته، وندوبه. وحين يستعير الإنسان الجملة دون الرحلة، يشبه من يعلق على صدره أوسمة لم يخض معاركها.

◆ لا يلبث "الرجل الريتويت" أن ينسى صوته الحقيقي. في البداية يكرر لأنه معجب. ثم يكرر لأنه وجد القبول. ثم يكرر لأنه لم يعد يعرف طريقًا آخر. وبعد سنوات، إذا طلبت منه أن يحدثك عن نفسه، بحث طويلًا بين الكلمات، فلم يجد إلا أصوات الآخرين، تتزاحم في داخله، حتى غاب صوته بينها.

◆ ثمة فرق هائل بين التأثر والتقمص. فالتأثر يوسع الإنسان، أما التقمص فيلغيه. الأول يضيف إلى الشخصية طبقة جديدة، والثاني يستبدل الشخصية كلها بنسخة مستعارة. ولذلك ترى بعض الناس يتغيرون كلما تغيرت الريح، لا لأنهم تطوروا، بل لأنهم لم يمتلكوا، منذ البداية، مركزًا يعودون إليه إذا تبدلت الاتجاهات.

◆ وما يثير الأسى أن هذا النمط يظن نفسه في الجانب الآمن. يعتقد أن ترديد ما يقوله الجميع يحميه من الخطأ، وأن السير خلف أكثر الأصوات ارتفاعًا يجعله بعيدًا عن المسؤولية. لكنه يغفل أن الإنسان لا يُحاسب على أخطائه وحدها، بل

يُحاسب أيضًا على اللحظات التي تنازل فيها، طوعًا، عن حقه في أن يكون نفسه.

◆ لا يحتاج العالم إلى نسخة أخرى من أي إنسان، مهما بلغت قيمته. فما من عقل وُلد ليكون ظلًا دائمًا لعقل آخر، ولا خُلقت الأرواح لتعيش في هيئة أصداء. أجمل ما في الإنسان أنه يضيف إلى الوجود نبرة لم تكن موجودة قبله. فإذا تنازل عن هذه النبرة، خسر أثمن ما يملكه، حتى لو ردد أجمل الكلمات.

◆ وربما كانت المأساة الحقيقية أن "الرجل الريتويت" لا يشعر بفقدانه شيئًا. إنه يعيش مقتنعًا بأنه حاضر، بينما هو مجرد انعكاس. يتحدث كثيرًا، لكن حضوره يظل مؤجلًا، لأن الحضور لا تصنعه كثرة الكلام، وإنما تصنعه الجملة التي لا يستطيع أحد أن يقولها بالطريقة التي قلتها أنت.

«ليس أفقر الناس من خلت يداه... بل من امتلأ لسانه بكلام الآخرين، حتى لم يبق فيه متسعٌ لكلمة واحدة تشبهه».

◆ لا يولد هذا الوجه من الغباء في يوم واحد. يبدأ بإعجاب بريء، ثم يتحول إلى اعتماد، ثم إلى عادة، حتى يصبح الإنسان مرآة تمشي على قدمين. يستعير المفردات، ثم النبرة، ثم طريقة الغضب، ثم طريقة التصفيق، ثم يكتشف، بعد زمن، أن ما بقي له من نفسه أقل مما كان يظن.

◆ ليس المقصود بذلك من يتعلم من غيره؛ فكل معرفة تبدأ بالتلقي، وكل حضارة تقوم على البناء فوق ما أنجزه السابقون. الفرق عميق بين من يأخذ ليضيف، ومن يأخذ ليختفي. الأول يعبر الجسر ثم يواصل السير، أما الثاني فيقيم فوق الجسر، فلا يصل إلى الضفة التي جاء منها، ولا يبلغ الضفة التي كان يقصدها.

◆ في السياسة، يظهر "الرجل الريتويت" كلما ارتفع صوتٌ قوي. لا يسأل أين تقود الفكرة، بل يسأل: من قالها؟ فإن خرجت من صاحب نفوذ، حملها كما هي، ودافع عنها بحماسة قد تفوق حماسة صاحبها. ثم إذا تبدلت الرياح، بدّل موقعه بالكلمات نفسها، وكأن ذاكرته قد مُسحت في الليل، وعادت تُكتب مع أول خطاب جديد.

◆ وفي الثقافة، يقتات على الاقتباسات أكثر مما يقتات على التأمل. يحفظ أسماء الكتب، أكثر مما يحفظ أثرها في روحه. ويجمع العبارات اللامعة كما يجمع آخرون التحف، لكنه لا يمنحها حياة جديدة. تبدو مكتبته عامرة، بينما يظل صوته خاليًا من البصمة التي تجعل القارئ يقول: هذه الجملة لا تشبه إلا صاحبها.

◆ وفي الحياة اليومية، قد يكون أكثر الناس لطفًا، وأكثرهم

قبولًا بين المجالس، لأنه نادرًا ما يصطدم بأحد. فهو لا يحمل رأيًا يخصه كي يدافع عنه، ولا رؤية يخشى عليها من الذوبان. يكتفي بأن يكون نسخة مقبولة من الجميع، حتى يفقد، بهدوء، امتياز الاختلاف الذي يجعل لكل إنسان فرادته.

◆ ثمة لحظة فارقة لا ينتبه إليها هذا الرجل. حين يُسأل عن رأيه، لا عن رأي من يحبهم أو يتابعهم أو ينتمي إليهم. هناك يتوقف قليلًا، ثم يبدأ في التنقيب داخل ذاكرته، لا داخل وجدانه. يفتش عن جملة سمعها، لا عن معنى عاشه. ومن تلك اللحظة يتبين أن المشكلة لم تعد في ذاكرته، بل في هويته.

◆ الكلمة التي لا تمر بتجربة صاحبها، تشبه بذرة وُضعت فوق حجر؛ قد تبدو سليمة، لكنها لا تنبت. أما الفكرة التي عبرت القلب والعقل والاختبار، فإنها تخرج مختلفة، حتى لو كانت تعرف أصلها وتعترف بفضل من سبق إليها. لذلك لا قيمة لما نقوله إذا لم يترك فينا أثرًا قبل أن نطلب منه أن يترك أثرًا في غيرنا.

◆ لا يحتاج الإنسان إلى أن يكون أول من قال كل شيء، فهذا مستحيل. لكنه يحتاج إلى أن يقول ما يؤمن به بلغته، وأن يعيد اكتشاف المعاني بعينيه، وأن يسمح لتجاربه بأن تضيف إلى الحكمة القديمة نبضًا جديدًا. فالأصالة ليست اختراع

الحقيقة، وإنما الصدق في التعبير عنها.

◆ وحين يتنازل الإنسان عن صوته، لا يخسر أسلوبه في الكلام فحسب، بل يخسر شجاعته أيضًا. لأن من اعتاد الاحتماء بأصوات الآخرين، يصعب عليه يومًا أن يقف وحده إذا استدعى الموقف كلمة لا يملكها سواه. وهناك تتكشف المأساة كاملة؛ إذ يكتشف أن أكثر ما افتقده لم يكن البلاغة، بل الاستقلال.

◆ لا أحد يستطيع أن يعيش عمرًا كاملًا مستعيرًا وجهًا آخر. فلا بد أن تأتي لحظة يقف فيها أمام نفسه، فلا يجد إلا صدى بعيدًا لأناس مروا من حياته، بينما غاب هو عنها. وعندئذٍ لا تكون المشكلة أنه أخطأ في الاقتباس، بل أنه نسي، طوال الطريق، أن للحياة معنى لا يكتمل إلا بصوت يخرج من الداخل.

»قد تستطيع أن تعيد نشر كلمات الآخرين ألف مرة... لكنك لن تبدأ حياتك حقًا إلا يوم تنطق بأول جملة ولدت من تجربتك أنت«.

ورقة من كتاب «الغبي»(16)

✳ غباء الضباب... وضباب الغباء ✳

الرجل الذي يقول... ولا يقول.

«ليست كل الكلمات جسورًا... بعضها ضبابٌ يمشي على هيئة جمل هائمة».

- انتهى من حديثه.

ابتسم الحاضرون، وصفق بعضهم في مجاملة هادئة، ثم انفض المجلس كما ينفض أي مجلس آخر.

وقبل أن يغادروا التفت أحدهم إلى رفيقه وسأله:

. ماذا كان يقصد؟

ساد صمت قصير.

ثم ارتسمت على الوجوه ابتسامة بلهاء مرتبكة.

لم يكن أحد يملك جوابًا.

ليس لأن الحديث كان عميقًا...

بل لأنه لم يترك وراءه معنى يمكن الإمساك به.

◆ صنف من البشر فقير اللغة، تتدفق كلماته بتعثر، وتتزاحم جمله في نظام يوحي بأنها تقود إلى مكان ما. لكنك، كلما اقتربت من نهاية حديثه، اكتشفت أنك عدت إلى النقطة نفسها التي بدأت منها، دون أن تمسك بفكرة واحدة تستطيع أن تضع يدك عليها.

◆ يظن أنه كلما أطال الطريق، ازداد الوصول هيبة. ولم ينتبه إلى أن الطريق الطويل الذي لا يبلغ وجهته، ليس طريقًا... بل دوران حول الذات.

◆ عرفت هذا الوجه الإنساني في السياسة، كما عرفته في الإعلام، وفي الثقافة، وفي الإدارة، وحتى في العلاقات الخاصة. رجل يملأ المكان لكنه يتركه خاليًا من المعنى .

يغادر الناس مجلسه وهم يحملون انطباعًا بأنه تحدث كثيرًا، لكنهم يعجزون، بعد دقائق، عن تذكر جملة واحدة تستحق أن تبقى.

◆ ربما مشكلته أنه لا يعرف ماذا يريد أن يقول، وربما إنه يخشى أن يقوله بوضوح. فالجملة الواضحة تُلزم صاحبها، أما الضباب فيترك له دائمًا بابًا خلفيًا للعودة، ومساحة واسعة

للإنكار، وملاذًا آمنًا إذا تبدلت الظروف أو تبدلت الوجوه.

◆ لذلك لا يسكن الوضوح لغته إلا مصادفة. يقترب منه أحيانًا، ثم يبتعد سريعًا، كأن المعنى نار يخشى لمسها. يطوف حول الفكرة، ولا يدخلها. يلمح إليها، ولا يعانقها. ويغادرها قبل أن تصبح مسؤوليته.

◆ والغريب أن هذا النمط يظن نفسه شديد البلاغة. يخلط بين كثرة الألفاظ وغزارة المعنى، وبين دوران العبارة وعمق الفكرة. بينما البلاغة الحقيقية ليست فيما تضيفه الكلمات إلى عددها، بل فيما تحذفه من المسافة بين العقل والقلب.

◆ ثمة بشر يتحدثون دقائق، فيتركون في الذاكرة أثرًا يبقى سنوات. وثمة آخرون يتحدثون ساعات، فلا يتركون إلا التعب. الفارق ليس في عدد الكلمات، وإنما في شجاعة المعنى. فالكلمة التي خرجت من تجربة صادقة، تصل. أما التي خرجت من خوف متقن، فإنها تظل تدور في الهواء، حتى تتلاشى كما يتلاشى الضباب مع أول شمس.

◆ ولم يكن الضباب يومًا لونًا من ألوان الحكمة، بل كان، في كثير من الأحيان، وسيلة أنيقة للهروب من الالتزام. فمن يخشى أن يحدد موقفه، يكثر من الاحتمالات. ومن يخاف أن يتحمل مسؤولية رأيه، يختبئ وراء العبارات المطاطة، حتى يبدو

لكل مستمع أنه قال له ما يريد أن يسمعه، بينما لم يقل، في الحقيقة، شيئًا لأحد.



ورقة من كتاب «الغبي» (17)

✳مدمن التصفيق✳

«ليس كل من أحب التصفيق غبيًا... لكن الغبي هو من جعل التصفيق دليلًا على الحقيقة».

◆ يولد الإنسان محتاجًا إلى الحنان قبل أن يولد محتاجًا إلى المعرفة. يفتح عينيه باحثًا عن ابتسامة تطمئنه، وعن يد تمتد إليه، وعن صوت يخبره أنه مقبول في هذا العالم. ولا شيء في ذلك يدعو إلى القلق؛ فالقبول حاجة إنسانية، والمحبة غذاء للروح، والتقدير إحدى اللغات التي يتعلم بها الإنسان معنى وجوده. لكن المأساة تبدأ عندما يتوقف التقدير عن أن يكون غذاءً، ويصبح إدمانًا، وعندما يتحول التصفيق من ثمرة للفعل إلى سبب للفعل، ومن مكافأة عابرة إلى غاية يعيش الإنسان من أجلها.

◆ لم يكن أخطر ما اخترعته الحضارة الحديثة الكاميرا، ولا الشاشة، ولا الهاتف، بل قدرتها على أن تجعل الإنسان يقيس قيمته بعدد العيون التي تنظر إليه، وعدد الأصابع التي تضغط

إعجابًا، وعدد الأصوات التي تهتف باسمه. ومنذ تلك اللحظة، بدأ ميزان جديد يحكم النفوس. لم يعد السؤال: هل ما أفعله صواب؟ بل: هل سيصفقون؟ ولم يعد الضمير هو المحكمة الأولى، بل الجمهور.

◆ في الورقة السابقة، رأينا الإنسان وهو يلبس القناع حتى صدق أنه وجهه الحقيقي. أما هنا، فإننا نراه بعد أن خرج إلى الناس بذلك القناع، فوجد من يصفق له. والتصفيق، في بدايته، كان مجرد صوت. ثم تحول إلى شهادة. ثم إلى إدمان. ثم إلى وطن صغير يخاف صاحبه أن يُطرد منه. وهكذا لم يعد الإنسان أسير الدور فقط، بل صار أسير الجمهور الذي بارك ذلك الدور.

◆ عرفت، خلال أكثر من أربعة عقود بين الصحافة والإعلام والسياسة، رجالًا دخلوا الحياة العامة وفي أيديهم أفكار، ثم خرجوا منها وليس في أيديهم إلا صورهم. كانوا في البدايات يبحثون عن كلمة صادقة، ثم أصبحوا يبحثون عن العبارة التي تشعل القاعة، أو العنوان الذي يتصدر الشاشة، أو الجملة التي تضمن لهم جولة جديدة من التصفيق. ولم يكن أكثر ما يحزنني أنهم تغيروا، فالتغير سنة الحياة، وإنما أن بعضهم لم يعد يعرف متى بدأ هذا التغير، ولا متى استبدل الحقيقة بصداها.

◆ الشهرة لا تصنع الغباء، لكنها تمنحه بيئة خصبة.

فالأضواء لا تخلق الوهم، لكنها تجعل ظله أطول. والتصفيق لا يزرع القناع، لكنه يثبت خيوطه بإحكام. وما وسائل التواصل الاجتماعي إلا مختبر ضخم لهذه الظاهرة؛ حيث يمكن لإنسان أن يعيد اختراع نفسه كل يوم، وأن يختبر أي الشخصيات أكثر رواجًا، ثم يقرر، بهدوء، أن يعيش داخل أكثرها ربحًا، لا أكثرها صدقًا. وهنا لا يصبح السؤال: من أنا؟ بل: من يريدونني أن أكون؟

◆ رأيت من بدأ حياته العامة صاحب قضية، ثم انتهى صاحب صورة. ورأيت من دخل الكاميرا ليشرح فكرة، ثم خرج منها وهو يحرس الشخصية التي أحبها الجمهور فيه. ورأيت من كان يعرف، في أعماقه، أنه يؤدي دورًا، لكنه استمر فيه لأن الخروج منه صار أغلى من البقاء داخله. وكلما ازداد التصفيق، ازداد ثمن العودة إلى النفس.

◆ وأعترف أنني كنت أبتسم، أحيانًا، وأنا أستمع إلى بعضهم يروي أحداثًا كنت شاهدًا على تفاصيلها، فإذا به يمنح نفسه فيها أدوارًا لم يؤدها، أو بطولات لم يعرفها، أو مواقف لم يكن حاضرًا فيها. وكان يقصها بيقين لا يترك في نفسه شكًا. يومها أدركت أن الإنسان لا يحتاج دائمًا إلى أن يكذب على الآخرين؛ يكفي أن يجد الرواية التي تمنحه الرضا، ثم يكررها طويلًا، حتى تصبح

عنده أصدق من ذاكرته.

◆ وأذكر واقعة لم تغادر ذاكرتي. كتب تعليق ساخر عن أحد المرشحين للرئاسة، فأُريد له أن يكون مزحة سياسية عابرة، لكن الرجل تلقاه بوصفه شهادة تاريخية، وظل يردده بفخر في لقاءاته العامة. وحين عاتبت صاحب التعليق، أجابني ضاحكًا: «يبدو أنك فقدت روح الدعابة». يومها لم أشغل نفسي بمن كان على حق، بقدر ما شغلتني تلك اللحظة الإنسانية النادرة التي يتحول فيها الوهم، بسبب تكراره، إلى جزء من هوية صاحبه. هناك فهمت أن أخطر أنواع التصفيق ليس ما يأتي من الجمهور، بل ما يصفق به الإنسان لروايته الداخلية كل صباح.

◆ الغبي لا يعبد التصفيق لأنه يحب الناس أكثر، بل لأنه يخاف الصمت أكثر. فالصمت يعيده إلى نفسه، ويجبره على سماع الأسئلة التي أخفاها الضجيج طويلًا. أما التصفيق، فيمنحه إجازة مؤقتة من مواجهة الحقيقة، ويقنعه أن كثرة المصفقين يمكن أن تكون بديلًا عن صدق الفكرة. لكنها لا تكون كذلك أبدً

◆ لا يفسد التصفيق الإنسان لأنه يسمعه، بل لأنه يبدأ في تصديق أن قيمته لا توجد إلا داخله. عندئذ لا يعود النجاح ثمرة عمل صالح، بل يصبح شرطًا للبقاء. فإذا خفتت الأصوات،

ارتبك. وإذا انصرف الجمهور إلى غيره، شعر كأن جزءًا من وجوده قد انطفأ. وهنا يتسلل الغباء في أكثر صوره رقة؛ لا يسرق العقل، بل يسرق معيار القيمة. فيصبح الإنسان كما لو كان مرآة لا ترى نفسها إلا إذا انعكس عليها وجه الآخرين.

◆ ولعل أخطر ما يفعله التصفيق أنه يغيّر طبيعة السؤال. في البدايات كان الإنسان يسأل: ماذا ينبغي أن أقول؟ ثم أصبح يسأل: ماذا يريدون أن يسمعوا؟ وبين السؤالين ينتقل من الحرية إلى التبعية دون أن يشعر. فالأول يبحث عن الحقيقة، أما الثاني فيبحث عن السوق. الأول يكتب لأنه اكتشف معنى، والثاني يكتب لأنه اكتشف جمهورًا. ومنذ تلك اللحظة لا يعود صاحب الفكرة قائدًا لها، بل تصبح الفكرة موظفة عند التصفيق.

◆ لهذا لا أخاف على صاحب الفكرة من خصومه بقدر خوفي عليه من محبيه. فالخصم يجبره على المراجعة، أما المحب فقد يغريه بالثبات على ما لم يعد يستحق الثبات. وما أكثر من أفسدهم الإعجاب الصادق، لأنهم لم يتعلموا كيف يضعون مسافة بين ذواتهم وبين التصفيق الذي يحيط بها. فالمديح، إذا لم يجد نفسًا متزنة، قد يصبح أخطر من الهجوم، لأنه يجعل الإنسان يظن أن كل مراجعة خيانة للجمهور.

◆ رأيت في الحياة العامة وجوهًا تغيرت لأنها أصبحت

تسمع نفسها من أفواه الناس أكثر مما تسمعها من ضميرها. لم تعد الفكرة تنمو، بل أخذت تدور حول صورتها. ولم يعد السؤال: كيف نقترب من الحقيقة؟ بل: كيف نحافظ على المكانة؟ وهكذا يتحول التصفيق من لحظة احتفاء إلى مؤسسة خفية تعيد تشكيل الشخصية، وتدفعها، في هدوء، إلى أن تصبح وفية لصورتها أكثر من وفائها لرسالتها.

◆ والسوشيال ميديا لم تخلق هذا المرض، لكنها ضغطت الزمن حتى كشفت سرعته. ما كان يحتاج في الماضي إلى سنوات من الشهرة، قد يحدث اليوم في أسابيع. تكفي عشرات المقاطع، أو آلاف الإعجابات، أو موجة انتشار واحدة، حتى يبدأ الإنسان في مراقبة نفسه بعين الجمهور. يختار الجملة التي تنتشر، والانفعال الذي يحقق أثرًا، والوجه الذي يحصد قبولًا. ثم يكتشف، بعد زمن، أنه لم يعد يعيش حياته، بل يدير صورته.

◆ ليست المأساة في أن يصنع الإنسان صورة لنفسه؛ فكل مجتمع يحتاج إلى صورة عامة. المأساة أن يبتلع الصورة صاحبها. عندئذ لا يعود يملك رفاهية التغير، لأن التغير قد يكلفه جمهوره. ولا يملك شجاعة الاعتذار، لأن الاعتذار قد يكلفه هالته. ولا يملك حتى حق الصمت، لأن الصمت قد يفسره الناس

على أنه تراجع. وهكذا يصبح أسيرًا لنجاحه، وسجينًا لما ظنه يومًا انتصارًا.

◆ الغباء هنا لا يتغذى على الجهل، بل على الخوف من خسارة المكان. ولذلك فإن كثيرًا من الناس لا يواصلون الدور لأنهم يؤمنون به، بل لأنهم يخشون الفراغ الذي سيواجههم إذا خرجوا منه. فالإنسان قد يحتمل خسارة المال، وقد يحتمل خسارة المنصب، لكنه يجد مشقة هائلة في خسارة الصورة التي عاش سنوات يبنيها في عيون الناس. ولهذا يبقى الدور حيًا، ولو مات صاحبه من الداخل.

◆ وربما لهذا كانت أعظم لحظات النضج في حياة الإنسان هي تلك التي يملك فيها شجاعة أن يخيب توقعات جمهوره، إذا كان ثمن إرضائهم هو خيانة نفسه. فليس كل تصفيق نجاحًا، وليس كل صمت هزيمة. أحيانًا يكون الصمت أول لحظة يستعيد فيها الإنسان صوته الحقيقي، بعيدًا عن الضجيج الذي أقنعه طويلًا بأنه هو.

◆ الحكيم لا يهرب من التصفيق، لكنه لا يسكن فيه. يفرح به كما يفرح المسافر باستراحة قصيرة، ثم يواصل طريقه. أما الغبي فيبني بيته عند أول تصفيق، ويظن أن الطريق انتهى. وبين المسافر والمقيم يتحدد الفرق كله: الأول يسير نحو الحقيقة،

والثاني يدور حول صورته.

◆ وعندما يصبح التصفيق معيارًا للحقيقة، لا يفسد الإنسان وحده، بل تفسد الجماعة أيضًا. فهي لا تعود تبحث عمن يقول الصواب، بل عمن يجيد الأداء. ولا تميز بين عمق الفكرة وارتفاع الصوت، ولا بين صدق التجربة وبراعة العرض. ومن هنا تبدأ العدوى الكبرى؛ إذ ينتقل الغباء من فرد يبحث عن جمهور، إلى جمهور يبحث عمن يؤكد له أوهامه.

◆ وهنا تنتهي هذه الورقة عند العتبة التي تفتح الباب لما بعدها. فإذا كان الإنسان قد جعل التصفيق ميزانًا للحقيقة، فكيف تتحول الجماعة كلها إلى آلة تصفيق؟ وكيف يصبح الاختلاف خطرًا، والسؤال خيانة، والصمت تهمة؟ عند هذه النقطة تبدأ الورقة التالية، حيث لا يكون البطل فردًا واحدًا، بل جمهورًا كاملًا يشارك، من حيث لا يدري، في صناعة الغباء.

ورقة من كتاب «الغبي» (18)

✳ القطيع الذي يصفق ✳

»لا يبدأ القطيع عندما يجتمع الناس... بل عندما يتوقف كل واحد منهم عن أن يكون نفسه«.

◆ لا يهبط القطيع من السماء، ولا يخرج من رحم الكثرة وحدها. إنه يولد في اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان أن السير مع الجميع أقل كلفة من السير مع ضميره. عندها لا يتخلى عن عقله دفعة واحدة، بل يؤجره مؤقتًا، ثم ينسى، مع مرور الأيام، أنه كان يملكه أصلًا. وهنا لا يعود الغباء قرارًا فرديًا، بل يصبح مناخًا عامًا يتنفسه الجميع دون أن يسأل أحد: متى أصبح الهواء هكذا؟

◆ في الورقة السابقة رأينا إنسانًا أدمن التصفيق حتى صار يقيس الحقيقة بعدد الأيدي التي ترتفع له. أما هنا فإننا نرى التصفيق نفسه وقد فقد صاحبه، وصار كائنًا مستقلًا، يبحث عن ضحاياه الجدد. فالجمهور الذي صفق بالأمس لممثل، يبحث اليوم عن ممثل آخر، لا لأن الحقيقة تغيرت، بل لأن القطيع لا

يستطيع أن يعيش بلا صوت يقوده، ولا بلا وجه يختصر له مشقة التفكير.

◆ الإنسان، في أعماقه، يحتاج إلى الانتماء كما يحتاج إلى الهواء. لكنه يحتاج إلى الحرية بالقدر نفسه. والمأساة تبدأ عندما يطلب الانتماء ثمنًا لا يحق له أن يطلبه: أن يتنازل الإنسان عن حقه في السؤال. فمنذ تلك اللحظة لا يعود عضوًا في جماعة، بل يصبح جزءًا من قطيع، والفرق بينهما هو الفرق بين من يمشي مع الآخرين، ومن يمشي بدلًا من نفسه.

◆ القطيع لا يفرض عليك رأيًا في البداية، بل يمنحك راحة. يعفيك من عناء المراجعة، ومن تعب الشك، ومن وجع الاعتراف بأن العالم أكثر تعقيدًا من الشعارات. يقول لك، في همس مطمئن: لا تفكر كثيرًا، لقد فكرنا عنك. لا تتردد، فقد اخترنا الطريق. لا تراجع نفسك، لأن المراجعة تربك الصف. وهكذا يصبح الغباء خدمة مجانية تقدمها الجماعة لكل من تعب من حمل مسؤوليته الشخصية.

◆ وما أكثر الذين دخلوا الجماعات أحرارًا، ثم خرجوا منها نسخًا متشابهة. تتقارب مفرداتهم، وتتطابق انفعالاتهم، وتتشابه ابتساماتهم وغضبهم، حتى يخيل إليك أن شخصًا واحدًا يتكلم بألسنة كثيرة. وليس ذلك لأنهم فقدوا الذكاء، بل لأنهم فقدوا الجرأة

على أن يختلفوا مع أنفسهم قبل أن يختلفوا مع غيرهم.

◆ أخطر ما يفعله القطيع أنه يعاقب الفضيلة التي قام عليها في البداية. فقد يجتمع الناس حول قيمة نبيلة، ثم يتحول الدفاع عن تلك القيمة إلى عبادة للجماعة نفسها. عندئذ يصبح الولاء أهم من الصدق، والانضباط أهم من الضمير، والطاعة أهم من الحقيقة. وما إن يحدث ذلك، حتى تذبل الفكرة التي جمعتهم أول مرة، ويبقى التنظيم حيًا بعد أن تموت الرسالة.

◆ في السياسة، رأيت القطيع يصفق للحاكم لأنه قوي، ثم يصفق لغيره لأنه أقوى، دون أن يسأل مرة: هل القوة وحدها فضيلة؟ ورأيت القطيع نفسه ينتقل من زعيم إلى آخر، محتفظًا بالطريقة نفسها في التفكير، وكأن المشكلة لم تكن في الأشخاص، بل في الحاجة المزمنة إلى شخص يريحه من مسؤولية الاختيار.

◆ وفي الإعلام، لا يعيش القطيع على الأخبار وحدها، بل على اليقين. إنه يحب المذيع الذي لا يتردد، والخطيب الذي لا يحتار، والمحلل الذي يملك جوابًا لكل سؤال. أما الذي يعترف بحدود معرفته، أو يراجع موقفًا، أو يترك مساحة للشك، فيبدو ضعيفًا في نظر جمهور تعود أن يرى الثقة أهم من الصدق.

◆ والسوشيال ميديا لم تصنع القطيع، لكنها جعلت سرعته

مذهلة. في الماضي كان تكوين الرأي يحتاج إلى زمن، أما اليوم فقد تكفي دقائق حتى تتحول عبارة إلى يقين، وإشاعة إلى عقيدة، وسخرية إلى تاريخ، وصورة مبتورة إلى حكم نهائي. وما إن يبدأ القطيع في الجري، حتى يصبح التوقف نفسه موضع شبهة، لأن الذي لا يركض معهم يبدو، في نظرهم، متخلفًا أو خائنًا أو غريبًا.

◆ الغبي، في هذا الوجه، لا يكره الحرية، بل يخاف ثمنها. فالحرية تعني أن يقول: لا أدري. وأن يعترف: ربما كنت مخطئًا. وأن يحتمل أن يقف وحده دقيقة واحدة أمام جمهور كامل. وهذه الدقيقة أثقل على بعض الناس من سنوات طويلة يقضونها داخل قطيع يمنحهم الدفء ويأخذ منهم العقل.

◆ لهذا لا يكون علاج القطيع بكراهية الجماعات، ولا باعتزال الناس، بل بإحياء الضمير الفردي داخل كل جماعة. أن يبقى لكل إنسان حق السؤال، وحق المراجعة، وحق الاعتذار، وحق أن يختلف دون أن يفقد إنسانيته. فالجماعة التي لا تتسع للمراجعة، تضيق بالحقيقة نفسها، ولو رفعت ألف شعار باسمها.

◆ وربما كانت أخطر لحظة في حياة الإنسان هي تلك التي يكتشف فيها أن التصفيق الذي ظنه قوة، كان في الحقيقة خوفًا جماعيًا من الصمت، وأن الإجماع الذي أراحه طويلًا لم يكن

دليلًا على الصواب، بل دليلًا على أن أحدًا لم يجرؤ على أن يبدأ السؤال الأول.

◆ ومن هنا نصل إلى العتبة التالية. فإذا كان القطيع قد نجح في أن يجعل الإنسان يستعير عقله من الجماعة، فمن الذي يصنع هذا العقل المستعار؟ من الذي يكتب الأفكار قبل أن يتبناها الناس، ويمنح الوهم لسانًا، ويمنح الخوف لغة، ويمنح الغباء ثقة العالم؟ هناك تبدأ الورقة القادمة... حيث لا يكون الخطر في القطيع، بل في المصنع الذي ينتجها.

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي»(19)

✳مصنع الأوهام✳

«الغبي لا يبتلع الكذبة لأنها مقنعة... بل لأنها جاءت من المكان الذي اعتاد أن يستعير منه عقله».

◆ لا يولد الوهم مكتملًا، كما لا تولد الأكاذيب فجأة. لكل وهم ورشة صغيرة، ولكل يقين زائف مصنع يعمل في هدوء، لا ينتج الحديد ولا الإسمنت، بل ينتج الصور، والكلمات، والانطباعات، والروايات التي تستقر في العقول حتى تبدو وكأنها حقائق أزلية. وحين يصل الوهم إلى الناس، يكون قد قطع رحلة طويلة من الصقل، حتى يفقد كثيرون القدرة على التمييز بين ما عاشوه فعلًا، وما جرى إعداده لهم ليعيشوه.

◆ لا يبدأ المصنع بطلب الطاعة، بل بطلب الثقة. وهذه هي الحيلة الأولى. فالإنسان لا يسلم عقله لمن يخيفه دائمًا، وإنما لمن يطمئنه. وكلما شعر أن هناك من يفكر عنه، ويختصر له الطريق، ويعفيه من عناء السؤال، مال إليه أكثر. وهكذا تتحول الثقة، وهي من أجمل القيم الإنسانية، إلى الباب الذي

يدخل منه الوهم، إذا لم يحرسها العقل.

◆ مصانع الأوهام لا تبيع الأكاذيب صريحة، لأنها تعلم أن الإنسان بطبيعته ينفر من الكذب إذا رآه عاريًا. لذلك تغلفه بشيء من الحقيقة، وتخلطه بشيء من الواقع، ثم تضيف إليه ما يكفي من العاطفة، حتى يصبح ابتلاعه سهلًا. فما أكثر الروايات التي بدأت بحقيقة صغيرة، ثم انتهت إلى وهم كبير، لأن أحدًا لم يتوقف في منتصف الطريق ليسأل: أين انتهت الحقيقة، وأين بدأ الخيال؟

◆ في السياسة، لا يكون أخطر ما تفعله السلطة أنها تمنع الناس من الكلام، بل أنها تمنحهم لغة جاهزة للكلام. وفي الإعلام، لا تكون المشكلة في الخبر وحده، بل في الطريقة التي يُروى بها، وفي الأسئلة التي تُطرح، وفي الأسئلة التي يُمنع طرحها. أما في المجتمع، فإن المصنع الأكبر يظل هو ذلك الذي يعيد إنتاج الأفكار نفسها، جيلاً بعد جيل، حتى يظن الأبناء أن ما ورثوه لم يكن رأيًا، بل قانونًا من قوانين الطبيعة.

◆ ولقد تعلمت، عبر سنوات طويلة، أن أخطر من يزور الحقيقة ليس من يخترع الكذبة، بل من يكررها حتى تفقد غرابتها. فالكذبة لا تنتصر لأنها قوية، وإنما لأنها صبورة. تعود كل صباح في ثوب جديد، حتى يعتادها العقل، ثم يكسل عن مقاومتها، ثم

يبدأ، في لحظة لا يشعر بها، بالدفاع عنها.

◆ هنا يظهر وجه جديد من وجوه الغباء. ليس الغبي هو الذي يسمع الرواية لأول مرة فيصدقها، فهذا شأن كل إنسان لم تتوافر له المعرفة. الغبي هو الذي يرفض مراجعتها بعد أن تتكشف أمامه الأدلة، لأنه لم يعد يدافع عن الرواية، بل عن الجزء الذي أصبحت تمثله من هويته. عندئذ يصبح البرهان خصمًا، لا معينًا، ويغدو السؤال تهديدًا، لا فرصة.

◆ أخطر ما في مصانع الأوهام أنها لا تنتج رأيًا واحدًا، بل تنتج طريقة في التفكير. تعلم الإنسان أن يصفق قبل أن يفهم، وأن يغضب قبل أن يتحقق، وأن يكره قبل أن يعرف، وأن يحب قبل أن يختبر. وهكذا لا يصبح الوهم فكرة عابرة، بل عادة عقلية، يعيد الإنسان بها إنتاج الغباء كل يوم، وهو يظن أنه يمارس حقه الطبيعي في الحكم على الأشياء.

◆ ولأن المصنع يعرف أن العقل الحر أخطر أعدائه، فإنه لا يحاول تحطيمه، بل إنهاكه. يغرقه في الضجيج، ويطارده بالأخبار، ويشغله بالتفاصيل، حتى يفقد القدرة على التأمل الطويل. وما إن يفقد الإنسان القدرة على التأمل، حتى يصبح أكثر استعدادًا لتلقي الأفكار الجاهزة، لأنها أقل كلفة من التفكير.

◆ من هنا لا تكون مقاومة الغباء بمعرفة جواب جديد فقط،

بل باستعادة حق الإنسان في السؤال. فالسؤال هو الآلة الوحيدة التي لا تستطيع مصانع الأوهام أن تقلدها. أما الجواب الجاهز، فيستطيع الجميع إنتاجه.

◆ وربما لهذا لم يكن أخطر ما يواجه الإنسان في حياته أن يُخدع، بل أن يعتاد الخداع حتى يصبح جزءًا من نظامه الداخلي. فهناك يبدأ الوهم في صناعة نفسه بنفسه، دون حاجة إلى مصنع، أو شاشة، أو خطيب، أو قائد.

◆ ومن هذه العتبة نقترب من سؤال أشد عمقًا: إذا كانت مصانع الأوهام تنتج الروايات، فمن الذي يمنحها القداسة؟ ومن الذي يحول الرأي إلى عقيدة، والاختلاف إلى خطيئة، والمراجعة إلى خيانة؟ هناك تبدأ الورقة التالية... حيث لا يحرس الوهم بالكلمات وحدها، بل بالمقدس الذي يصنعه الإنسان بيديه.

◆ وحين يصل الوهم إلى مرتبة المقدس، يتغير كل شيء. لا يعود النقاش ممكنًا، ولا يصبح الاختلاف مقبولًا، لأن ما كان رأيًا صار جزءًا من الإيمان. وهنا لا يُطلب من الإنسان أن يفهم، بل أن يصدق، ولا أن يسأل، بل أن يخضع. وكلما ازداد الوهم قداسة، ازداد الدفاع عنه شراسة، لأن الناس لا يدافعون عن الأفكار فقط، بل عن شعورهم بالأمان الذي تمنحه لهم.

◆ في تلك اللحظة، لا يعود المصنع بحاجة إلى العمل

بكثافة، لأن الناس أنفسهم يتحولون إلى خطوط إنتاج. يكررون الروايات، وينقلونها، ويغضبون لها، ويقاتلون من أجلها، دون أن يسألوا: من أين جاءت؟ ولماذا؟ وهل ما زالت صالحة؟ وهكذا يصبح الوهم أكثر قوة، لأنه لم يعد مفروضًا من الخارج، بل مزروعًا في الداخل.

◆ وربما كان الخلاص يبدأ من لحظة بسيطة، لكنها شجاعة: أن يشك الإنسان في أكثر ما يطمئنه، وأن يسأل عن أكثر ما اعتاد عليه، وأن يقبل أن الحقيقة قد تكون أقل راحة من الوهم، لكنها أكثر صدقًا. فالعقل لا يتحرر دفعة واحدة، بل خطوة خطوة، سؤالًا بعد سؤال، حتى يستعيد قدرته على رؤية الأشياء كما هي، لا كما صُنعت له.

◆ عندها فقط، يتوقف المصنع عن العمل... ليس لأنه دُمّر، بل لأنه فقد زبائنه.



ورقة من كتاب «الغبي» (20)

✳المقدس الذي صنعناه بأيدينا✳

«الغبي لا يحول الفكرة إلى حقيقة... بل يحولها إلى مقدس، ثم يتصور أن الدفاع عنها دفاع عن الله، أو الوطن، أو التاريخ، بينما هو في الحقيقة يدافع عن نفسه».

◆ تولد الأفكار بشرية، ثم تموت بشرية، إلا أن الإنسان يمتلك قدرة مدهشة على أن يمنح بعضها عمرًا لا تستحقه، وقداسة لم تُخلق لها. يبدأ الأمر بإعجاب، ثم يتحول إلى انتماء، ثم إلى ولاء، ثم إلى يقين، ثم إلى شيء لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه. عندئذ لا تعود الفكرة فكرة، بل تصبح منطقة محرمة، ويصبح السؤال جريمة، ويغدو التفكير نفسه موضع شبهة.

◆ ليس كل مقدس زائفًا، ولا كل يقين وهمًا، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا ثوابت. لكن المأساة تبدأ عندما يخلط بين ما هو مقدس بطبيعته، وما هو مقدس لأنه أحبه طويلًا. هناك فرق هائل بين القيم التي تعلو على البشر، وبين الآراء التي

رفعها البشر إلى مقام القيم. وما أكثر ما تختلط المنطقتان حتى يعجز الإنسان عن التمييز بين الوحي وتأويله، وبين الوطن والسلطة، وبين الدين وأهله، وبين الفكرة وصاحبها.

◆ الغباء لا يبدأ عندما يحترم الإنسان ما يقدسه، بل عندما يرفض أن يراجع ما صنعه هو بيديه. فكل رأي بشري يظل، مهما علا، قابلًا للمراجعة، وكل اجتهاد يظل ابنًا لزمانه، وكل قائد يظل إنسانًا، وكل حزب يظل تجربة، وكل مدرسة تبقى محاولة لفهم العالم لا العالم نفسه. لكن الغبي يضيق بهذه البساطة، لأنه يحتاج إلى يقين مغلق أكثر مما يحتاج إلى حقيقة مفتوحة.

◆ ما إن ترتدي الفكرة ثوب القداسة، حتى يتغير قانون الحوار كله. لا يعود المختلف خصمًا في الرأي، بل يصبح خطرًا على الوجود. ولا يعود السؤال وسيلة للفهم، بل محاولة للهدم. وهكذا تنشأ واحدة من أخطر آليات الغباء: أن يتحول الخلاف الفكري إلى معركة أخلاقية، وأن يصبح الاعتراف بخطأ فكرة كأنه اعتراف بانهيار الذات كلها.

◆ رأيت، في سنوات العمل العام، أفكارًا كانت في بدايتها محاولات صادقة للإصلاح، ثم تحولت مع الزمن إلى أصنام صغيرة، يحرسها أتباعها أكثر مما يحرسون الحقيقة نفسها. لم

يكن أحد يجرؤ على مراجعتها، لا لأنها كاملة، بل لأن أصحابها ربطوا كرامتهم بها. ومنذ تلك اللحظة، لم تعد الفكرة تكبر، لأنها لم تعد تتعرض للهواء. والأفكار، مثل الكائنات الحية، تموت اختناقًا إذا أُغلقت عليها النوافذ.

◆ أكثر ما يثير الدهشة أن الإنسان لا يشعر بهذه النقلة وهو يعيشها. يبدأ بالدفاع عن فكرة، ثم يجد نفسه بعد سنوات يدافع عن كل من ينتسب إليها، ثم عن كل ما ارتبط بها، ثم عن كل خطأ يقع باسمها. وهكذا ينتقل من حب الحقيقة إلى حب الراية، ومن الوفاء للمبدأ إلى الوفاء للشعار، ومن احترام القيمة إلى تقديس اللافتة التي كُتبت عليها.

◆ في هذه المرحلة، يصبح الغباء شديد الأدب. لا يرفع صوته، ولا يعلن عن نفسه، بل يتكلم بلغة الفضيلة. يقول: أنا أوفي للمبدأ. بينما هو، في الحقيقة، وفيّ للخوف من مراجعة ذلك المبدأ. يقول: أنا أحمي الثوابت. بينما هو يحمي الصورة التي بناها عن نفسه داخل تلك الثوابت. وما أخطر الكلمات الجميلة حين تخفي وراءها خوفًا لا يريد صاحبه أن يعترف به.

◆ والمقدسات البشرية، إذا تُركت بلا مراجعة، لا تحتاج إلى طغاة كي تحرسها. أتباعها يقومون بالمهمة مجانًا. يراقب بعضهم بعضًا، ويعاقبون من يسأل، ويشككون في نيات من

يراجع، ويستريحون إلى يقين جماعي يعفيهم من مسؤولية التفكير الفردي. وهكذا يتحول الوهم إلى مؤسسة، لا لأن أحدًا فرضه بالقوة، بل لأن الجميع وجدوا في حمايته راحة نفسية يصعب التفريط فيها.

◆ ليس المقصود هنا الدعوة إلى هدم الثوابت، بل إلى التمييز بينها وبين الأصنام التي نصنعها من آرائنا. فالثابت الحقيقي لا يخاف السؤال، لأنه لا يعتمد على الخوف كي يبقى. أما الفكرة التي ترتجف كلما اقترب منها عقل حر، فليست قوية كما تدعي، وإنما تعيش على الحراسة أكثر مما تعيش على البرهان.

◆ ولعل أول علامات النضج أن يملك الإنسان الشجاعة ليفصل بين احترامه للفكرة، وحقه في مراجعتها. وأن يحب الحقيقة أكثر من انتصاره لها. وأن يدرك أن أعظم ما يقدمه الإنسان لمبدأ يؤمن به، هو ألا يمنعه ذلك المبدأ من رؤية الحقيقة إذا ظهرت في مكان آخر.

◆ الغبي لا يضيع لأنه يقدس ما ينبغي تقديسه، بل لأنه يضيف إلى قائمة المقدسات كل ما تعلق به قلبه، أو انتفعت به مصلحته، أو صفق له جمهوره، حتى تمتلئ حياته بأشياء لا يجرؤ على الاقتراب منها. وحين تصبح الحياة كلها مناطق

محرمة، يتوقف العقل عن السفر، ويكتفي بالدوران حول الأسوار.

◆ ومن هنا تبدأ الورقة التالية. فإذا كان الإنسان هو الذي يمنح بعض الأفكار قداسة لا تملكها، فمن الذي يمنحه هو هذا الاستعداد العجيب للتسليم؟ وما الذي يجعل بعض العقول أكثر قابلية للخضوع من غيرها؟ هناك سنقترب من الوجه التالي للغباء، حين لا يعود الوهم مجرد فكرة، ولا مجرد مصلحة، بل يصبح عادةً عقليةً، يرى الإنسان بها العالم كله.

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي» (21)

✳ العقل المستعار ✳

«الغبي لا يفقد عقله... بل يتوقف عن استعماله، ويستعير عقلًا آخر يريحه من مشقة التفكير».

◆ يولد الإنسان مزودًا بعقل لا يشبه سواه، ثم يقضي جانبًا كبيرًا من عمره يبحث عمن يفكر بالنيابة عنه. ليست المشكلة في التعلم من الآخرين، فالحكمة ميراث إنساني تتناقله الأجيال، وإنما تبدأ المأساة عندما يتحول التعلم إلى تنازل، والإرشاد إلى وصاية، والثقة إلى استقالة صامتة من مسؤولية التفكير. هناك، في تلك اللحظة التي يسلم فيها الإنسان مفاتيح عقله إلى غيره، يولد وجه جديد من وجوه الغباء.

◆ لا يستولي أحد على العقل بالقوة. العقل لا يفتح أبوابه للسلاسل، بل يفتحها للراحة. فالإنسان المتعب يبحث عمن يختصر له الطريق، والمذعور يبحث عمن يمنحه يقينًا سريعًا، والحائر يبحث عمن يعفيه من عبء السؤال. وهكذا لا يدخل الوهم من باب الإكراه غالبًا، بل من باب الخدمة المجانية. يقول

لصاحبه: لا ترهق نفسك، لقد فكر غيرك، واختار غيرك، واحسم أمرك كما حسموه.

◆ لكل عصر وسائله في صناعة العقل المستعار. كان شيخ القبيلة يومًا، ثم صار الكاهن، ثم الزعيم، ثم الحزب، ثم الشاشة، ثم المنصة الرقمية، ثم الخوارزمية التي تعرف ما تحب قبل أن تعرفه أنت. تغيرت الأدوات، لكن الفكرة بقيت واحدة؛ كلما قلَّت مشقة التفكير، ازداد الإقبال على استعارته.

◆ أخطر ما في العقل المستعار أنه لا يبدو غريبًا على صاحبه. يتكلم بلغته، ويستشهد بمصادره، ويغضب لغضبه، ويبتسم لابتسامته. يظن الإنسان أنه يفكر بحرية، بينما هو يعيد ترتيب أفكار وصلت إليه جاهزة. وما أكثر الذين يبدون مستقلين في آرائهم، بينما هم لا يفعلون أكثر من إعادة بث ما استقبلوه من قبل.

◆ لا يعني ذلك أن كل اتفاق مع الآخرين غباء، فالعقول تتلاقى بطبيعتها، وقد يصل اثنان إلى النتيجة نفسها من طريقين مختلفين. لكن الفرق عظيم بين من يصل إلى رأي بعد رحلة، ومن يرث الرأي كما يرث قطعة أثاث قديمة، يضعها في بيته دون أن يسأل: هل ما زالت تصلح لهذا المكان؟

◆ رأيت، في سنوات طويلة من العمل العام، أشخاصًا

يبدلون مواقفهم كلها في ليلة واحدة، لا لأن الوقائع تغيرت، بل لأن المرجع الذي كانوا يستعيرون منه عقولهم غيّر موقفه. لم يشعروا بتناقض، ولم يعتذروا عن الأمس، لأنهم لم يعتبروا أنفسهم يومًا أصحاب الرأي. كانوا مجرد أمناء على رأي غيرهم. وحين تغير الأصل، تغيرت النسخة تلقائيًا.

◆ الغبي لا يرفض التفكير لأنه عاجز عنه، بل لأنه يكتشف أن التفكير الحقيقي مكلف. إنه يفرض على صاحبه أن يحتمل الوحدة أحيانًا، وأن يعترف بالجهل أحيانًا أخرى، وأن يعيش أيامًا طويلة بلا يقين كامل. أما العقل المستعار فيمنحه يقينًا جاهزًا، ولغة جاهزة، وغضبًا جاهزًا، وأعداء جاهزين. إنه يوفر عليه مشقة الحياة، لكنه يسلبه حياته في المقابل.

◆ ومن هنا يصبح السؤال أخطر من الجواب. فالسؤال يوقظ العقل، أما الجواب الجاهز فينومه. وكل حضارة عظيمة بدأت بسؤال شجاع، وكل انحدار طويل بدأ بإجابة مقدسة لا يسمح لأحد بالاقتراب منها. لذلك يخشى الغباء السؤال أكثر مما يخشى الحقيقة، لأن السؤال هو الباب الذي قد يعيد الإنسان إلى نفسه.

◆ ليس العقل الحر هو الذي يعارض الجميع، ولا الذي يشك في كل شيء. العقل الحر هو الذي يعرف لماذا وافق،

ولماذا اعترض، ويستطيع أن يشرح رحلته قبل أن يشرح نتيجته. أما العقل المستعار فلا يملك إلا النتيجة. وإذا سألته عن الطريق، أشار إلى أقدام غيره.

◆ ومن أشد مفارقات الحياة أن الإنسان قد يقضي عمره يدافع عن حرية لم يمارسها داخل عقله قط. يطالب باستقلال الأوطان، وهو تابع في تفكيره. يرفض الوصاية السياسية، ويقبل الوصاية الفكرية. يثور على الاستبداد في الشارع، ويستسلم له في داخله. وهنا يبلغ الغباء درجة نادرة؛ أن يحارب القيد الخارجي، بينما يحمل القيد الحقيقي في رأسه.

◆ الحرية لا تبدأ يوم يرفع الإنسان صوته، بل يوم يملك الشجاعة لأن يقول: لا أدري. فهذه العبارة القصيرة هي إعلان الاستقلال الأول. إنها تعني أن الطريق ما زال مفتوحًا، وأن العقل ما زال يعمل، وأن الحقيقة لم تتحول بعد إلى صنم. أما الذي يخجل من الجهل، فيستعير علمًا ليس له، ثم يستعير معه عقلًا ليس عقله.

◆ وربما كانت أعظم هدية يمنحها الإنسان لنفسه ألا يسمح لأحد، مهما أحبَّه أو احترمه أو وثق به، أن يفكر بدلًا منه. يمكنه أن يتعلم، وأن يصغي، وأن يراجع، وأن يقتبس، لكنه لا يتنازل أبدًا عن مسؤوليته الأخيرة؛ مسؤولية أن يمر كل ما يسمعه

على ضميره وعقله وتجربته.

◆ ومن هنا يبدأ الطريق إلى الورقة التالية. فإذا كان الإنسان قد استعار عقلًا يريحه من عناء التفكير، فكيف يتعامل مع الحقيقة حين تطرق بابه؟ هل يفتح لها، أم يطلب منها أن تنتظر حتى يستأذن العقل الذي استعار منه مفاتيحه؟ هناك يبدأ وجه جديد من وجوه الغباء... حين يصبح اليقين أقوى من الواقع.

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي» (22)

✳اليقين الذي لا يرى✳

«الغبي لا يرفض الواقع لأنه لا يراه... بل لأنه يرى يقينه أوضح من الواقع».

◆ يولد اليقين في بدايته رفيقًا للعقل، ثم قد ينقلب، مع الزمن، إلى سجانه. فالإنسان يحتاج إلى شيء من اليقين ليعيش، كما يحتاج البحار إلى نجمة يهتدي بها في الظلام. لكن النجمة التي تهدي قد تتحول إلى قيد إذا أقنعته أن السماء لا تضم غيرها، وأن كل ما عداها وهم أو ضلال. ومن هنا يبدأ الغباء في أكثر صوره هدوءًا؛ حين يصبح اليقين نهاية الرحلة، لا بدايتها.

◆ الحقيقة كائن حي، تتسع كلما اقترب الإنسان منها، بينما اليقين المغلق يشبه غرفة بلا نوافذ. كلما طال البقاء فيها، ضاقت على صاحبها حتى يظن أن العالم كله لا يزيد على حدودها. وهكذا لا يعود يرى الواقع كما هو، بل كما تسمح له جدران يقينه أن يراه. وإذا اصطدمت الوقائع بما يؤمن به، لم يتهم يقينه، بل اتهم الوقائع.

◆ لا يخاف الإنسان من الحقيقة لأنها تهز أفكاره فقط، بل لأنها تهز صورته عن نفسه. فكل يقين طويل العمر يصبح جزءًا من الهوية، والهوية لا تستقبل المراجعة بسهولة. ولهذا تبدو الحقيقة أحيانًا كأنها خصم شخصي، لا لأنها كاذبة، بل لأنها جاءت متأخرة، بعد أن بنى الإنسان عمرًا كاملًا فوق فكرة واحدة.

◆ رأيت في الحياة العامة من كانوا يملكون من الذكاء ما يكفي لتغيير آرائهم، لكنهم لم يملكوا الشجاعة لتغيير صورتهم. كانوا يعرفون أن الوقائع تغيرت، وأن العالم لم يعد كما كان، وأن الناس تجاوزوا شعارات الأمس، لكنهم ظلوا أوفياء لليقين القديم، لأنهم لم يعرفوا كيف يعيش الإنسان بلا الراية التي حملها سنوات طويلة.

◆ أخطر أنواع اليقين ذلك الذي يتوقف عن التعلم. فالعقل الحي لا يخجل من أن يقول: كنت أظن، ثم اكتشفت. أما العقل الذي أصابه الغباء، فيستبدل هذه العبارة بأخرى أشد راحة: كنت على حق دائمًا. وبين الجملتين يعيش الفرق كله بين الباحث والحارس؛ الباحث يحرس الحقيقة، أما الحارس فيحرس يقينه.

◆ الغريب أن اليقين لا يحتاج دائمًا إلى أدلة جديدة، بل يكتفي أحيانًا بتجاهل الأدلة القديمة. فالإنسان لا يكذب على نفسه في كل مرة، لكنه يتقن فن الالتفات بعيدًا. يرى ما يؤيده،

ولا يطيل النظر فيما يربكه. يسمع ما يطمئنه، ويؤجل كل سؤال يمكن أن يخلخل البناء الذي أقامه داخل رأسه. وهكذا لا يموت العقل فجأة، بل يذبل ببطء.

◆ في السياسة، يتحول اليقين إلى أداة خطيرة. فالحاكم الذي يوقن أنه وحده الوطن، يعجز عن رؤية الوطن خارج صورته. والمعارض الذي يوقن أنه وحده الحقيقة، يعجز عن رؤية أخطائه. وكلما ازداد اليقين صلابة، ازداد الواقع غربة، حتى يصبح الإصلاح نفسه مستحيلًا، لأن أول شروط الإصلاح هو الاعتراف بأن شيئًا ما يحتاج إلى إصلاح.

◆ وفي الفكر، قد يصبح اليقين أخطر من الجهل. فالجاهل يمكن أن يتعلم، أما الذي يوقن أنه اكتمل، فقد أغلق باب التعلم بيده. ولذلك كانت الحضارات العظيمة أكثر الحضارات قدرة على الشك في نفسها، لا لأنها ضعيفة، بل لأنها كانت تعرف أن الحقيقة لا تمنح نفسها لمن يدعي امتلاكها كاملة.

◆ لا أدعو هنا إلى الشك المرضي الذي يهدم كل شيء، فذلك وجه آخر من وجوه الضياع. وإنما أدعو إلى التواضع أمام الحقيقة. أن يترك الإنسان في يقينه نافذة صغيرة يدخل منها هواء جديد. فالعقل الذي لا يراجع نفسه، يشبه ساعة توقفت منذ سنوات، وما زال صاحبها يضبط يومه عليها، لأنها كانت دقيقة يومًا ما.

◆ الغبي لا يهزمه خصومه في النهاية، بل يهزمه يقينه حين يمنعه من رؤية الباب الذي فُتح أمامه. يظل يدور في الغرفة نفسها، ويكرر العبارات نفسها، ويستشهد بالأدلة نفسها، بينما العالم كله يتحرك من حوله. وما أقسى أن يكتشف الإنسان، بعد عمر طويل، أن الحقيقة كانت تمر بجواره كل يوم، لكنه لم يرها، لأن يقينه كان يقف في الطريق.

◆ وربما كانت أول خطوة في طريق الحكمة أن يستبدل الإنسان عبارة: «أنا متأكد» بعبارة أكثر تواضعًا: «هذا ما أراه اليوم، وقد أرى غدًا ما هو أقرب إلى الحقيقة». عندها فقط، لا يفقد يقينه، بل ينقذه من أن يتحول إلى صنم.

◆ ومن هنا نصل إلى العتبة التالية. فإذا كان اليقين المغلق قد حجب الواقع، فمن الذي يمنح الإنسان الشجاعة ليهدم يقينه القديم؟ هل تأتي من فكرة جديدة، أم من هزيمة، أم من حب، أم من خسارة تهز أعماقه؟ هناك تبدأ الورقة القادمة... حيث لا يكون التغيير ثمرة معرفة فقط، بل ثمرة ألم أيضًا.

ورقة من كتاب «الغبي» (23)

✳ الألم الذي يوقظ العقل ✳

«الغبي لا يهرب من الحقيقة لأنها مؤلمة... بل لأنه يخشى أن يصبح شخصًا آخر إذا اعترف بها».

◆ لا يتغير الإنسان عادةً عندما يسمع الفكرة الأفضل، بل عندما يعجز عن احتمال الفكرة القديمة. تلك هي المفارقة التي صنعت أكثر التحولات عمقًا في حياة البشر. فالحقائق لا تدخل العقول بقوة البرهان وحده، وإنما تدخل أحيانًا من الشقوق التي تفتحها الخسائر، ومن الأبواب التي يكسرها الألم، ومن اللحظات التي يكتشف فيها الإنسان أن الرواية التي عاش داخلها سنوات لم تعد قادرة على تفسير حياته.

◆ المعرفة وحدها لا تغير البشر كما نتوهم. لو كان الأمر كذلك، لما بقي ظلم بعد كتاب، ولا تعصب بعد تجربة، ولا غباء بعد مدرسة. لكن الإنسان لا يعيش بالأفكار وحدها، بل يعيش بما استقر منها في أعماقه. ولذلك قد يعرف الحقيقة بعقله، ثم يرفضها بقلبه، لأن قبولها يفرض عليه أن يهدم بيتًا داخليًا أقامه

حجرًا فوق حجر، وسكنه طويلًا حتى ظنه وطنه الأخير.

◆ كل تحول حقيقي يبدأ بخسارة. خسارة يقين، أو صورة، أو كبرياء، أو وهم جميل عاش صاحبه يزين به ماضيه. ومن هنا كان الألم، في كثير من الأحيان، أعظم معلم عرفه الإنسان. فهو لا يمنحه الإجابة، لكنه ينتزع منه الأجوبة الزائفة. لا يضع الحقيقة في يده، لكنه يسقط الأقنعة التي كانت تحجبها عنه.

◆ رأيت، في الحياة العامة، رجالًا لم تغيرهم آلاف المقالات ولا مئات الخطب، لكنهم تغيروا بعد هزيمة واحدة صادقة، أو بعد عزلة طويلة، أو بعد سقوط التصفيق الذي كانوا يظنون أنه لن ينتهي. هناك فقط بدأوا يسمعون أصواتًا لم يكونوا يسمعونها من قبل؛ ليس لأن الحقيقة وصلت متأخرة، بل لأن الضجيج الذي كان يحجبها قد انطفأ.

◆ الغباء لا يخشى الألم كله. إنه يخشى نوعًا محددًا منه: الألم الذي يفضح الوهم. ولذلك يقبل الإنسان أحيانًا ألم الخصومة، ولا يقبل ألم الاعتراف. يتحمل خسارة المنصب، ولا يتحمل خسارة الصورة. يصبر على جرح الجسد، ويهرب من جرح الكبرياء. لأن الجسد يشفى مع الزمن، أما الصورة إذا تشققت، فقد تجبر صاحبها على أن يعيد بناء نفسه من جديد.

◆ ومن أعجب ما في النفس البشرية أنها قد تستعمل الألم

نفسه وقودًا لوهم جديد. هناك من يحول كل هزيمة إلى شهادة على عظمة ذاته، وكل رفض إلى مؤامرة، وكل نقد إلى دليل على تفوقه. وهنا لا يعود الألم طريقًا إلى الحكمة، بل يصبح مادة خام يصنع منها الغبي رواية أخرى، أكثر تعقيدًا من الأولى، وأكثر بعدًا عن الحقيقة.

◆ ليس كل من تألم نضج، كما ليس كل من خسر تعلم. فالألم، مثل النار، قد ينضج الحديد، وقد يحوله إلى رماد. والفارق بين الأمرين هو الشجاعة. شجاعة أن يسأل الإنسان نفسه: ماذا يريد هذا الألم أن يعلمني؟ لا: كيف أهرب منه؟ لأن الذي يهرب من الدرس، يكرر الامتحان، والذي يهرب من الحقيقة، يكرر الوهم.

◆ لعل أكثر ما يؤخر نضج الإنسان أنه يظن أن الاعتراف نهاية الهيبة، بينما هو في الحقيقة بداية الحرية. فالذي يعترف بخطئه لا يصغر، بل يتحرر من عبء الدفاع عنه. والذي يعترف بأن يقينه القديم لم يعد يكفيه، لا يهدم تاريخه، بل يفتح له مستقبلًا جديدًا. أما الذي يصر على حماية الوهم، فإنه يحكم على نفسه أن يعيش حارسًا لسجن بناه بيديه.

◆ في السياسة كما في الفكر، لا تنهض الأمم حين تنتصر دائمًا، بل حين تتعلم من هزائمها. والأمم التي لا تراجع أخطاءها، تشبه الإنسان الذي يرفض النظر إلى جرحه، ثم يندهش بعد

سنوات لأنه لم يلتئم. ليس لأن الزمن لم يمنحه فرصة الشفاء، بل لأنه ظل يغير الضمادات، ولم ينظف الجرح.

◆ الحكيم لا يبحث عن الألم، لكنه لا يهرب منه إذا جاء. يعرف أن بعض الوجع رسالة، وأن بعض الانكسار باب، وأن بعض الخسائر تنقذ الإنسان من خسائر أكبر. أما الغبي، فيمضي عمره كله يبحث عن المسكنات. يغير الكلمات، ويغير الروايات، ويغير الأبطال، لكنه لا يقترب من موضع الألم الحقيقي، لأنه يعرف، في أعماقه، أن هناك الحقيقة تنتظره.

◆ وربما لهذا لم تكن الحكمة يومًا كثرة معلومات، بل قدرة على احتمال الحقيقة عندما تؤلم. فالذي يحتملها مرة، يصبح أوسع من وهمه. والذي يهرب منها مرة بعد مرة، يصبح أضيق من نفسه، مهما اتسعت شهرته، أو كثر أتباعه، أو علت الأصوات التي تصفق له.

◆ عند هذه العتبة يبدأ وجه جديد من وجوه الغباء. فإذا كان الألم قد يوقظ العقل، فلماذا يصر بعض الناس على العودة إلى الوهم بعد أن عرفوا الحقيقة؟ من أين تأتي هذه القدرة العجيبة على نسيان الدرس، وإعادة بناء السجن نفسه، والوقوع في الحفرة ذاتها؟ هناك تبدأ الورقة القادمة... حيث لا يصبح الوهم عادةً في التفكير فقط، بل عادةً في الحياة.

ورقة من كتاب «الغبي» (24)

✳العودة إلى القفص✳

«الغبي لا يقع في الوهم مرةً واحدة... بل يحن إليه كلما أتعبته الحرية».

◆ يظن كثيرون أن الحقيقة، إذا انكشفت مرة، أصبحت كافية لتحرير الإنسان إلى الأبد. لكن التجربة تقول غير ذلك. فالإنسان قد يرى الحقيقة بعينيه، ويبكي بين يديها، ويقسم ألا يعود إلى الوهم، ثم لا تمضي الأيام حتى يفتح الباب القديم بيده، ويدخل القفص نفسه، ويغلقه من الداخل، ثم يدهش لأن الهواء صار أقل، ولأن الضوء اختفى مرة أخرى.

◆ ليست الحرية حدثًا يقع مرة واحدة، بل عادة شاقة. والوهم، على العكس، عادة مريحة. الحرية تطلب من الإنسان أن يختار كل يوم، وأن يراجع كل يوم، وأن يتحمل نتائج اختياره كل يوم. أما الوهم، فيمنحه حياة جاهزة، وإجابات جاهزة، وأعداء جاهزين، وأبطالًا جاهزين. ولذلك لا يعود السؤال: لماذا يعود الإنسان إلى الوهم؟ بل: كيف يستطيع أن يعيش طويلًا خارج راحته؟

◆ كل قفص يبدأ وعدًا بالأمان. لا يقول لصاحبه: سأسرق

منك السماء. يقول له: سأحميك من العاصفة. ولا يقول: سأمنعك من الطيران. يقول: سأعفيك من خطر السقوط. وهكذا لا يبيع الوهم نفسه بوصفه قيدًا، بل بوصفه خدمة. وما أكثر الذين دفعوا حريتهم ثمنًا لطمأنينة مؤقتة، ثم اكتشفوا أن الطمأنينة التي لا تقوم على الحقيقة ليست إلا نومًا طويلًا في غرفة مغلقة.

◆ رأيت، في الحياة العامة، أشخاصًا خرجوا من أوهامهم بشجاعة نادرة، ثم عادوا إليها بعد سنوات، لا لأن الحقيقة تغيرت، بل لأن ثمنها ظل مرتفعًا. فالإنسان قد يحتمل مواجهة خصومه، لكنه يتعب من مواجهة نفسه. وقد يصبر على خسارة منصب، لكنه لا يصبر على خسارة الصورة التي بناها عن ذاته. وهكذا يصبح الماضي أكثر إغراءً من المستقبل، لا لأنه أجمل، بل لأنه مألوف.

◆ من أخطر خصائص الوهم أنه يعرف الطريق إلى صاحبه. لا ينتظر دعوة، بل يعود كلما شعر أن الإنسان أرهقه الشك، أو أتعبته المراجعة، أو أوجعته الخسارة. يقف على الباب القديم، ويهمس: عد إليّ، فقد كنت أكثر راحة. وهنا تبدأ المعركة الحقيقية. ليست بين الحقيقة والكذب، بل بين الحرية والراحة.

◆ الغبي لا يعود إلى الوهم لأنه لم يتعلم، بل لأنه لم يتحول. هناك فرق عظيم بين أن تعرف الحقيقة، وأن تعيد بناء حياتك

عليها. المعرفة تسكن الرأس، أما التحول فيسكن الشخصية كلها. ولذلك قد يقرأ الإنسان ألف كتاب، ويشهد ألف تجربة، ثم يبقى، عند أول امتحان، ابنًا لعاداته القديمة، لأن عاداته كانت أعمق من معلوماته.

◆ العادة من أكثر القوى هدوءًا، وأكثرها سلطانًا. إنها لا تصرخ، ولا تهدد، ولا تفرض نفسها بالقوة. إنها تكتفي بالتكرار. وما يكرره الإنسان طويلًا، يصبح جزءًا من تكوينه. ولهذا لا يكفي أن يغير رأيه، بل عليه أن يغير عاداته في التفكير، وفي الاستماع، وفي الغضب، وفي التصديق، وفي الحكم على الناس. فالذي يغير أفكاره وحدها، ويترك عاداته كما هي، يشبه من يبدل أثاث البيت ويترك أساساته متصدعة.

◆ هناك نوع من الغباء لا يظهر في الخطأ، بل في الإصرار على تكراره. يظن صاحبه أن اختلاف الوجوه يعني اختلاف الطريق، بينما الطريق هو الطريق، والوهم هو الوهم، والسقوط هو السقوط. يغير الأشخاص، ولا يغير طريقته في الاختيار. يغير الشعارات، ولا يغير منطقه في التصديق. يغير القادة، ولا يغير حاجته إلى أن يسلم عقله لقائد. وهكذا يعيد إنتاج المأساة نفسها بأسماء جديدة.

◆ ليست الحكمة أن لا نسقط، فهذا فوق طاقة البشر.

الحكمة أن يصبح لكل سقوط معنى، ولكل هزيمة درس، ولكل مراجعة أثر يمنع التكرار. أما الذي يخرج من التجربة كما دخلها، فلا يكون قد عاشها، بل مر بها فقط. والزمن لا يعلم أحدًا شيئًا، إذا ظل العقل يرفض أن يتعلم.

◆ تأملت كثيرًا في أولئك الذين استطاعوا أن يغيروا حياتهم حقًا، فوجدت أنهم اشتركوا في صفة واحدة: لم يكتفوا بالاعتراف، بل قبلوا أن يدفعوا ثمن الاعتراف. تحملوا خسارة صورة قديمة، أو جمهور قديم، أو مكانة قديمة، لكنهم ربحوا أنفسهم. أما الذين عادوا إلى القفص، فلم يكونوا أقل ذكاءً، بل أقل استعدادًا لدفع ثمن الحرية.

◆ الحرية ليست أن تكسر باب القفص مرة، بل أن تقاوم الحنين إليه كل يوم. فالإنسان يشتاق أحيانًا إلى قيوده، لأنها تمنحه شعورًا قديمًا بالأمان. ولذلك كان أخطر سجان هو السجان الذي يجعل السجين يحب سجنه، ويخاف الخروج منه، ثم يقنعه بأن القضبان كانت دائمًا جزءًا من المشهد الطبيعي.

◆ هنا يتجلى الغباء في صورته الأكثر إنسانية. إنه ليس انتصارًا للشر، بل هزيمة للإرادة. وليس عجزًا عن المعرفة، بل تعبًا من مسؤوليتها. وليس رفضًا للحقيقة، بل هروبًا من الثمن الذي تفرضه. ومن يفهم هذا، يكف عن احتقار الغبي، ويبدأ في

الحذر من الغباء الكامن في نفسه.

◆ ومن هذه العتبة يبدأ السؤال التالي: إذا كان الإنسان يعود إلى القفص بإرادته، فمن الذي يصنع شكل القفص الأول؟ أهو الخوف؟ أم التربية؟ أم الجماعة؟ أم الطموح؟ أم أن الإنسان، في لحظة ما، يصبح هو البنّاء الذي يضع أول حجر في السجن الذي سيقضي عمره يحاول الهروب منه؟ هناك تبدأ الورقة التالية... حيث نعود إلى السؤال الأول، لكن من باب جديد.

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي» (25)

✳ الحجر الأول في السجن ✳

«الغبي لا يبني سجنه دفعة واحدة... بل يضع حجرًا صغيرًا كل يوم، ثم يندهش بعد سنوات أنه لم يعد يرى الأفق».

◆ لا تبدأ السجون الكبرى بجدار، بل بحجر. ولا تبدأ الهزائم العظيمة بمعركة، بل بتنازل صغير ظنه صاحبه بلا قيمة. تلك هي الحيلة التي يتسلل بها الغباء إلى حياة الإنسان. فهو لا يطلب منه أن يخون نفسه مرة واحدة، وإنما يقنعه أن يؤجلها قليلًا. لا يدعوه إلى بيع ضميره، بل إلى استعارته ليوم واحد. ثم يمر اليوم، ويأتي غد يشبهه، حتى يكتشف الإنسان، بعد زمن، أنه لم يعد يتذكر أين كان يقف قبل أن يضع الحجر الأول.

◆ ما من سجن بناه الإنسان لنفسه إلا وكان في بدايته يبدو عقلانيًا. فالسجين الأول لم يقل: سأحب القيود. قال: سأرتاح قليلًا. ولم يقل: سأترك حريتي. قال: سأؤجلها حتى تهدأ العاصفة. ولم يقل: سأصمت خوفًا. قال: ليس هذا هو الوقت المناسب للكلام. وهكذا لا يدخل الغباء من باب الشر، بل من باب التأجيل. إنه يؤجل الحقيقة حتى تموت، ويؤجل الاعتذار

حتى يفقد معناه، ويؤجل الشجاعة حتى تصبح ذكرى.

◆ أخطر ما في التنازل الأول أنه لا يغيّر الواقع كثيرًا، ولذلك يستهين به الإنسان. يظن أن خطوة صغيرة لن تبدل الطريق، وأن كلمة لم يقلها لن تغير تاريخه، وأن موقفًا واحدًا لا يستحق كل هذا القلق. لكنه ينسى أن التاريخ الشخصي لا يصنعه القرار الكبير وحده، بل تراكم القرارات الصغيرة التي لم يلتفت إليها أحد، حتى صاحبها.

◆ رأيت، في الحياة العامة، رجالًا لم يسقطوا لأنهم اتخذوا قرارًا كارثيًا، بل لأنهم اعتادوا القرارات المريحة. كل تنازل كان يبدو معقولًا إذا نُظر إليه وحده، لكن حين اجتمعت التنازلات، لم يبق من الرجل إلا اسمه. كان يحتفظ باللقب، ويخسر المعنى. يحتفظ بالمكان، ويضيع الطريق. حتى إذا التفت إلى الوراء، لم يعرف في أي لحظة تحديدًا غادر نفسه.

◆ والغريب أن الإنسان لا يتذكر عادةً الحجر الأول. يتذكر السجن، ولا يتذكر بدايته. يتذكر الانكسار، ولا يتذكر أول انحناءة. يتذكر النهاية، ولا يتذكر اللحظة التي قال فيها لنفسه: هذه المرة فقط. ولذلك يبدو الغباء، في الذاكرة، قدرًا، بينما هو في الحقيقة سلسلة طويلة من الاختيارات الصغيرة التي لم تبدُ خطيرة وقت وقوعها.

◆ ليس كل تنازل غباءً، فالحياة تقوم على التسويات، والعاقل يعرف أن المرونة فضيلة حين تخدم الحقيقة. لكن الفرق عظيم بين من يتنازل ليحفظ القيمة، ومن يتنازل حتى لا يدفع ثمنها. الأول يغير الوسيلة، أما الثاني فيغير نفسه. الأول يبقى سيد قراره، أما الثاني فيصبح أسير أول خطوة تنازل عنها بإرادته.

◆ لهذا لا يكون السؤال الحقيقي: لماذا سقط الإنسان؟ بل: لماذا لم ينتبه إلى الخطوة الأولى؟ لأن الغباء لا يحب القفزات الكبيرة، بل يحب التدرج. إنه يعرف أن النفس البشرية ترفض السقوط المفاجئ، لكنها تتسامح مع الانحدار البطيء. وكلما كان التغير أبطأ، قلّت مقاومة الضمير له، حتى يصبح المرفوض بالأمس مألوفًا اليوم، ثم ضروريًا غدًا.

◆ ومن هنا كانت المراجعة اليومية ضرورة أخلاقية قبل أن تكون ضرورة فكرية. أن يقف الإنسان كل مساء أمام نفسه، لا ليحصي انتصاراته، بل ليسأل: أي حجر وضعته اليوم في السجن الذي لا أراه؟ أي كلمة سكتُّ عنها خوفًا؟ أي حقيقة أجلت الاعتراف بها؟ أي مصلحة أقنعت نفسي بأنها مبدأ؟ فهذه الأسئلة الصغيرة هي التي تمنع الجدران من الارتفاع.

◆ الحكيم لا يختلف عن الغبي في أنه يخطئ، بل في أنه يلاحظ الحجر الأول. فإذا رآه، توقف قبل أن يكتمل الجدار. أما

الغبي، فيظل يبني بثقة، ثم يغضب من السجن بدل أن يغضب من يده التي حملت الحجارة.

◆ ومن هذه النقطة تعود الرحلة إلى بدايتها، ولكن على مستوى أعمق. فالإنسان لا يصنع سجنه مرة واحدة، ولا يهدمه مرة واحدة. إنه يبنيه عادةً بحسن نية، ويهدمه بشجاعة نادرة. وبين البناء والهدم، تدور الحكاية التي نسميها في هذا الكتاب: الغباء.

◆ ومن هنا تبدأ الورقة التالية، حيث لن نسأل: كيف بُني السجن؟ بل سنسأل السؤال الأصعب: لماذا يحب بعض الناس سجونهم إلى الحد الذي يقاتلون فيه كل من يحاول فتح الباب لهم؟



ورقة من كتاب «الغبي» (26)

✳السجين الذي يدافع عن سجنه✳

«الغبي لا يكره الحرية دائمًا... لكنه قد يكره الطريق إليها إذا كان ثمنها أن يعترف بأنه عاش عمره في القيد».

◆ ليس أعجب من السجن إلا السجين الذي يغضب ممن يحاول فتح بابه. تبدو الصورة، لأول وهلة، مستحيلة، لكنها تتكرر في حياة البشر أكثر مما نتخيل. فالإنسان لا يتعلق بالقيود لأنها جميلة، بل لأنها مألوفة. وما اعتادته النفس طويلًا يتحول، مع الزمن، إلى جزء من تعريفها لنفسها، حتى إذا جاء من يدعوها إلى الخروج، شعرت أنه لا يهدد القيد، بل يهددها هي.

◆ الحرية لا تخيف لأنها مجهولة فقط، بل لأنها عادلة. إنها لا تمنح الإنسان حق الاختيار فحسب، بل تلزمه أيضًا بتحمل نتائج اختياره. والسجن، مهما ضاق، يعفيه من هذا العبء. ففي الخارج لا يستطيع أن يعلق فشله على القضبان، ولا أن يحمل مسؤوليته للسجان، ولا أن يختبئ خلف الحكاية القديمة. ولذلك يبدو الخروج أصعب من البقاء، لا لأن الطريق

إلى الحرية مغلق، بل لأن الطريق إلى الذات مفتوح أكثر مما ينبغي.

◆ ما أكثر الذين عاشوا سنوات يشتكون من واقعهم، ثم قاوموا أول فرصة حقيقية لتغييره. لم يكونوا يكذبون في شكواهم، لكنهم كانوا قد رتبوا حياتهم حول ذلك الواقع. بنوا صداقاتهم، وخصوماتهم، وخطاباتهم، وصورتهم عن أنفسهم، داخل ذلك السجن. فإذا انهار، انهارت معه أشياء كثيرة كانوا يظنونها جزءًا من شخصياتهم، فإذا هي جزء من الجدار فقط.

◆ لا يختلف الأمر في السياسة عنه في الحياة الخاصة. قد تعتاد أمة خطابًا طويلًا عن العجز، حتى يصبح العجز عنصرًا من عناصر هويتها. وقد تعتاد جماعة دور الضحية، حتى تخاف اليوم الذي تسقط فيه ذريعة المظلومية، لأن عليها عندئذ أن تبدأ العمل. وقد يعتاد حزب دور المعارضة، فيصبح أقوى في الشكوى منه في البناء. هنا لا يكون السجن مكانًا، بل طريقة في رؤية العالم.

◆ ولقد رأيت، في مسيرة طويلة، أشخاصًا دافعوا عن القيود التي أرهقتهم، فقط لأنها كانت تمنحهم تفسيرًا جاهزًا لكل إخفاق. كانوا يخشون النجاح أحيانًا أكثر مما يخشون الفشل، لأن النجاح يسحب منهم آخر الأعذار. ومنذ تلك اللحظة أدركت أن الإنسان

قد يتمسك بما يؤذيه، إذا كان ذلك يؤجل لحظة المواجهة مع نفسه.

◆ الغبي لا يحب السجن لذاته، بل يحب الراحة التي يعده بها. فهو لا يضطر داخله إلى مراجعة يقين، ولا إلى إعادة كتابة رواية، ولا إلى الاعتذار، ولا إلى الاعتراف بأن السنوات الماضية كانت تحتاج إلى مراجعة. ولذلك يبدو القيد، في نظره، أقل كلفة من الحرية، والوهم أقل ألمًا من الحقيقة.

◆ وما أكثر الذين يقاتلون دفاعًا عن أقفاصهم وهم يظنون أنهم يقاتلون دفاعًا عن كرامتهم. يرفعون الشعارات نفسها، ويكررون العبارات نفسها، ويستدعون المخاوف نفسها، لأنهم لا يدافعون عن الحديد، بل عن الحياة التي ألفوها خلفه. وهنا يبلغ الغباء إحدى ذراه؛ أن يصبح الإنسان حارسًا لما سجنه.

◆ ليست المأساة أن يبقى الإنسان في سجنه، فلكل إنسان لحظات ضعف. المأساة أن يتحول إلى عدو لكل من يذكره بوجود الباب. فصاحب القيد قد يغفر لمن يسخر منه، لكنه لا يغفر بسهولة لمن يوقظه. لأن اليقظة تعني أن يرى الجدار كما هو، وأن يعترف بأنه كان يستطيع، في لحظة ما، أن يختار طريقًا آخر.

◆ لذلك لم يكن تحرير الإنسان يبدأ يوم يُكسر الباب، بل

يوم يقتنع أن الباب لم يكن مقدسًا. ففي اللحظة التي يسقط فيها الوهم عن الجدار، يصبح الجدار مجرد حجر، وتصبح القضبان مجرد معدن، ويكتشف السجين أن أكثر ما كان يقيده لم يكن الحديد، بل الفكرة التي أقنعته أن الحديد قدر.

◆ هنا ينكشف وجه جديد من وجوه الغباء: إنه لا يسجن الإنسان داخل مكان، بل داخل تفسير للمكان. فإذا تغير التفسير، بدأ التحرر قبل أن يتحرك الجسد خطوة واحدة. ومن هنا تبدأ الورقة التالية؛ إذ سنقترب من السؤال الذي يسبق كل السجون: كيف يصبح الوهم عادة، حتى يغدو الخروج منه أشق من الدخول إليه؟

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي» (27)

✳العادة عقل الغبي البديل✳

«الغبي لا يضل الطريق لأنه لا يعرفه... بل لأنه حفظه أكثر مما ينبغي».

◆ هناك رجل يمشي كل صباح في الطريق نفسه، بالخطوات نفسها، وبالانحناءة نفسها، وبالنظرة نفسها التي لا ترى شيئًا جديدًا، لأنها لم تعد تبحث عن شيء جديد. لا يلتفت إلى الأشجار التي تغير لونها، ولا إلى الوجوه التي عبرت ثم غابت، ولا إلى الحجارة التي تحركت من مكانها. لقد حفظ الطريق حتى لم يعد يمشي فيه، بل صار الطريق يمشي فيه. صار التكرار هو الدليل، والاعتياد هو البوصلة، والدائرة هي الوطن الصغير الذي يمنحه شعورًا كاذبًا بأنه لم يضل.

◆ ليس كل ضياع يبدأ في الصحراء. بعض الضياع يبدأ في طريق مألوف أكثر مما ينبغي. فالإنسان قد يضيع لا لأنه فقد العلامات، بل لأنه توقف عن قراءتها. يرى الباب ذاته كل يوم، فينسى أنه باب. يعبر النافذة ذاتها كل مساء، فينسى أن

وراءها هواء آخر. يكرر الجملة ذاتها حتى تفقد دهشتها، ثم يظن أنها صارت حقيقة لأنها لم تعد تزعجه.

◆ الوهم لا ينتصر دائمًا بقوة حجته، بل بطول إقامته. يبدأ ضيفًا مرتبكًا في العقل، ثم يطيل الجلوس، ثم يعتاد صاحب البيت وجوده، ثم يخصص له مقعدًا، ثم يدافع عنه إذا اقترب أحد من الباب. وما إن يتحول الوهم إلى عادة، حتى يكف عن الظهور بوصفه وهمًا. يصبح أثاثًا داخليًا، جزءًا من ترتيب الروح، شيئًا لا نسأله: من أين جئت؟ ولا لماذا بقيت؟ بل نغضب ممن يجرؤ على الإشارة إليه.

◆ هكذا يمشي الرجل في دائرته. لا يشعر بالدوران، لأن الدائرة الواسعة تشبه الطريق المستقيم لمن لا يرفع رأسه. كل يوم يعود إلى النقطة نفسها، لكنه يعود إليها محملًا بوهم التقدم. يقول لنفسه: لقد قطعت مسافة. ولا ينتبه إلى أن المسافة التي لا تغير موقعك ليست سفرًا، بل تمرين طويل على البقاء في المكان.

◆ في داخل كل إنسان طريق كهذا. طريق يعرف بدايته ونهايته، لكنه يصر على تسميته قدرًا. يختار الأشخاص بالطريقة نفسها، ثم يندهش من الخيبة نفسها. يصدق الوعود بالنبرة نفسها، ثم يخاصم العالم عندما تتكرر النتيجة نفسها. يغضب بالطريقة نفسها، يعتذر بالطريقة نفسها، يحب بالطريقة نفسها، يخاف

بالطريقة نفسها، ثم يتساءل ببراءة موجوعة: لماذا تتكرر حياتي؟

◆ لا تتكرر الحياة وحدها. نحن الذين نكرر الطريقة التي نستقبل بها الحياة. نذهب إلى الأيام بعين قديمة، فنعود منها بالنتيجة القديمة. نغير المدن، ولا نغير الخريطة الداخلية. نغير الوجوه، ولا نغير حاجتنا إلى التصديق السريع. نغير الخصوم، ولا نغير طريقتنا في صناعة الخصومة. نغير الشعارات، ولا نغير ذلك الخيط السري الذي يقودنا، كل مرة، إلى الحفرة نفسها.

◆ الغبي لا يحتاج دائمًا إلى من يخدعه. أحيانًا يكفي أن يترك نفسه لعادته. فالعادة مخادع قديم، لا يرفع صوته، ولا يلبس قناع الشر، ولا يطلب إذنًا للدخول. إنها تدخل هادئة، مثل غبار لا نراه وهو يتراكم على الرفوف، حتى يأتي يوم نكتشف فيه أن الأشياء لم تعد بلونها الأول، وأن الرؤية نفسها أصبحت مغطاة بطبقة رقيقة من الأمس.

◆ أخطر ما في العادة أنها تمنح صاحبها شعورًا بالأمان. والأمان، إذا لم يكن مبنيًا على وعي، قد يصبح أفخم أشكال السجن. فالإنسان لا يحب الدائرة لأنها جميلة، بل لأنها معروفة. يعرف أين يتألم، وأين يبرر، وأين يغضب، وأين يهرب. أما الطريق الجديد، ففيه إهانة صغيرة لكبريائه؛ لأنه يطلب منه أن يمشي بلا ذاكرة جاهزة، وأن يعترف بأن حفظ الطريق القديم لم

يكن حكمة، بل إقامة طويلة في الخطأ.

◆ ومن هنا تبدأ مقاومة الإنسان للنجاة. لا لأنه يحب الخسارة، بل لأنه يخاف الفراغ الذي سيتركه الخلاص. ماذا يفعل إذا لم يعد الضحية التي يحسن أداء دورها؟ ماذا يقول إذا لم يعد العالم كله متآمرًا عليه؟ أين يذهب بخطابه القديم إذا سقطت الأعذار التي كان يعلقه عليها؟ الحرية، في هذه اللحظة، لا تبدو بابًا مفتوحًا، بل تبدو سؤالًا كبيرًا لا يعرف كيف يجيبه.

◆ في السياسة، تمشي الأمم أحيانًا كما يمشي ذلك الرجل. تدور حول الشعارات ذاتها، وتظن أنها تتحرك لأنها تصرخ. تعيد الخطأ نفسه باسم الحكمة، وتستبدل الوجوه من غير أن تستبدل العقل الذي اختارها. تنقل الحجارة من طرف الساحة إلى طرفها الآخر، ثم تعلن أنها بنت بيتًا جديدًا. وما أكثر الدول التي لا ينقصها الطريق، بل ينقصها الاعتراف بأنها تدور.

◆ وفي الجماعات المغلقة، تصبح الدائرة عقيدة. لا يعود السؤال مطلوبًا، لأن الإجابة محفوظة قبل أن يولد السؤال. ولا يعود الاختلاف بحثًا عن ضوء، بل خيانة لترتيب الظلام. يتعلم الأتباع أن يكرروا لا أن يفكروا، وأن يحفظوا لا أن يكتشفوا، وأن يقيسوا صدق الفكرة بعدد الذين يرددونها، لا بقدرتها على احتمال الامتحان.

◆ أما الفرد، فيحمل جماعته الصغيرة داخله. يحمل أصواتًا قديمة قالت له من يكون، وماذا يخاف، ومن يكره، وأي باب لا ينبغي أن يفتحه. وقد يظن أنه حر لأنه يمشي وحده، بينما يسير في داخله موكب كامل من الورثة والحراس والوعاظ والمصفقين والمهزومين. لهذا قد يكون الإنسان أكثر ازدحامًا وهو منفرد، وأكثر أسرًا وهو يظن أنه يختار.

◆ ليست المشكلة أن تكون لنا عادات. من دون العادات لا تستقر الحياة. لكن الكارثة أن تتحول العادة إلى عقل بديل. أن نفكر كما اعتدنا لا كما يجب. أن نرفض الفكرة لأنها جديدة لا لأنها خاطئة. أن نعود إلى القفص لا لأنه أصلح من الفضاء، بل لأن مفاتيحه مألوفة في أيدينا. هناك تبدأ العادة في سرقة الإنسان من نفسه، لا بضربة واحدة، بل بنعومة لص يعرف أين يضع قدمه.

◆ لذلك، لا يبدأ التحرر دائمًا بقرار عظيم. أحيانًا يبدأ بانتباه صغير. أن يسأل الإنسان نفسه وهو يكرر الجملة القديمة: هل أقول هذا لأنني أؤمن به، أم لأنني تعودت عليه؟ أن يقف عند غضبه ويسأله: هل أنت غضب حقيقي، أم دفاع قديم عن وهم قديم؟ أن يلمح الطريق الذي يمشيه كل يوم، ثم يكتشف، للمرة الأولى، أنه لا يؤدي إلى مكان.

◆ واليقظة هنا مؤلمة، لأنها لا تكشف الخطأ وحده، بل تكشف عدد السنوات التي عشناها ونحن نسمي الخطأ تجربة، والدوار سفرًا، والتكرار وفاءً، والخوف حكمة. هذه هي اللحظة التي يتهرب منها الغبي؛ ليس لأنه لا يعرف الحقيقة، بل لأنه يعرف أنها ستطلب منه أن يخلع حذاءه القديم، وأن يمشي على أرض لم يحفظ خشونتها بعد.

◆ ومع ذلك، لا نجاة إلا من هنا. من النقطة التي يكتشف فيها الإنسان أنه لم يكن محكومًا بالطريق، بل معتادًا عليه. وأن الدائرة لا تتكسر بالسرعة، بل بالانحراف الشجاع عن الخط المألوف. خطوة واحدة خارج التكرار قد تكون أصدق من عمر كامل داخل حركة لا تصل.

◆ الرجل الذي يسير في الدائرة لا يحتاج إلى من يدله على آخر الطريق. يحتاج أولًا إلى من يوقظه إلى شكل الطريق. فإذا رأى الدائرة، بدأ الخلاص. لأن الوهم لا يموت عندما نهاجمه، بل عندما نراه بوضوح. والعادة لا تنكسر عندما نكرهها، بل عندما نتوقف عن اعتبارها طبيعة ثانية لا تقبل السؤال.

◆ هنا فقط يفهم الإنسان أن بعض ما سماه شخصية لم يكن إلا تكرارًا طويلًا. وأن بعض ما سماه وفاءً لم يكن إلا خوفًا من التغيير. وأن بعض ما سماه حكمة لم يكن إلا تعبًا من

التجربة. وعند هذه العتبة، لا يصبح السؤال: كيف أخرج من الدائرة؟ بل: من أكون إذا خرجت منها؟

◆ ومن هذا السؤال تولد الورقة التالية. لأن الإنسان، بعد أن يرى دائرته، لا يواجه الطريق الجديد فحسب، بل يواجه الحقيقة التي انتظرته طويلًا خلف الباب: لماذا نخاف الحقيقة حتى وهي الطريق الوحيد إلى الخلاص؟

✣✦❖✧

مقدمة

الفصل الثالث

لماذا «الغبي»؟

هذا الفصل من الكتاب، ليس قدحًا في إنسان، ولا مديحًا لإنسان، ولا تمرينًا لغويًا على وصف البشر.

إنه محاولة محفوفة باحتمال الفشل، لكنها جديرة بالمحاولة؛

محاوله أن يتحول عنوانٌ مستفز إلى فكرة، وأن تتحول الفكرة إلى وعي، والوعي إلى سلوك، والسلوك إلى خلق، والخلق إلى ثقافة، لعلها تترك في الغد أثرًا أقل ضجيجًا... وأكثر بقاءً.

لا أعرف إن كنت سأبلغ هذه الغاية، لكنني أعرف أن ما تبقى من العمر لا يحتمل تأجيل ما أؤمن أنه يستحق أن يُقال. لذلك لا أكتب هذه الصفحات بحثًا عن انتصارٍ في جدل، ولا عن شهرةٍ في سوق الأفكار، بل اجتهادًا لإنسان قرأ الحياة قبل أن يقرأ الكتب، وعاشر السياسة والإعلام والناس أكثر من ستة عقود، حتى أدرك أن أكثر معارك الإنسان ضجيجًا ليست تلك التي يخوضها مع الآخرين، بل تلك التي يخوضها، كل يوم، مع نفسه.

هذا الكتاب لا يزن الناس بميزان الفضيلة وحدها، ولا بميزان الذكاء وحده، بل بميزان العقل حين يصدق، والضمير حين

يستيقظ، والشجاعة حين تملك أن تراجع نفسها. فكم من ذكي أضاعه وهمٌ أحبه، وكم من بسيط أنقذه صدقٌ لم يتخلَّ عنه.

◆ يا قارئ كتابي...

لا تقرأ هذه الأوراق لتبحث عن وجوه الآخرين، بل لتفتش عن وجهك بين السطور. فكل ورقة هنا كُتبت لتضيف إليَّ وإليك فهمًا، وتوسع فينا أفقًا، وتوقظ سؤالًا، وتجعل الإنسان يرى نفسه، ويرى العالم، بوضوحٍ أشد، ورحمةٍ أعمق، وصدقٍ أقل خوفًا.

◆ وما قيمة الكلمات إذا لم توقظ ضميرًا؟ وما قيمة الأفكار إذا لم تُهذب خلقًا؟ وما قيمة المعرفة إذا لم تجعل الإنسان أكثر إنصافًا مع نفسه، وأرحم بغيره، وأحكم في اختياراته، وأنفع لوطنه وللإنسانية؟

فإذا كانت معرفة النفس أول الطريق...

وكان فهم الإنسان هو البوصلة...

وكان الضمير آخر الحراس...

فإن غياب الحارس، واضطراب البوصلة، وانتصار الوهم على الحقيقة...

هو ما أسميته في هذا الكتاب...

«الغبي».

ورقة من كتاب «الغبي» (28)

✳️ الغبي.. الإنسان الذي يستبدل مشقة الفهم براحة أول تفسير ✳️

«الغباء ليس نقصًا في القدرة على التفكير... بل استعجال الركون إلى أول تفسير يريح العقل».

🚥 ربما أكون كتبت سطورًا من هذه الورقة في ذكرى السابع من أكتوبر، وبعضًا آخر من سطورها سجلته في أيام متعددة، مترددًا في نشره، وأنا أشاهد وأتابع الخطاب السياسي الرسمي، والمعارض، وكذلك الصحافة والإعلام المصري، المعارض منه والموالي 🚥 .

🔸 كل يوم من تلك الأيام زاد يقيني أن الله تعالى لم يخلق العقل ليجمع المعلومات، بل ليمنح الإنسان القدرة على أن يرى ما وراءها. غير أن أكثر ما يرهق العقل ليس التفكير، بل استمرار التفكير. فالفهم الحقيقي لا يأتي دفعة واحدة، ولا يولد كاملًا، ولا يهبط على الإنسان كما تهبط الإجابات الجاهزة. إنه يتشكل ببطء، ويكتمل بالتردد الشريف، ويزداد صفاءً كلما احتمل

صاحبه مشقة السير قبل أن يعلن الوصول.

◆ لكن النفس البشرية لا تحب الإقامة الطويلة في مناطق الغموض. إنها تميل، بطبيعتها، إلى السكينة، وتبحث عن أول معنى يجمع شتات الوقائع، وأول رواية تبدد ارتباكها، وأول تفسير يعيد إليها إحساسها بالأمان. وهنا، تحديدًا، يبدأ أحد أكثر وجوه الغباء خفاءً؛ أن يخلط الإنسان بين الطمأنينة والحقيقة، فيظن أن ما أراحه هو، بالضرورة، ما يفسر العالم كما هو.

◆ ما أكثر الأفكار التي انتصرت لأنها جاءت أولًا، لا لأنها كانت أصح. وما أكثر الأحكام التي استقرت في النفوس لأنها سبقت غيرها، لا لأنها نجحت في امتحان العقل. فالتفسير الأول يشبه الضيف الذي يدخل البيت قبل الجميع، ثم يطيل الإقامة حتى يظنه أصحاب الدار واحدًا من أهلها. وبعد سنوات، يصبح إخراجه أصعب من استقباله، لأن وجوده لم يعد مجرد رأي، بل صار جزءًا من ترتيب المكان.

◆ الإنسان لا يتعلق بالتفسير الأول لأنه يثق فيه دائمًا، بل لأنه يستريح إليه. فالراحة من أقدم غرائز العقل، والعقل، إذا تُرك لطبيعته وحدها، يميل إلى اختصار الطريق، وإلى الاكتفاء بما يبدو كافيًا، وإلى تجنب الرحلة الطويلة التي تفرضها الحقيقة. ومن هنا لا يكون الغباء غيابًا للفكر، بل توقفًا مبكرًا عنه.

◆ تأملت هذه الظاهرة طويلًا، في الناس كما في السياسة، وفي الصحافة كما في الحياة الخاصة. ووجدت أن أكثر الأخطاء رسوخًا لم تكن ثمرة سوء نية، بل ثمرة استعجال. تقرير واحد، أو شهادة واحدة، أو انطباع أول، كان يكفي أحيانًا لبناء مواقف بقي أصحابها يدافعون عنها سنوات، حتى بعد أن تغير الواقع كله. لم يكن ينقصهم الذكاء، بل كانت تنقصهم شجاعة أن يقولوا: ربما لم أر الصورة كاملة.

◆ ولقد تعلمت، بعد أكثر من أربعة عقود بين الصحافة والإعلام والعمل العام، أن الحقيقة لا تضيع غالبًا لأن الناس كذبوها، بل لأنها وصلت متأخرة عن أول تفسير. فالأول يحتل العقل، والثانية تضطر إلى أن تطلب الإذن بالدخول. وما أكثر العقول التي رفضت الحقيقة، لا لأنها أقوى من الوهم، بل لأن الوهم سبقها إلى الداخل.

◆ ليست المشكلة في أن يخطئ الإنسان في فهم حادثة، أو موقف، أو إنسان، فذلك قدر كل عقل يعمل. المشكلة تبدأ عندما يتحول التفسير الأول إلى سلطة، ثم إلى عادة، ثم إلى هوية، فيصبح العقل حارسًا له بدلًا من أن يكون قاضيًا عليه. عندئذ لا يعود الإنسان يراجع ما اعتقده، بل يراجع كل ما يخالفه، حتى يغدو البرهان نفسه متهمًا لأنه جاء متأخرًا.

◆ من هنا، كثيرًا ما بدا لي أن الغباء لا يختار الكذب، بل يختار الطريق الأقصر. إنه يشبه مسافرًا لمح أول محطة، فنزل فيها مطمئنًا، وأقنع نفسه أن الرحلة انتهت. لم يكن عاجزًا عن مواصلة السير، لكنه تعب من احتمالات الطريق، فاستبدل مشقة الوصول براحة التوقف.

◆ غير أن الوجه الآخر لا يقل خطورة. فهناك من يطيل الوقوف عند كل محطة، لا حبًا في الحقيقة، بل خوفًا من القرار. وهؤلاء أيضًا لا يصلون. فالحكمة ليست في أن يبقى الإنسان أسير الاحتمالات، كما أنها ليست في أن يهرب منها. الحكمة أن يمنح الفهم الزمن الذي يحتاج إليه، ثم يمتلك شجاعة أن يتحمل مسؤولية ما انتهى إليه.

◆ لذلك لم أعد أرى الفارق بين النضج والغرور في مقدار ما يعرفه الإنسان، بل في طريقته أمام ما لم يعرفه بعد. هناك عقل يفتش لأنه عاشق للحقيقة، وهناك عقل يفتش لأنه يخشى أن يحسم أمره. الأول يخرج من رحلته أكثر صفاءً، والثاني يخرج أكثر إنهاكًا. الأول يجعل التفكير طريقًا إلى النور، والثاني يحوله إلى وسيلة لتأجيل الحياة.

◆ وما أكثر الذين يظنون أن اليقين علامة قوة، بينما علمتني الحياة أن اليقين المبكر قد يكون، في أحيان كثيرة،

علامة كسل عقلي. فالذي يرى العالم بسيطًا إلى هذا الحد، ربما لم يمكث أمامه طويلًا. أما الذي أدرك اتساعه، فإنه يعرف أن كل فكرة عظيمة تحمل في داخلها مساحة للمراجعة، وأن كل حكم صادق يحتاج إلى قدر من التواضع، وأن الحقيقة لا تضيق بمن يعيد النظر فيها، بل تضيق بمن يتصور أنه امتلكها كاملة.

◆ لم أعد أقيس الذكاء بعدد الأجوبة التي يحملها الإنسان، بل بعدد المرات التي امتلك فيها شجاعة أن يهدم جوابًا قديمًا لأنه لم يعد يليق بالحقيقة. فالعقول الصغيرة تحب اليقين لأنه يريحها، أما العقول الكبيرة فتحب الفهم لأنه يحررها. الأولى تبحث عن نهاية للنقاش، والثانية تبحث عن بداية جديدة للفهم.

◆ ومن أوهام عصرنا الكبرى أن السرعة أصبحت فضيلة في كل شيء. نريد رأيًا قبل اكتمال الصورة، وموقفًا قبل اكتمال الوقائع، وحكمًا قبل اكتمال الفهم. حتى صار التريث تهمة، والمراجعة ضعفًا، والاعتراف بأن الصورة لم تكتمل بعد علامة ارتباك. وهكذا دخل الغباء حياتنا مرتديًا ثوب الكفاءة، بينما كان، في جوهره، استعجالًا مهذبًا للخطأ.

◆ ليست الدعوة هنا إلى التردد، ولا إلى تحويل الحياة إلى انتظار لا ينتهي. فالأمم لا تُبنى بالشك وحده، كما أن الأفراد لا يعيشون وهم يؤجلون كل قرار. لكن القرار الناضج يولد بعد أن

يؤدي العقل أمانته كاملة، لا بعد أن يتعب منها. يولد عندما ينتهي الإنسان من الإصغاء إلى الوقائع، لا عندما يمل منها. يولد حين يصبح الفعل مسؤولية، لا مهربًا.

◆ وربما كانت الحكمة كلها كامنة في هذا التوازن الدقيق؛ ألا نستبدل مشقة الفهم براحة أول تفسير، وألا نستبدل شجاعة القرار براحة التفكير الذي لا ينتهي. فالحقيقة لا تكافئ المستعجل، ولا تنتظر المتردد إلى الأبد، وإنما تقترب ممن يمنحها الوقت الذي تستحقه، ثم يملك، بعد ذلك، شجاعة أن يمضي.

◆ الغبي لا يهلك لأنه لا يفكر، بل لأنه يستريح قبل أن يكتمل الفهم. يقف عند أول تفسير، ويبني فوقه يقينًا، ثم يدافع عنه كما لو كان يدافع عن حياته، بينما هو، في الحقيقة، يدافع عن راحته. ومن هنا تبدأ أكثر المآسي هدوءًا؛ حين يتحول التفسير إلى عقيدة، والعادة إلى عقل، والطمأنينة إلى سجن لا يرى صاحبه جدرانه.

◆ وما أكثر الذين اكتشفوا، بعد أعوام طويلة، أن الحقيقة كانت تمر بجوارهم كل يوم، لكنهم لم يروها، لأنهم نزلوا في أول محطة، وسموا التوقف وصولًا.

◆ ليست المشكلة، في تقديري المتواضع ووفقًا لفهمي، أن الإنسان يخطئ في التفسير، فذلك جزء من طبيعته، وإنما أن

يقع في حب تفسيره الأول. فالخطأ العابر يمكن أن تصححه الأيام، أما الحب فيمنح الخطأ جذورًا. ومن أحب تفسيرًا، لم يعد يناقشه، بل صار يحرسه. يوقظه كل صباح، ويطعمه من الوقائع ما يبقيه حيًا، ويحجب عنه كل حقيقة قد تزعجه. وهكذا لا يعود التفسير وسيلة لفهم العالم، بل يصبح العالم كله وسيلة لحماية التفسير.

◆ ولعل أكثر ما يلفت الانتباه أن العقل لا يزور الحقيقة في هذه المرحلة، بل يعيد ترتيبها. يحتفظ بما يخدم الرواية، ويضعف ما يناقضها، ويضيء زاوية، ويترك أخرى في الظل، حتى يبدو المشهد منسجمًا مع ما يريد أن يراه. ومن هنا يبدأ أخطر أنواع الغباء؛ الغباء الذي لا يكذب، لكنه لا يقول الحقيقة كاملة.

◆ كل وهم كبير بدأ بتفسير صغير لم يراجعه صاحبه. وكل تعصب بدأ بانطباع لم يخضع للاختبار. وكل خصومة طويلة بدأت بجملة لم يمنحها الإنسان فرصة ثانية. إن المآسي الكبرى لا تنشأ دائمًا من الأكاذيب الكبرى، بل من الحقائق الناقصة التي توقف أصحابها عندها، ثم رفضوا أن يكملوا الطريق.

◆ تأملت طويلًا في الذين غيروا العالم، فوجدت أن القاسم المشترك بينهم لم يكن الذكاء وحده، بل قدرتهم على احتمال

القلق. كانوا يفضلون حيرة صادقة على يقين زائف، ويحتملون بطء الفهم على سرعة الحكم. لم يكن ذلك ترفًا فكريًا، بل انضباطًا أخلاقيًا؛ لأن الإنسان الذي يحترم الحقيقة، يحترم الزمن الذي تحتاج إليه كي تتكشف.

◆ وفي المقابل، رأيت من خسروا أنفسهم لأنهم أحبوا الراحة أكثر من الفهم. لم يكونوا أقل موهبة، ولا أقل ثقافة، لكنهم كانوا أسرع إلى إعلان النهاية. كانوا يريدون للعالم أن يكون بسيطًا، وللناس أن يكونوا واضحين، وللوقائع أن تنحاز فورًا إلى ما يحبون. وما إن استعصى عليهم الواقع، حتى اتهموا الواقع، لا تفسيرهم له.

◆ السياسة تقدم كل يوم أمثلة مؤلمة على ذلك. تقرير واحد يتحول إلى سياسة كاملة، وخبر عاجل يتحول إلى موقف دائم، وانطباع أول يصبح عقيدة لا تجوز مراجعتها. ثم تمضي السنوات، وتتبدل الوقائع، ويبقى التفسير القديم جالسًا في صدر القرار، كأنه لم يسمع أن العالم تغير من حوله.

◆ والإعلام، في صورته الرديئة، لا يبيع الأخبار بقدر ما يبيع التفسيرات السريعة. يعرف أن العقل المرهق يحب الجواب الجاهز أكثر مما يحب الحقيقة المعقدة، فيقدم له العالم في عناوين قصيرة، وأحكام نهائية، وانفعالات مكتملة، حتى ينسى

الإنسان أن الحياة، في حقيقتها، أكبر من أن تختصر في عنوان، وأعمق من أن تُفهم في دقيقة.

◆ حتى في العلاقات الإنسانية، لا نظلم بعضنا لأننا أشرار دائمًا، بل لأننا نتعجل التفسير. نرى صمتًا فنحمله على الكراهية، ونرى انشغالًا فنفسره بالإهمال، ونسمع كلمة فنبني عليها تاريخًا كاملًا. ولو منحنا الحقيقة قليلًا من الوقت، لاكتشفنا أن كثيرًا من الجراح لم تكن سوى أبناء شرعيين لأول تفسير خاطئ.

◆ لذلك، لم أعد أخاف على الإنسان من قلة المعرفة، بقدر خوفي عليه من كثرة الثقة في معرفته الأولى. فالعقل الذي يراجع نفسه يبقى حيًا، حتى وهو يخطئ. أما العقل الذي يقدس انطباعه الأول، فإنه يبدأ في بناء سجنه بيده، ثم يقضي ما بقي من عمره يزين جدرانه، ويقنع نفسه أن القضبان كانت نوافذ.

◆ وليس المطلوب من الإنسان أن يعيش في حيرة دائمة، فالحياة لا تُدار بالتردد، كما أنها لا تُدار باليقين الأعمى. المطلوب فقط أن يمنح الحقيقة حقها من الإنصات، وأن يمنح نفسه شرف المراجعة كلما دعت الحاجة. فالاعتراف بأن التفسير الأول لم يكن كافيًا، ليس هزيمة للعقل، بل أول انتصار له.

◆ وربما كانت أكثر الجمل تواضعًا هي أكثرها حكمة: «لعلني لم أفهم الأمر كله بعد». هذه العبارة لا تنتقص من

صاحبها، بل تحرره من استبداد اليقين المبكر، وتعيد إليه حقه في أن يتعلم، وأن يتغير، وأن يقترب من الحقيقة دون أن يدعي امتلاكها.

◆ ومن هنا يبدأ الوجه التالي من وجوه الغباء. فبعد أن يكتفي الإنسان بأول تفسير، لا يلبث أن يقع في وهم أشد خطرًا: أن يظن أن كل من خالف تفسيره قد خالف الحقيقة نفسها. وهناك، عند هذا الحد الفاصل بين الرأي والحقيقة، يبدأ فصل جديد من حكاية الإنسان مع أوهامه.

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي» (29)

✳الشاهد الذي لا نغفر له✳

«الغبي لا يكره من يكذب عليه... بل يكره من يحرمه من الكذبة التي أحب أن يعيش داخلها».

◆ يحمل كل إنسان، في موضع خفي من روحه، اسمًا لا يحب أن يستدعيه كثيرًا. ليس لأنه اسم خصم، ولا لأنه ارتبط بإساءة أو منافسة، بل لأنه اسم إنسان رآه، ذات يوم، كما هو. هناك بشر لا يملكون سلطة، ولا يرفعون أصواتهم، ولا يسعون إلى هدم أحد، لكن حضورهم وحده يربكنا؛ لأنهم يشبهون مرايا تمشي على قدمين. لا يضيفون إلى وجوهنا شيئًا، ولا ينتقصون منها شيئًا، لكنهم يسلبون الوهم امتيازه الأكبر: أن يبقى مستورًا. ولذلك يبدو وجودهم ثقيلًا على النفس التي تعودت أن ترى نفسها من خلال الرواية التي ألفتها عن ذاتها، لا من خلال الوجه الذي لم تجرؤ يومًا على تأمله طويلًا.

◆ الخصومة مع هؤلاء لا تبدأ من الخارج، بل من الداخل. فقبل أن يغضب الإنسان من الشاهد، يكون قد غضب من نفسه

دون أن يعترف. ليست الحقيقة مؤلمة لأنها قاسية، بل لأنها تصل إلى المكان الذي ظل الوهم يحرسه سنوات طويلة. ولهذا يبدو حاملها، في عين الغبي، كأنه مصدر الألم، مع أنه لم يفعل أكثر من أن أزاح الستار عن جرح كان قائمًا قبل أن يراه أحد.

◆ الحقيقة، في جوهرها، لا تنتقم ولا تجامل. إنها تفعل شيئًا واحدًا فقط: تزيح الستار. غير أن النفس البشرية لا تستقبل رفع الستار بالطريقة نفسها. فهناك من يراه بداية خلاص، وهناك من يراه بداية انهيار؛ لأن الحقيقة لا تكشف الخطأ وحده، بل تكشف أيضًا السنوات التي عاشها الإنسان وهو يحرسه، ويبرره، ويبني فوقه رواية كاملة، حتى صار الخطأ جزءًا من تعريفه لنفسه.

◆ من هنا يبدأ أحد أكثر وجوه الغباء خفاءً. فالإنسان لا يخاصم الحقيقة لأنها هزمته، بل لأنها جاءت قبل أن يفرغ من الدفاع عن نفسه. لم يكن مستعدًا بعد لأن يعيد كتابة تاريخه، أو يعترف بأن عمرًا كاملًا ربما احتاج إلى مراجعة. لذلك يبحث، في عجلة المرتبك، عن أقصر طريق للنجاة: أن يجعل الشاهد هو القضية، بدلًا من أن يواجه القضية نفسها.

◆ تعلمت، عبر أكثر من أربعة عقود بين الصحافة والسياسة والإعلام، أن الناس لا يثورون دائمًا على من يسيء إليهم، بل كثيرًا ما يثورون على من يصفهم بدقة. فالإساءة قد

تُرد، أما الوصف الدقيق فلا يترك للنفس مساحة واسعة تختبئ فيها. ورأيت رجالًا دفعوا ثمن كلمة صادقة أكثر مما دفع آخرون ثمن أخطاء جسيمة؛ لأن الخطأ يمكن تبريره، أما الحقيقة الدقيقة فقلما تترك لصاحبها عذرًا ينام عليه مرتاحًا.

◆ وأذكر واقعة لم تغادر ذاكرتي، لا لأنها تتعلق بأشخاص، بل لأنها كشفت لي آلية من أعمق آليات النفس الإنسانية. كُتب تعليق ساخر في سياق سياسي، وأُريد له أن يكون دعابة عابرة، فإذا بمن وُجه إليه يتلقاه بوصفه شهادة حقيقية، ثم راح يردده في لقاءاته بفخر، كأنه وثيقة إنصاف طال انتظارها. وعندما عاتبت صاحب التعليق، أجابني ضاحكًا: «يبدو أنك فقدت روح الدعابة». يومها أدركت أن أخطر ما يفعله الوهم ليس أنه يخدع الإنسان، بل أنه ينتقي، من بين آلاف الأصوات، الصوت الوحيد الذي يبارك الرواية التي أحب أن يعيش داخلها، ثم يحوله إلى حقيقة لا يجرؤ بعد ذلك على مراجعتها.

◆ منذ تلك اللحظة تبدلت نظرتي إلى كثير من الخصومات. لم أعد أراها صراعًا بين حق وباطل فحسب، بل بين إنسان يريد أن يحافظ على الصورة التي صنعها لنفسه، وآخر جاء، من غير قصد، ليخبره أن اللوحة لم تكتمل، وأن بعض ألوانها ليست ألوان الحقيقة، بل ألوان الرغبة والخوف

والحنين إلى وهم قديم. وما أقسى أن يكتشف المرء أن أكثر ما دافع عنه لم يكن الحقيقة، بل الصورة التي أحب أن يراها الناس فيه.

◆ لا يكره الإنسان الشاهد لأنه كشف الحقيقة، بل لأنه انتزع منه آخر الأعذار الممكنة. فما دام الشاهد غائبًا، يستطيع أن يقول: لم أكن أعلم، أو لعلني أسأت الفهم، أو ربما كانت الوقائع مختلفة. أما إذا حضر الشاهد، وانكشفت الصورة، وسقطت الحجة، لم يبق إلا طريقان؛ أن يعترف، أو أن يحاكم الشاهد بدلًا من أن يحاكم نفسه. وهنا يبلغ الغباء إحدى ذراه، لأنه لا يعود جهلًا بالحقيقة، بل يصبح مقاومة واعية لها، وإصرارًا على أن تبقى الرواية أقوى من الواقع.

◆ ليست المعضلة أن الإنسان يحب نفسه، فذلك من طبائع البشر، وإنما المعضلة أن يحب الرواية التي كتبها عن نفسه أكثر من نفسه الحقيقية. فمنذ تلك اللحظة لا يعود مستعدًا لتعديلها، لأن كل تعديل يبدو له اقتطاعًا من وجوده، لا تصحيحًا لمساره. ولذلك لا يدافع عن فكرة، ولا عن موقف، ولا عن تاريخ، بقدر ما يدافع عن الشخصية التي أقامها في داخله، وعن البطل الذي تعب في نحته، حتى صار يخشى أن يلمسه أحد، ولو بقليل من الحقيقة.

◆ ولعل هذا هو السر الذي يجعل كثيرين يغفرون لمن خدعهم، ولا يغفرون لمن أيقظهم. فالمخادع يترك الرواية على حالها، وربما زادها بريقًا، أما الشاهد الصادق فيجبر الإنسان على أن يعيد كتابتها من الصفحة الأولى. وما أقسى أن يكتشف المرء، بعد سنوات من الدفاع المستميت، أن المعركة كلها كانت تدور حول وهم، وأن العمر الذي أنفقه في حماية صورته كان يمكن أن ينفقه في بناء نفسه.

◆ من هنا، لا يعود الشاهد شاهدًا على واقعة، بل يصبح شاهدًا على الإنسان نفسه. وتتغير طبيعة الخصومة تغيرًا كاملًا. لم تعد خصومة بين شخصين، بل بين الضمير والكبرياء. الضمير يقول: أنصت، فربما كانت الحقيقة أقرب مما تظن. والكبرياء يقول: قاوم، فالتراجع هزيمة. الضمير يدعو إلى المراجعة، والكبرياء يدعو إلى المرافعة. وما أكثر الذين خرجوا من كل معركة منتصرين أمام الناس، لكنهم عادوا إلى بيوتهم مهزومين أمام أنفسهم، لأنهم ربحوا المرافعة، وخسروا المراجعة.

◆ تأملت طويلًا في الذين امتلكوا شجاعة الاعتراف، فاكتشفت أنهم ليسوا أقل الناس خطأ، بل أقلهم تعلقًا بصورتهم. إنهم لا يخشون أن تتشقق المرآة، لأنهم لا يسكنون فيها. يعرفون أن الإنسان أكبر من رأي قاله، وأوسع من موقف اتخذه، وأعمق

من مرحلة عبرها. ولذلك يستطيعون أن يقولوا: أخطأنا، دون أن يشعروا أن العالم قد انهار فوق رؤوسهم. فهم لا يرون الاعتراف سقوطًا، بل بداية ولادة جديدة.

◆ أما الغبي، فلا يستطيع أن يقولها بسهولة؛ لأن كلمة واحدة مثل «أخطأت» لا تهدم عنده موقفًا، بل تهدم البناء كله. ولهذا يقضي سنوات طويلة في ترميم الجدار، بدلًا من أن يسأل نفسه: ولماذا لا أبني بيتًا جديدًا؟ وهنا يتحول الذكاء نفسه إلى خادم للوهم. يستدعي الحجج، ويعيد ترتيب الوقائع، ويبدل أسماء الأشياء، حتى يبدو الخطأ رأيًا، والوهم اجتهادًا، والتراجع خيانة، والاعتذار ضعفًا، ويصبح العقل، الذي خُلق ليقود الإنسان إلى الحقيقة، حارسًا أمينًا على سجنه.

◆ ولقد رأيت، في مسيرة الحياة، أن الحقيقة لا تُهزم غالبًا، لكنها قد تُؤجل. يؤجلها الخوف، ويؤجلها التصفيق، وتؤجلها المصلحة، ويؤجلها الكبرياء، لكنها لا تتوقف عن عملها الهادئ. إنها تشبه الماء الذي لا يخاصم الصخر، ولا يرفعه عن مكانه، بل يظل ينحته بصبر لا يمل، حتى يكتشف الصخر نفسه، بعد زمن طويل، أنه لم يعد كما كان. وهكذا تفعل الحقيقة بالإنسان؛ لا تقتحمه دفعة واحدة، بل تظل تحاصره من كل الجهات، حتى إذا تعب من مقاومة نفسه، دخلت إليه من الباب الذي ظل يظن أنه أحكم إغلاقه.

◆ وما إن تمر السنوات، حتى يكتشف الذين حاربوا الشاهد أن الزمن نفسه صار شاهدًا عليهم. وأن الكلمة التي ضحكوا منها يومًا، أصبحت بعد أعوام جزءًا من الوعي العام. وأن الرجل الذي اتهموه بالمبالغة لم يكن إلا سابقًا لهم بخطوة في الطريق. عندها لا تتغير الحقيقة، بل يتغير الإنسان. ولا يتبدل الواقع، بل تتبدل المسافة التي كانت تفصله عنه. وما أقسى أن يصل المرء إلى الحقيقة بعد أن يدفع ثمنًا كان يمكن أن يوفره لو امتلك شجاعة الإصغاء إليها في أول الطريق.

◆ هنا فقط يتغير معنى الهزيمة. ليست الهزيمة أن تخسر معركة مع خصم، بل أن تخسر سنوات من عمرك لأنك رفضت أن تصغي إلى شاهد واحد. وما أكثر الذين لم يهزمهم أعداؤهم، بل هزمهم إصرارهم على ألا يعترفوا بأن خصومهم قالوا، مرة واحدة، كلمة تستحق أن تُسمع. فالإنسان قد ينتصر في الجدل، لكنه يخسر الحقيقة، وقد يربح التصفيق، لكنه يخسر نفسه، وليس في حياة العقل خسارة أفدح من هذه.

◆ عبر التاريخ، لم يكن الشهود أقلية لأن الحقيقة نادرة، بل لأن ثمنها كان دائمًا مرتفعًا. فالحقيقة لا تطلب من حاملها البلاغة وحدها، بل تطلب منه أن يحتمل سوء الفهم، وأن يقبل الوحدة، وأن يرى التصفيق يذهب إلى غيره، ثم يمضي في طريقه

مطمئنًا إلى أن الزمن، وإن تأخر، لا ينسى من شهد له بالصدق. ولذلك عاش كثير من أصحاب البصيرة غرباء في زمنهم، ثم عاد الزمن نفسه ليمنحهم المكانة التي بخل بها عليهم معاصروهم.

◆ وليس المقصود بالشاهد شخصًا بعينه، فقد يكون كتابًا وقع بين يديك في اللحظة التي كنت تحتاجه فيها، أو تجربة كسرت يقينًا قديمًا، أو خسارة علمتك ما عجزت عنه سنوات النجاح، أو طفلًا نطق بكلمة لم يجرؤ الكبار على النطق بها. الشاهد هو كل ما يضع الحقيقة أمامك مجردة، ثم يترك لك الحرية كاملة؛ أن تعيش معها، أو أن تعود إلى الوهم الذي تعرفه. ولذلك لا يلتقي الإنسان في حياته بشاهد واحد، بل يلتقي بشهود كثيرين، لكنه لا ينتفع إلا بمن امتلك الشجاعة لأن يصغي إليه.

◆ وهنا يتكشف وجه آخر من وجوه الغباء؛ فهو لا يحاول قتل الحقيقة، لأنه لا يستطيع، بل يحاول إقصاء الشاهد، لعل الحقيقة ترحل برحيله. ولا يدرك أن الحقيقة لا تورث أسماء أصحابها، بل تورث أثرهم. قد يغيب الرجل، وتبقى الكلمة. وقد ينسى الناس الشاهد، لكنهم، بعد حين، يعيشون داخل الشهادة التي رفضوها يومًا، ويحسبونها من بدهيات الحياة، بعد أن كانت في نظرهم خروجًا على المألوف.

◆ لذلك ليست البطولة أن يجد الإنسان شاهدًا صادقًا، بل أن يحتمله. أن يصبر على مرارة المرآة حتى يرى وجهه كما هو، وأن يقبل أن الحقيقة قد تجرحه قبل أن تشفيه. فمن يهرب من الجرح، يهرب من الشفاء معه. ومن يخاصم الشاهد، لا ينجو من الحقيقة، وإنما يؤجل موعد اللقاء بها، حتى يصبح الثمن أكبر، والعمر أقصر، والندم أثقل.

◆ وسيأتي يوم يهدأ فيه الضجيج كله. يغيب الجمهور، وتسقط الألقاب، وتذبل الرايات، وتخفت الأصوات التي كانت تملأ الساحات. عندها لن يبقى مع الإنسان إلا ذاكرته، ولن يبقى في ذاكرته إلا أولئك الذين حاولوا أن يوقظوه، وهو يظن أنهم جاءوا ليؤذوه. وهناك، في تلك المحكمة التي لا يحضرها إلا الضمير، سيعرف أن أكثر شاهد خاصمه في حياته... كان أكثر الناس رحمة به.

◆ وما أقسى أن يصل الإنسان إلى هذه المعرفة بعد أن يغادر الشهود جميعًا. فبعض الحقائق لا تمنح أصحابها فرصة ثانية، وبعض الاعتذارات لا تجد من تتجه إليه. يرحل الشاهد، أو يبتعد، أو يبتلعه الزمن، ويبقى الإنسان وحيدًا أمام سؤال لا يملك أن يرده: لماذا احتجت إلى كل هذا العمر حتى أصدق ما كان واضحًا منذ البداية؟ وهنا لا يكون الزمن قد سرق الحقيقة،

بل يكون قد سلب الإنسان فرصة أن يعيشها في وقتها.

◆ تأملت طويلًا هذه المفارقة، فاكتشفت أن الإنسان لا يقضي حياته كلها باحثًا عن الحقيقة كما يحب أن يتصور، بل يقضي جانبًا كبيرًا منها باحثًا عن الطمأنينة. وإذا تعارضت الحقيقة مع الطمأنينة، انتصر كثيرون لما يريحهم لا لما يصدقهم. ليست الطمأنينة هنا فضيلة، بل هدنة مؤقتة مع الوهم. أما الحقيقة فلا تعرف الهدن؛ إنها تطلب مراجعة، وتطلب شجاعة، وتطلب استعدادًا لأن يخسر الإنسان صورة أحبها، كي يستعيد إنسانًا كاد أن يفقده.

◆ لذلك لا يكون الشاهد أخطر أعداء الوهم لأنه يملك معلومات أكثر، بل لأنه يفسد راحته. إنه لا يهدم البناء كله، بل يلمس حجرًا واحدًا، فيكتشف صاحب البناء أن الجدار بأكمله كان قائمًا عليه. ومن هنا يأتي ذلك العنف الذي يواجه به بعض الناس كلمة صادقة؛ فالكلمة لم تكن تهدد رأيًا عابرًا، بل كانت تهدد البيت الذي عاشوا داخله، والهوية التي احتموا بها، والرواية التي ناموا في ظلها أعوامًا طويلة.

◆ ولعل أكثر ما يدعو إلى التأمل أن الإنسان، بعد أن يرفض الشاهد، لا يتوقف عن البحث عن شاهد آخر، لكن بالشروط التي يضعها هو. يريد من يشهد له، لا عليه. ومن

يطمئنه، لا من يوقظه. ومن يبارك روايته، لا من يدعوه إلى إعادة كتابتها. وهكذا يحيط نفسه، شيئًا فشيئًا، بأشخاص لا يقولون له إلا ما يحب أن يسمعه، حتى يصبح صدى صوته هو الصوت الوحيد الذي يملأ حياته. وما أشد قسوة العزلة حين تتنكر في صورة توافق كامل.

◆ ومن أخطر ما يصيب المجتمعات أن تتحول هذه الحاجة الفردية إلى ثقافة عامة. عندئذ لا يبحث الناس عن القائد الذي يقول الحقيقة، بل عن القائد الذي يؤكد ما يريدون تصديقه. ولا يلتفون حول المفكر الذي يربك يقينهم، بل حول من يعيد صياغة يقينهم القديم في عبارات أكثر بريقًا. ويصبح الكاتب الذي يوقظ العقول غريبًا في وطنه، بينما يجد صانع الأوهام جمهورًا لا يكاد ينفد؛ لأن الوهم يعد الناس بالراحة، أما الحقيقة فلا تعدهم إلا بالحرية، والحرية أثقل كلفة من الراحة.

◆ وليس معنى ذلك أن كل شاهد معصوم، أو أن كل ناقد يمتلك الحقيقة كاملة. فالإنسان، مهما بلغ من الصدق، يبقى معرضًا للخطأ. لكن الفرق بين العقل الحر والعقل الأسير أن الأول يناقش الشهادة، أما الثاني فيحاكم الشاهد. الأول يسأل: هل ما يقوله صحيح؟ والثاني يسأل: كيف أمنعه من أن يقوله؟ وبين السؤالين يتحدد مصير الأفكار، بل قد يتحدد مصير الأوطان أيضًا.

◆ وكلما تقدمت بي السنوات، ازددت يقينًا بأن أخطر خسائر الإنسان ليست خسارة منصب، ولا شهرة، ولا مال، بل خسارة ذلك الشخص الذي امتلك الشجاعة ليقول له الحقيقة دون انتظار منفعة، ودون خوف من خسارة، ودون حاجة إلى تصفيق. فهؤلاء نادرون، وإذا غابوا، بقي الإنسان محاطًا بأصوات كثيرة، لكنها لا تقول إلا ما يريده، لا ما يحتاج إليه.

◆ وربما كانت الحكمة كلها تبدأ من تمرين صغير، لكنه بالغ القسوة: أن يسأل الإنسان نفسه، كلما ضاق بصوت ناقد صادق: هل أغضب لأن الرجل ظلمني... أم لأنني أخشى أنه رأى فيَّ ما تعبت طويلًا في إخفائه عن نفسي؟ ذلك السؤال لا يفتح بابًا إلى الحقيقة فحسب، بل يفتح بابًا إلى الإنسان الذي كدنا نفقده تحت طبقات الروايات التي ألفناها عن أنفسنا.

◆ وعند هذه العتبة يتغير معنى الشهادة كله. فلا يعود الشاهد ذلك الذي يقف أمام قاضٍ في محكمة، بل ذلك الذي يقف أمام ضميرك في اللحظة التي ينصرف فيها.

ورقة من كتاب «الغبي» (30)

✳ الغبي.. حين يتحول العقل إلى غرفة لا يسمع فيها إلا صداه ✳

«أخطر ما يصيب العقل ليس أن يخطئ في الرأي... بل أن يحيط نفسه بمن يصفقون للخطأ حتى يبدو صوابًا».

◆ بعد أن يخلط الإنسان بين رأيه والحقيقة، لا يلبث أن يبحث عمن يشبهونه. لا يريد صحبة توسع نافذته على العالم، بل صحبة تغلقها معه. لا يطلب عقلًا يراجعه، بل صدى يطمئنه. وهنا يبدأ وجه جديد من وجوه الغباء؛ أن يتحول العقل من بيت مفتوح للهواء، إلى غرفة مغلقة لا يسمع صاحبها فيها إلا صوته عائدًا إليه في صورة تصفيق.

◆ الصدى لا يضيف إلى الصوت شيئًا، لكنه يخدعه بأنه صار جمهورًا. وهذه هي حيلة الغباء حين يحيط نفسه بالأشباه. يهمس الإنسان برأي ناقص، فيعود إليه من حوله كأنه يقين مكتمل. يطلق حكمًا متعجلًا، فيعود الحكم إليه وقد ارتدى ثوب الإجماع. يقول جملة واحدة، فإذا بها ترجع إليه عشر جمل، فيظن أن العالم

كله قالها معه، بينما لم يسمع في الحقيقة إلا نفسه.

◆ لا يحتاج الغبي دائمًا إلى أن يكون وحيدًا حتى يضل. أحيانًا يضل لأنه ليس وحيدًا بما يكفي. لأن كثرة من حوله لا تعني أنه خرج من ذاته، إذا كانوا كلهم يشبهون خوفه، ويكررون غضبه، ويؤكدون ظنونه، ويزينون له الطريق نفسه. فالإنسان قد يعيش بين الناس، لكنه يسكن داخل نفسه فقط، إذا لم يسمح لصوت مختلف أن يقترب من يقينه.

◆ في البداية، يبدو الأمر مريحًا. من حولك يفهمونك سريعًا، يوافقونك قبل أن تكمل العبارة، يغضبون لغضبك، ويسخرون ممن تسخر منه، ويحولون شكوكك الصغيرة إلى اتهامات كبيرة. هذه الرفقة تمنحك دفئًا خادعًا، كأنك عثرت أخيرًا على الحقيقة لأن كثيرين يجلسون حولها. لكن النار التي لا يدخلها هواء جديد، لا تلبث أن تتحول إلى دخان.

◆ ليست المشكلة في أن يبحث الإنسان عمن يفهمونه، فذلك حق إنساني عميق. المشكلة أن يستبدل الفهم بالموافقة، وأن يخلط بين الصداقة والتصفيق، وأن يظن أن من يحبه هو من يؤكد له ما يريد سماعه، لا من يوقظه بلطف مما لا يريد أن يراه. فليس كل من هز رأسه موافقًا كان أمينًا، وليس كل من عارضك كان خصمًا.

◆ هناك أصدقاء يشبهون المرايا النظيفة، يردون إليك وجهك كما هو، لا كما تحب أن تراه. وهناك أصدقاء يشبهون المرايا المزخرفة، لا يظهرون منك إلا ما يريحك. والغبي، غالبًا، يختار النوع الثاني. لا لأنه أجمل، بل لأنه أسهل. فالمرآة الصادقة تتعب صاحبها، أما المرآة المجاملة فتمنحه وجهًا لا يجرحه.

◆ وفي السياسة، تصبح غرفة الصدى أخطر من الخطأ نفسه. فالحاكم الذي لا يسمع إلا من يبررون له قراره، لا يعرف متى بدأ يبتعد عن الناس. والمعارض الذي لا يسمع إلا من يصفقون لغضبه، لا يعرف متى بدأ يبتعد عن المجتمع. والحزب الذي لا يسمع إلا أعضاءه، يفقد قدرته على مخاطبة من لم ينضموا إليه. والجماعة التي لا تسمح لصوت مختلف أن يدخلها، تبدأ في التحول من فكرة إلى قوقعة.

◆ ولقد رأيت، عبر سنوات طويلة، أن كثيرًا من الهزائم لم تبدأ من قوة الخصوم، بل من ضعف القدرة على الإصغاء. كان يكفي أن يجتمع أصحاب الرأي الواحد طويلًا، وأن يطمئن بعضهم إلى بعض، وأن يظنوا أن اتفاقهم دليل صحة، حتى يبدأ الواقع في مفاجأتهم بما لم يسمعوه داخل الغرفة. فالواقع لا يحضر اجتماعات المغلقين، لكنه ينتظرهم عند الباب.

◆ كم من قرار سياسي خرج من غرفة ضيقة فظنه أصحابه تعبيرًا عن أمة كاملة، لأنه قوبل داخل الغرفة بالتصفيق. وكم من حملة إعلامية بدت ناجحة لمن صنعوها، لأنها أضحكت الذين يضحكون أصلًا، وأغضبت الذين كانوا غاضبين أصلًا، لكنها لم تغير عقلًا واحدًا خارج الدائرة المغلقة. وكم من معركة خسرها أصحابها لأنهم ظنوا أن ترديد الشعار هو نفسه إقناع الناس به.

◆ غرفة الصدى لا تكذب على صاحبها بالكلمات فقط، بل تكذب عليه بالأرقام أيضًا. عدد المعجبين، وحرارة التعليقات، وسرعة الانتشار، قد تمنح الإنسان وهمًا بأنه صار أقرب إلى الحقيقة، بينما هو ربما صار فقط أقرب إلى جماعته. فالانتشار ليس برهانًا، والضجيج ليس دليلًا، والحشد لا يحول الرأي إلى حقيقة، مهما بدا عالي الصوت.

◆ أخطر ما في الصدى أنه يضعف عضلة الاحتمال. فالإنسان الذي لا يسمع إلا ما يوافقه يفقد، مع الوقت، قدرته على احتمال المختلف. يبدأ الاختلاف عنده كإزعاج، ثم يصبح عدوانًا، ثم يتحول إلى خيانة. وما كان يمكن أن يكون حوارًا، يصير معركة. وما كان يمكن أن يكون سؤالًا، يصير اتهامًا. وما كان يمكن أن يكون مراجعة، يصير تهديدًا للهوية.

◆ لذلك لا تستبد الجماعات المغلقة بأعضائها دفعة واحدة، بل تفعل ذلك ببطء. تمنحهم في البداية دفء الانتماء، ثم تأخذ منهم حق الشك. تمنحهم لغة مشتركة، ثم تأخذ منهم القدرة على ترجمة العالم بغيرها. تمنحهم يقينًا جماعيًا، ثم تجعل الخروج عليه خيانة. وهكذا لا يحتاج الإنسان إلى سجن خارجي، ما دام قد قبل أن يسلم مفتاح عقله لمن يشبهونه.

◆ لا شيء يخيف العقل المغلق مثل السؤال الهادئ. فالسؤال لا يهدم الجدران بعنف، لكنه يفتح فيها نافذة. والغبي لا يكره السؤال لأنه صعب، بل لأنه يسمح للهواء أن يدخل. وهواء الحقيقة، حين يدخل غرفة مغلقة طويلًا، يربك ترتيب الأثاث، ويحرك الغبار، ويكشف أن ما ظنه الإنسان نظامًا لم يكن سوى سكون طويل.

◆ من هنا، يكون المختلف ضرورة لا ترفًا. ليس لأنه يملك الحقيقة دائمًا، بل لأنه يمنعنا من عبادة صورتنا. المختلف يذكرنا بأن العالم أوسع من لغتنا، وأن التجربة أرحب من ذاكرتنا، وأن ما نراه من نافذتنا ليس المشهد كله. وقد يكون مخطئًا، لكنه يظل مفيدًا لأنه يجبر عقولنا على الحركة. أما المتطابقون معنا تمامًا، فقد يمنحوننا الراحة، لكنهم لا يمنحوننا النمو.

◆ في البيت أيضًا توجد غرف صدى صغيرة. أب لا يسمع

إلا من يخافون إغضابه، وأم لا تسمع إلا من يوافقون عاطفتها، وزوجان يعيشان داخل تفسيرين مغلقين، وأبناء يتعلمون مبكرًا أن قول الحقيقة قد يكلفهم أكثر من الصمت. وهكذا تنشأ عائلات كاملة لا ينقصها الحب، بل ينقصها الهواء.

◆ وفي الإعلام، تتحول غرفة الصدى إلى صناعة كاملة. لا يقدم بعض الإعلام ما يحتاج الناس إلى معرفته، بل ما يريدون أن يسمعوه. يبيع لهم غضبهم معادًا ترتيبه، ويقدم لهم خوفهم في صورة تحليل، ويحول انحيازهم إلى بطولة يومية. ومع الوقت، لا يعود المشاهد يبحث عن الحقيقة، بل عن القناة التي تشبهه، ولا يعود القارئ يطلب خبرًا، بل يطلب مرآة تؤكد له أنه كان على حق منذ البداية.

◆ أما في وسائل التواصل، فقد اتخذ الصدى شكلًا جديدًا، أكثر نعومة وأشد خطرًا. لم تعد الغرفة مبنية من جدران، بل من اختيارات متكررة. ما نحب، وما نشارك، وما نغضب منه، وما نتوقف عنده، يتحول مع الوقت إلى جدار غير مرئي. ثم يأتينا العالم وقد تم تفصيله على مقاسنا، فنظن أننا نراه كاملًا، بينما نحن لا نرى إلا النسخة التي وافقت أهواءنا.

◆ وهكذا يصبح الغبي ابنًا شرعيًا لخوارزميات روحه قبل أن يكون ابنًا لخوارزميات الهاتف. فالهاتف لا يصنع الانحياز

من عدم، بل يغذيه. لا يخترع فينا الرغبة في سماع ما نحب، بل يمنحها سرعة ونظامًا وواجهة براقة. المشكلة الأولى ليست في الشاشة، بل في ذلك الجزء من الإنسان الذي يفضل المرآة على النافذة.

◆ ولا يعني هذا أن نعيش بلا انتماء، أو أن نشك في كل جماعة ننتمي إليها. فالإنسان كائن يحتاج إلى صحبة، وإلى لغة مشتركة، وإلى دفء يشبهه. لكن الانتماء الناضج هو الذي يسمح لك أن تبقى إنسانًا كاملًا داخله، لا نسخة مكررة من الآخرين. والانتماء الحر هو الذي لا يطلب منك أن تطفئ عقلك كي تثبت ولاءك.

◆ أجمل الجماعات هي التي تحتمل الاختلاف داخلها. الحزب الذي يسمع نقد أبنائه قبل نقد خصومه. والصحيفة التي تسمح بمراجعة خطها قبل أن يراجعها القارئ. والبيت الذي لا يخاف من سؤال الأبناء. والدولة التي لا تعتبر الصوت المختلف شرخًا في جدارها، بل دليلًا على أن الجدار ما زال يتنفس.

◆ الغبي لا يفهم هذه المعادلة. يظن أن الوحدة تعني التطابق، وأن القوة تعني صوتًا واحدًا، وأن الانضباط يعني صمتًا طويلًا. لكنه لا يدرك أن الصوت الواحد قد يكون أحيانًا علامة موت، لا علامة قوة. فالحياة نفسها لا تتكلم بصوت واحد؛ فيها

النهر والحجر، الريح والشجر، الليل والنهار. وحدها المقابر شديدة الهدوء.

◆ لذلك، كان من علامات العقل الحي أن يحتفظ بالقرب منه بمن لا يشبهونه تمامًا. بمن يسألونه دون أن يهينوه، ويخالفونه دون أن يلغوه، ويحبونه دون أن يصفقوا لكل ما يقول. فالصديق الذي لا يملك شجاعة الاعتراض، قد يكون رفيقًا لطيفًا، لكنه ليس شاهدًا أمينًا على الطريق.

◆ لا يكفي أن نسأل أنفسنا: من يوافقني؟ بل يجب أن نسأل: من يستطيع أن يقول لي إنني أخطأت؟ من يستطيع أن يضع أمامي رواية أخرى؟ من يستطيع أن يفتح نافذة في غرفتي حين يثقل الهواء؟ فالإنسان لا يحتاج فقط إلى من يربت على كتفه، بل إلى من يحميه من وهمه، ولو أغضبه قليلًا.

◆ ومن أشد علامات الغباء أن يتحول الإنسان إلى محرر دائم للعالم من حوله؛ يحذف الأشخاص الذين يزعجونه، ويقصي الآراء التي تقلقه، ويغادر المساحات التي لا تصفق له، حتى يبقى في النهاية محاطًا بجوقة مريحة، لكنها لا تنقذه من خطئه. وربما كانت أقسى وحدة هي تلك التي يعيشها الإنسان وسط كثيرين يشبهونه تمامًا.

◆ العقل الذي لا يسمع إلا صداه يشيخ مبكرًا. لا لأنه فقد

القدرة على التفكير، بل لأنه فقد الاحتكاك الذي يجدد التفكير. فالأفكار مثل الحجارة، لا يلمع بعضها إلا إذا احتك ببعضها. أما الفكرة التي تعيش وحدها، معجبة بنفسها، مطمئنة إلى تصفيق أصحابها، فإنها تفقد حافتها، ثم تفقد قدرتها على قطع الطريق إلى الحقيقة.

◆ ولو تأملنا كثيرًا من الهزائم الفردية والجماعية، لوجدنا في أصلها غرفة مغلقة. قائد لم يرد أن يسمع إلا ما يطمئنه. نخبة لم تتحدث إلا مع نفسها. معارضة لم تخرج من جمهورها. إعلام لم يخاطب إلا من صدقوه سلفًا. أسرة لم تترك لأبنائها حق الاعتراض. فرد لم يسمح لصديق صادق أن يزعجه بالحقيقة.

◆ لهذا لا تكون الشجاعة دائمًا في أن نقول رأينا، بل في أن نسمح لرأي آخر أن يقترب من مكاننا الآمن. الشجاعة أن نتحمل سؤالًا يربكنا، وحقيقة تؤخر اطمئناننا، وصوتًا لا يسبنا ولا يصفق لنا، بل يطلب منا أن نراجع ما ظنناه نهائيًا. فالإنسان لا يكبر بمن يوافقونه فقط، بل بمن يجبرونه على أن يكون أصدق مع نفسه.

◆ وربما كانت أول خطوة للخروج من غرفة الصدى أن يعترف الإنسان بأنه يسكنها. أن يسأل نفسه بصدق: هل أبحث عن الحقيقة، أم عن نسخة أكثر أناقة من رأيي؟ هل أقرأ من

يخالفني لأفهمه، أم لأفتش عن ثغرة أهاجمه منها؟ هل أغضب لأن الفكرة ضعيفة، أم لأنني لا أحب أن أكون مخطئًا؟ هذه الأسئلة الصغيرة قد تكون مفاتيح كبيرة لأبواب مغلقة منذ زمن.

◆ الغبي يخاف من المختلف لأنه يهدد راحته. أما العاقل فيحتاج إليه لأنه يوقظ حواسه. والغبي يريد عالمًا يشبهه كي يطمئن، أما العاقل فيعرف أن العالم، لو صار نسخة واحدة، لفقد معناه. فالتنوع ليس زينة أخلاقية، بل شرط من شروط الفهم. ومن لا يحتمل اختلاف الأصوات، لن يسمع الحقيقة إذا جاءت في غير صوته.

◆ وفي النهاية، لا يفسد العقل لأنه خالفه كثيرون، بل لأنه لم يخالفه أحد. لا يضيع الإنسان لأنه سمع آراء متناقضة، بل لأنه لم يسمع إلا رأيًا واحدًا حتى ظنه قدرًا. ولا يكبر الوهم لأن الدليل قوي، بل لأنه عاش طويلًا داخل غرفة لم يدخلها سؤال.

◆ ومن هنا يبدأ وجه آخر من وجوه الغباء. فبعد أن يحبس الإنسان نفسه في غرفة الصدى، يبدأ في اختيار الأدلة كما يختار الأصدقاء؛ لا يبحث عما يكشف الحقيقة، بل عما يؤكد ما قرره مسبقًا. وهناك، عند تلك اللحظة التي يصبح فيها الدليل خادمًا للرأي لا سيدًا عليه، يبدأ فصل جديد من حكاية الغبي مع عقله.

ورقة من كتاب «الغبي» (31)

✳الغبي.. يصنع الأدلة التي يريدها✳

«الغبي لا يبحث عن الحقيقة في الأدلة... بل يبحث في الأدلة عما يبرر الحقيقة التي اختارها مسبقًا» .

◆ لا تبدأ المأساة يوم يختلق الإنسان الكذب، بل يوم يفقد حياده أمام الحقيقة. ففي تلك اللحظة الدقيقة، التي لا يلحظها أحد، يتبدل دور العقل من قاضٍ إلى محامٍ. لم يعد يزن الوقائع بميزانها، وإنما صار يفتش بينها عما ينقذ الرواية التي أحبها. ومنذ ذلك اليوم، لا تعود الأدلة طريقًا إلى الحقيقة، بل تتحول إلى جنود يستدعيها العقل للدفاع عن حكم أصدره قبل أن تبدأ المحاكمة.

◆ الحقيقة لا تخشى الامتحان، لأنها لا تعرف الخوف. أما الوهم، فيعيش على الحراسة. يحتاج كل صباح إلى دليل جديد، وكل مساء إلى تبرير جديد، لأنه يعرف، في أعماقه، أن بقاءه لا يقوم على قوته، بل على الجهد الذي يبذله صاحبه في حمايته. ولذلك يتعب الإنسان من الدفاع عن الوهم أكثر مما يتعب من

حمل الحقيقة، لأن الحقيقة تحمل نفسها، أما الوهم فيحمله صاحبه طوال عمره.

◆ رأيت، في السياسة كما في الحياة، أن الناس لا ينقسمون دائمًا إلى من يملكون الأدلة ومن يفتقدونها، بل إلى من يذهبون إلى الدليل ليعرفوا، ومن يذهبون إليه ليؤكدوا ما قرروه من قبل. الأول يعود أحيانًا برأي جديد، أما الثاني فلا يعود إلا بدليل جديد للرأي القديم. وهنا يكمن الفارق بين العقل الذي يتعلم، والعقل الذي يبحث عن شهود زور.

◆ ليست المشكلة أن الإنسان يحب أفكاره، فكل فكرة عظيمة بدأت بشيء من الإيمان بها. لكن الكارثة تبدأ عندما يحبها أكثر من الحقيقة نفسها. عندئذ يصبح كل دليل يخالفها موضع شك، وكل شاهد يؤيدها موضع احتفاء، وكل واقعة لا تخدمها مجرد استثناء لا يستحق النظر. وهكذا لا يكذب الإنسان على الواقع، بل يكتفي بحذف ما لا يناسبه منه.

◆ لعل أكثر ما أدهشني، خلال سنوات طويلة من العمل العام، أن الوقائع نفسها كانت تدخل إلى عقول مختلفة، ثم تخرج منها كأنها وقائع متعددة. الحدث واحد، لكن الروايات بعدد المتفرجين. والسبب لم يكن في اختلاف ما رأوه، بل في اختلاف ما كانوا مستعدين لرؤيته. فالعين لا ترى وحدها، بل ترى معها

الذاكرة، والخوف، والانتماء، والمصلحة، وكل ما استقر في الداخل قبل أن يصل الضوء إلى البصر.

◆ لهذا لا يكون الغباء دائمًا عجزًا عن رؤية الدليل، بل اختيارًا هادئًا للدليل الذي يوافق الهوى. وما أسهل أن يجد الإنسان في عالم مزدحم بالمعلومات ما يؤيد أي فكرة يريدها. يستطيع أن يلتقط واقعة من بين ألف واقعة، وأن يقتبس جملة من بين كتاب كامل، وأن يبني من الاستثناء قاعدة، ثم يخرج مطمئنًا لأنه «وجد الدليل». بينما الحقيقة، في مكان آخر، كانت تنتظر منه أن يرى الصورة كلها، لا القطعة التي أحبها منها.

◆ أخطر ما في هذا السلوك أنه يمنح صاحبه شعورًا زائفًا بالعلم. يظن أنه قرأ، بينما هو انتقى. ويظن أنه بحث، بينما هو اختار. ويظن أنه ناقش، بينما هو كان يكرر ما يعرفه بلغة جديدة. وهكذا يتحول الاطلاع، الذي خُلق لتوسيع العقل، إلى وسيلة لتضييقه، لأن الإنسان لم يذهب إلى المعرفة ليكتشف، بل ليحصن يقينه القديم.

◆ في العلاقات الإنسانية، يحدث الأمر بالطريقة نفسها. نبحث عن كلمة تؤكد سوء ظننا، وننسى عشر كلمات كانت تستحق الإنصاف. نتذكر موقفًا واحدًا يدين من نحب أن ندينه، وننسى تاريخًا طويلًا كان يشفع له. ليس لأن الذاكرة ضعيفة،

بل لأن القلب، حين ينحاز، يعيد ترتيب الذاكرة على هواه. وهنا لا يعود الإنسان شاهدًا على حياته، بل محررًا لروايتها.

◆ وما أشبه العقل، في هذه اللحظة، بصياد خرج إلى الغابة وهو يعرف مسبقًا الحيوان الذي يريد أن يعود به. لن يرى الغابة كما هي، بل كما تخدم رغبته. سيتجاوز آثارًا كثيرة، ويتجاهل إشارات عديدة، حتى يعثر على ما خرج يبحث عنه. ثم يعود مزهوًا بأنه اكتشف الحقيقة، مع أنه لم يكتشف إلا ما قرر سلفًا أن يراه.

◆ الغبي لا يحب الكذب لأنه شرير، بل لأنه يريحه من مشقة إعادة بناء عالمه. فالاعتراف بأن الدليل قاده إلى نتيجة جديدة يعني أن عليه أن يهدم جزءًا من يقينه القديم، وأن يعتذر، وأن يراجع، وأن يعيد ترتيب كثير من أفكاره. وهذا ثمن ثقيل على نفس تعودت أن تجعل من الثبات فضيلة، حتى لو كان ثباتًا على الخطأ.

◆ الحكمة تبدأ من لحظة شديدة التواضع، لحظة يقول فيها الإنسان لنفسه: «دعني أرى ما لا أحب أن أراه.» هذه الجملة وحدها كفيلة بأن تفتح أبوابًا كانت مغلقة منذ سنوات. لأنها تنقل العقل من مقعد المحامي إلى مقعد القاضي، ومن مهمة الدفاع إلى مهمة الفهم.

◆ وما أكثر الذين خسروا معاركهم لأنهم لم يخسروا أفكارهم في الوقت المناسب. ظلوا يدافعون عنها حتى بعد أن تخلت هي عنهم، واستمروا في جمع الأدلة لها، بينما كانت الحياة، في الخارج، قد كتبت رواية أخرى. وهكذا لا يصبح الإنسان وفيًا للحقيقة، بل وفيًا لنسخة قديمة منها، لم تعد تشبه الزمن ولا تشبه الواقع.

◆ ليس أشرف للعقل من أن يعترف بأن دليلًا واحدًا صادقًا قد يهزم مائة دليل جمعها الهوى. فالحقيقة لا تقاس بعدد الشهود، وإنما بقدرتها على أن تبقى بعد أن يغادر الجميع قاعة المحكمة. أما الوهم، فيسقط بمجرد أن ينصرف آخر محامٍ كان يدافع عنه.

◆ ومن هنا يبدأ وجه جديد من وجوه الغباء. فإذا كان الإنسان قد تعلم كيف ينتقي الأدلة، فإنه سيتعلم بعد ذلك كيف ينتقي الذكريات نفسها، حتى لا يبقى في ذاكرته إلا ما يخدم الرواية التي يريد أن يعيش داخلها. وهناك تبدأ الورقة التالية... حيث لا يصبح الوهم انتقاءً للأدلة فقط، بل انتقاءً للتاريخ أيضًا.

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي» (32)

✳ الغبي روائي خائب يعيد تأليف ماضيه ✳

«الغبي لا يكذب على ماضيه... بل يعيد تأليفه حتى يستطيع أن يعيش معه».

◆ في مساء لا يختلف كثيرًا عن أمسيات العمر، جلس الرجل وحده. لم يكن أمامه أحد، ولا كان مضطرًا إلى الدفاع عن نفسه. أخرج ماضيه، كما يخرج روائي مخطوطته القديمة من درجٍ نسيه الزمن. قلب الصفحات ببطء، ثم ابتسم. لم تعجبه بعض الفصول. كانت قاسية، ومربكة، وتضعه في مواضع لم يعد يحب أن يراها. تناول قلمه، ولم يمزق الصفحات، بل فعل ما هو أخطر؛ أعاد كتابتها.

◆ حذف جملة قالها يومًا في لحظة ضعف، وأضاف شجاعة لم يعرفها، وخفف قسوة ارتكبها، ونقل بطولة من كتف صاحبها إلى كتفه، ثم أغلق المخطوطة وهو مطمئن. لم يكن يعلم أن ما فعله لم يكن إصلاحًا للماضي، بل بداية اغترابه عنه.

◆ منذ تلك الليلة، لم يعد يعيش حياته كما عاشها، بل كما كتبها بعد سنوات.

◆ ليست الذاكرة صندوقًا مغلقًا، كما كنا نظن، تحفظ فيه الأيام على صورتها الأولى. إنها أقرب إلى روائي لا يتوقف عن المراجعة. تعيد ترتيب المشاهد، وتختصر الحوارات، وتضيف أسبابًا لم تكن موجودة، وتحذف لحظات لا تليق بالصورة التي يريد الإنسان أن يحتفظ بها عن نفسه.

◆ هنا يبدأ أحد أكثر وجوه الغباء رقةً وخطورة. لا لأن الإنسان ينسى، فالنسيان رحمة منحها الله للبشر، وإنما لأنه، من حيث لا يشعر، يستبدل الذكرى بالحكاية، ثم يستبدل الحكاية بالحقيقة، حتى إذا طال الزمن، لم يعد يعرف أيهما عاش، وأيهما ألّف.

◆ لا يعيد الغبي كتابة ماضيه لأنه شرير، بل لأنه متعب. الحقيقة القديمة تؤلمه، أما الرواية الجديدة فتمنحه سلامًا مؤقتًا. ومن أجل دقائق قليلة من الطمأنينة، يقبل أن يدفع ثمنًا لا يدركه؛ أن يعيش بعيدًا عن نفسه.

◆ كل إنسان يحمل في داخله مؤلفًا خفيًا. لكن الفرق بين الحكيم والغبي، أن الحكيم يراجع مخطوطته ليقترب من الحقيقة، أما الغبي فيراجعها ليبتعد عنها. الأول يحذف الوهم، والثاني

يحذف الواقع. الأول يصحح النص، والثاني يصحح التاريخ.

◆ تأملت، عبر سنوات طويلة، أحاديث كثيرين عن ماضيهم. لم يكن اختلافهم في الوقائع الكبيرة، بل في التفاصيل الصغيرة التي تغيّر معنى الوقائع كلها. أحدهم كان دائمًا صاحب الفكرة الأولى، وآخر كان دائمًا صاحب الموقف الأشجع، وثالث لم يخطئ أبدًا إلا لأن الظروف خانته. كنت أستمع، وأتساءل في صمت: هل تغير الماضي فعلًا، أم أن المؤلف أصبح أكثر جرأة من الشاهد؟

◆ السياسة، أكثر من غيرها، مليئة بالروائيين الخائبين. رأيت من يعيد كتابة مواقفه مع كل مرحلة، حتى يصبح الماضي مادة مرنة، تُقص وتُلصق بحسب الحاجة. لم يكن يكذب بالمعنى التقليدي، بل كان يؤلف. يمنح نفسه ما حرمته منه الوقائع، ويسحب من الآخرين ما منحهم إياه التاريخ، ثم يمضي مطمئنًا، لأنه صدق النسخة الأخيرة من حكايته.

◆ والإعلام يفعل الأمر نفسه حين يقع في غواية الرواية. يبدأ بخبر، ثم يضيف إليه تفسيرًا، ثم يكرر التفسير حتى يصبح أصل الخبر، ثم يأتي جيل لم يشهد الوقائع، فيقرأ الرواية على أنها التاريخ نفسه. وهكذا لا يضيع الحدث، بل يضيع ترتيبه، ويضيع معه معناه.

◆ حتى في البيوت، يحدث ذلك كل يوم. الأب لا يتذكر إلا قسوته التي سماها تربية، والابن لا يتذكر إلا الجرح الذي سماه ظلمًا. الزوج يستعيد صمته على أنه حكمة، والزوجة تستعيده على أنه إهمال. كل واحد يكتب فصله، ثم يندهش حين يكتشف أن الكتاب الواحد صار نسخًا متعددة.

◆ الغريب أن الإنسان لا يشعر باللحظة التي يتحول فيها من شاهد إلى مؤلف. يحدث ذلك ببطء شديد. يضيف تفسيرًا صغيرًا، ثم يحذف تفصيلة، ثم يغير ترتيب حدثين، ثم يكرر الرواية الجديدة مرات كثيرة، حتى تصبح أكثر حضورًا في ذاكرته من الحقيقة نفسها. ومنذ تلك اللحظة، لا يعود الماضي مكانًا يعود إليه، بل نصًا يعيد تحريره كلما احتاج إلى ذلك.

◆ لهذا لا أخاف على الإنسان من ضعف ذاكرته، بقدر خوفي عليه من قوة خياله حين يعمل ضد ذاكرته. فالنسيان قد يخفي بعض الألم، أما إعادة التأليف فتخلق إنسانًا آخر، يعيش داخل سيرة لم يعشها، ويدافع عن بطولة لم يقم بها، ويعتذر عن خطأ لم يرتكبه، أو ينكر خطأ ارتكبه فعلًا.

◆ ليست المشكلة أن يجمّل الإنسان ماضيه قليلًا، فكل نفس تميل إلى ستر جراحها. المشكلة أن يتحول التجميل إلى إقامة دائمة، وأن يصبح التاريخ الشخصي مشروعًا مفتوحًا

لإعادة الكتابة. عندها لا يعود الإنسان يواجه حياته، بل يواجه النسخة التي اخترعها عنها.

◆ ولعل أكثر ما يثير الشفقة أن الروائي الخائب يصدق روايته في النهاية. يقرأها مرات كثيرة حتى ينسى أنها خرجت من قلمه، لا من حياته. وحين يواجهه شاهد قديم، أو وثيقة منسية، أو حقيقة لا تزال تحتفظ بملامحها الأولى، يغضب. ليس لأن الحقيقة كاذبة، بل لأنها تهدد الرواية التي عاش داخلها طويلًا.

◆ الحكمة ليست أن نحاكم ماضينا بلا رحمة، ولا أن نمجده بلا حدود. الحكمة أن نتركه كما كان. أن نسمح له أن يبقى شاهدًا علينا، لا موظفًا عند كبريائنا. فالماضي لا يحتاج إلى محامين، بل إلى أمناء.

◆ وربما كانت أشجع لحظة في حياة الإنسان، تلك التي يفتح فيها مخطوطة عمره، ثم يقاوم إغراء التعديل. يقرأها كما حدثت، لا كما كان يتمنى أن تحدث. يبتسم لبعض صفحاتها، ويبكي على بعضها الآخر، لكنه لا يمد يده إلى القلم.

◆ لأن القلم الذي يزور الماضي، لا يغير الماضي...

بل يغير صاحبه.

◆ ومن هنا يبدأ الوجه التالي من وجوه الغباء. فبعد أن يعيد

الإنسان تأليف ماضيه، لا يكتفي بذلك، بل يبدأ في تأليف نوايا الآخرين أيضًا، فينسب إليهم ما لم يقصدوه، ويقرأ قلوبهم كما لو كانت كتبًا مفتوحة. وهناك تبدأ حكاية جديدة... أكثر خفاءً، وأكثر قسوة.



ورقة من كتاب «الغبي» (33)

✳ غبي من يطفئ النور عندما يرى اول الطريق ✳

«أخطر الأغبياء، ليس من لا يرى الحقيقة... بل من يراها، في أول الطريق ثم يطفئ النور موتهما أنه وصل للنهاية».

◆ يملك الجاهل عذرًا لا يملكه الغبي دائمًا؛ فالجاهل ربما لم تصله الحقيقة، أو وصلته ناقصة، أو وقفت بينه وبينها أبواب لم يستطع فتحها. أما الغبي في هذه الورقة، فقد رأى الباب مفتوحًا، وعرف الطريق، ولمس بيده حافة الضوء، ثم عاد إلى عتمته مختارًا؛ لأن الظلام، مهما كان قاسيًا، يحفظ للأشياء أشكالها القديمة.

◆ ليست كل الحقائق مجهولة، وبعضها يقيم معنا في البيت نفسه، يجلس إلى موائدنا، ويطل علينا كل صباح من المرآة. نراه في فتور المحبة، وفي موت الفكرة، وفي فساد المؤسسة، وفي صمت الأصدقاء، وفي النتائج التي تتكرر رغم تبدل الأعذار. لكن الإنسان يملك موهبة عجيبة في العيش إلى جوار الحقيقة دون أن يسمح لها بالدخول إليه.

◆ المعرفة وحدها لا تنقذ أحدًا. قد يعرف المدخن ما يفعله الدخان برئتيه، ويعرف المستبد أن الظلم يهدم الدول، ويعرف الكاذب أن حباله قصيرة، ويعرف المحب أن قلبًا ما قد أغلق بابه، ثم يواصل كل منهم سيره كأن المعرفة ورقة رسمية وصلت إلى عنوان خاطئ. المشكلة هنا ليست في غياب المعلومة، بل في غياب الإرادة التي تتحمل معناها.

◆ الحقيقة ليست جملة نقولها، بل ثمن ندفعه. الاعتراف بانتهاء علاقة يعني احتمال الوحدة، والإقرار بفشل مشروع يعني العودة إلى نقطة البداية، واكتشاف خطأ موقف قديم يعني الاعتذار لمن ظلمناهم، ومواجهة فساد جماعة ننتمي إليها قد تعني خسارة دفئها وحمايتها. لذلك لا يهرب الإنسان من الحقيقة نفسها، بل من الفاتورة التي تضعها فوق مائدته.

◆ الغبي هو من يظن أن تجاهل الفاتورة يلغي الدين. يطوي الورقة، ويخفيها في درج بعيد، ثم يعيش مطمئنًا إلى أن الحساب قد اختفى. لكنه لا يختفي؛ تتراكم فوائده في الروح، ويعود في صورة قلق لا نعرف مصدره، وغضب لا نفهم سببه، وأرق يطرق الرأس كلما هدأت ضوضاء النهار.

◆ رأيت في٦٣ عاما، بشرًا يعرفون تمامًا ما ينبغي عليهم فعله، لكنهم يبحثون دومًا عن حجة كي لا يفعلوه .

لا يسألون طلبًا للنصيحة، بل طلبًا للإعفاء. يتنقلون بين الأصدقاء حتى يعثروا على الصديق الذي يقول لهم ما يحبون سماعه، ثم يسمون هذا الاختيار حكمة، ويسمون الخوف تريثًا، ويسمون الهروب انتظارًا للوقت المناسب.

◆ الوقت المناسب أحد أكثر الأكاذيب أناقة. يستدعيه الإنسان عندما يعرف أن اللحظة قد جاءت، لكنه لا يريد أن يدخلها. يقول: غدًا أواجه، وغدًا أعتذر، وغدًا أغادر، وغدًا أبدأ. يظل الغد موظفًا مطيعًا في خدمة الخوف، يحمل عنه ما عجز عن حمله اليوم، حتى يأتي يوم لا يبقى فيه غد، وتصبح الحقيقة التي كان يمكن إصلاحها قدرًا لا يمكن رده.

◆ خداع النفس لا يحتاج دائمًا إلى كذبة كاملة. تكفي نصف حقيقة، أو كلمة ملتبسة، أو استثناء صغير نضعه في مكان القاعدة. يقول الفاشل: لم أخسر تمامًا. ويقول المستبد: الناس ليسوا جاهزين. ويقول المنافق: أحافظ على الجسور. ويقول الخائف: أختار معركتي. وربما حملت كل عبارة جزءًا من الصواب، لكن الجزء الناقص هو الذي يفضحها؛ إنه لا يريد أن يخسر ما تمنحه له الكذبة.

◆ يمتلك الإنسان في داخله محاميًا بارعًا يستطيع الدفاع عن أكثر أفعاله هشاشة. يجمع الشواهد، ويستدعي الظروف

المخففة، ويطعن في نيات الشهود، ثم يطلب البراءة من محكمة يجلس هو فوق منصتها. المشكلة ليست أن الدفاع ضعيف، بل أنه قوي إلى حد يستطيع معه أن يبرئنا من كل شيء، إلا من معرفة ما فعلناه بأنفسنا.

◆ الضمير لا يصدر أحكامه بصوت مرتفع. يكتفي غالبًا بوخزة صغيرة، ثم ينسحب. نحن الذين نغرقها في الضجيج، ونملأ يومنا بالعمل والكلام والخصومات والهواتف، حتى لا نسمع ذلك الصوت الخافت وهو يكرر الحقيقة نفسها. لذلك يخاف بعض الناس السكون؛ لأن الصمت يرفع عن الروح حصانتها المؤقتة، ويعيد فتح الملفات التي أغلقتها المجاملات.

◆ أخطر مراحل الغباء تبدأ عندما يتحول الإنكار من فعل مؤقت إلى أسلوب حياة. يصبح الإنسان موظفًا دائمًا لدى وهمه،

يعيد ترتيب الوقائع كل صباح

كي لا تسقط صورته الموهومة، في المساء .

يراقب الكلمات، ويحذف الذكريات، ويغير الشهود، ويبتعد عمن عرفوا الحكاية من بدايتها. يحتاج الوهم إلى صيانة أكثر مما تحتاجه الحقيقة؛ لأنه بيت مبني فوق فراغ، وكل نسمة قادرة على كشف أساسه.

◆ السياسة وأهلها، تقدم النموذج الأكبر والأخطر لهذا الغباء.

السلطة أحيانًا تعرف أن الغضب يتسع، وأن الاقتصاد يئن، وأن الثقة تنحسر، وأن الخوف لا يصنع استقرارًا، ثم تختار تقريرًا مزخرفًا يقول إن الأمور بخير. لا تنقصها الأرقام، بل تنقصها الشجاعة. تتحول أجهزة الدولة إلى مرايا مأمورة بأن تعكس الوجه الذي يريده الحاكم، لا الوجه الذي صنعته الأيام.

◆ الحاكم الذي يطلب الحقيقة، ثم يعاقب حاملها، لا يبحث عن معرفة، بل عن شهادة حسن سير .

ومع الوقت، يتعلم المحيطون به أن السلامة في إطفاء النور ولو كان مصدره شمعة، وأن الخبر الجيد هو الخبر الذي يؤجل الغضب، وأن الولاء يقاس بقدرة المسؤول على تجميل القبيح. وفقا لنظرية الصب في المصلحة

هكذا لا تسقط الدول يوم تظهر أزماتها، بل يوم يصبح الاعتراف بالأزمة جريمة أشد من صناعة الأزمة نفسها.

◆ المعارضة ليست محصنة من المرض ذاته. قد تعرف جماعات سياسية أنها فقدت اتصالها بالناس، وأن لغتها تيبست، وأن أخطاءها ساهمت في عزلتها، ثم تفضل رواية المؤامرة، لأنها مريحة، تعفيها من مراجعة نفسها .

■ نعم،،المؤامرات موجودة، والقمع حقيقة، واختلال موازين العدالة،

لا يحتاج إلى دليل، لكن الظلم الذي وقع لا يمنحنا براءة أبدية من أخطائنا.

◆ النضج السياسي يبدأ يوم نمتلك شجاعة حمل حقيقتين معًا: أن السلطة قد ظلمتنا، وأننا قد أخطأنا؛ وأن الطريق أغلق أمامنا، وأن خطواتنا لم تكن كلها صائبة؛ وأن خصومنا استخدموا القوة، وأننا لم نستخدم العقل بالقدر الكافي. العقل الصغير لا يحتمل إلا رواية واحدة، أما العقل الناضج فيعرف أن الحقيقة قد تملك أكثر من وجه دون أن تفقد ملامحها.

◆ الجماعات المغلقة تكره المصابيح والصحيح المخلصة. وتعتبر كل نقد خيانة، وكل مراجعة انشقاقًا، وكل اعتراف بالواقع خدمة للاستبداد .

ويمر الزمن، فتتحول بعض الجماعات إلى غرفة بلا نوافذ، يتناقص فيها الهواء، بينما يواصل أعضاؤها ترديد أن الاختناق دليل على نقاء المكان.

■ في مصر أطراف سياسيه لا يهزمها عدوها بقدر ما يهزمها خوفها من نافذة.

◆ العلاقات الإنسانية تعرف بدورها هذا الإطفاء المتعمد للأنوار. يدرك أحدنا أن محبة ما صارت عادة، وأن صداقة ما تحولت إلى استنزاف، وأن شخصًا نحبه يؤذينا، لكننا نتمسك بصورة قديمة له؛ لأن الصورة أجمل من الحاضر .

نظل نحب ذكرى الإنسان بعد أن نتوقف عن رؤية هذا الإنسان نفسه الان، ونغضب كلما حاول الواقع أن يخبرنا بأن الذي نقدسه، لم يعد موجودًا الا في خيالنا.

أقول لمن يهمه الامر.

◆ الاعتراف لا يعني دائمًا الرحيل عن المشهد. قد تكون الحقيقة بداية إصلاح لا شهادة وفاة .

لكن الإصلاح لا يبدأ من طلاء الشقوق المتسعة، بل من الاعتراف بوجودها .

البلد *التي تستطيع أن تنظر إلى جرحها قد تُشفى،

والمؤسسة التي تعترف بخللها قد تتغير، والدولة التي تسمع غضب شعبها قد تنجو. فوحده الإنكار يحول المرض القابل للعلاج إلى نهاية حتميه ولو كانت مؤجلة*.

◆ بعض الناس يطلبون الدليل بعد أن يروا الدليل.

يرفعون سقف الوهم كلما اقتربت الحقيقة يريدون شاهدًا آخر، واعترافًا أكثر وضوحًا. لا يفعلون ذلك حرصًا على العدل، بل لأنهم يأملون أن تتعب الحقيقة من الوقوف على الباب فترحل. لكنها لا ترحل؛ يتغير شكلها فقط، وتعود في هيئة نتيجة حتمية، لا تقبل الجدل.

◆ كارثة الغبي...انه يري انهيار الجسر كأنه شرخا صغيرًا فيتجاهله،

وانفجار الغضب كان شكوى هادئة جرى إسكاتها، وانتهاء الحب كان برودة عابرة لم يسأل أحد عن سببها.

الأحداث الكبرى لا تبدأ كبيرة؛ نحن الذين نمنحها الوقت كي تنمو، بينما نطفئ كل مصباح يحاول كشفها.

◆ الحكيم لا يحب الحقيقة دائمًا، لكنه يحترم حقها في الوجود. يستقبلها كما يستقبل طبيبًا يحمل تشخيصًا مؤلمًا؛ لا يشكره على الألم، بل على الفرصة التي لا تزال متاحة للعلاج. أما الغبي فيطرد الطبيب، ويحطم جهاز الأشعة، ثم يحتفل لأن التقرير لم يعد أمام عينيه.

◆ أصعب الصدق هو ذلك الذي لا يشاهده أحد. أن تعترف لنفسك، في غرفة مغلقة، بأنك لم تكن دائمًا الضحية، وأن بعض

خسائرك كانت من صنع يديك، وأن الذين غادروك لم يكونوا جميعًا جاحدين، وأن الطريق لم يضللك وحده، بل كنت أحيانًا ترى اللافتة وتختار الاتجاه الآخر.

◆ لا يطلب هذا الاعتراف جلد الذات، فالقسوة على النفس قد تكون حيلة جديدة للهروب منها. المطلوب عدل داخلي، لا محكمة انتقام؛ أن نرى الخطأ بحجمه، لا أن نصغره كي نرتاح، ولا أن نضخمه كي نستمتع بدور المذنب الأبدي. الصدق الحقيقي لا يهين الإنسان، بل يعيده إلى قدرته على الاختيار.

◆ الحرية تبدأ في اللحظة التي نتوقف فيها عن حماية الوهم. يسقط عبء التبرير، ويهدأ المحامي الداخلي، وتستعيد الذاكرة وظيفتها شاهدًا لا كاتبًا للسيناريو. ربما نخسر صورة جميلة عن أنفسنا، لكننا نربح أنفسنا كما هي؛ ناقصة، قابلة للتعلم، وجديرة ببداية جديدة.

◆ الغبي ليس فقط من يعيش في الظلام، بل من عرف موضع المفتاح ثم أقنع نفسه أن الضوء مؤذٍ. يختار راحة اللحظة، ويدفع ثمنها من عمره. ينجو من مواجهة قصيرة، فيدخل في هروب طويل. يحافظ على الرواية، ويخسر الحياة التي كان يمكن أن تبدأ بعد سقوطها.

◆ ربما لا تحتاج النجاة إلى مصباح كبير. تكفي شرارة

صدق صغيرة لا نطفئها، ونافذة نتركها مفتوحة، وصديق لا نعاقبه لأنه قال ما لا نحب، ولحظة نصغي فيها إلى الحقيقة حتى تنهي جملتها. فالظلام لا يهزم الضوء، لكنه ينتصر كلما امتدت يد خائفة إلى المفتاح.

◆ ومن هنا تبدأ الورقة التالية. فإذا عرف الإنسان الحقيقة، ولم يعد قادرًا على إنكارها، فهل يملك شجاعة الاعتذار؟ أم يلجأ إلى حيلة أشد مكرًا، فيعترف بما حدث، ثم يبرئ نفسه بالقول إنه لم يكن يملك خيارًا آخر؟

✣✦❖✧

ورقة من كتاب «الغبي» (34)

✳الغبي.. من ضيع في الأوهام عمره ويخترع الضرورة كي يبرئ نفسه✳

«أكثر الأعذار خداعًا تلك التي يسمي فيها الإنسان اختياره قدرًا، ثم يطالب الآخرين بأن يغفروا له ما فعله».

◆ وقف الرجل أمام الباب المغلق طويلًا، ثم قال لمن حوله إن الطريق لم يترك له خيارًا. لم يخبرهم أنه هو الذي أغلق الباب، ولا أنه أخفى المفتاح في جيبه، ولا أنه رفض النوافذ كلها لأنها كانت تفضي إلى طرق لا يحبها. اكتفى بأن أشار إلى الجدار، وقال بصوت المظلوم: لم يكن أمامي شيء آخر.

◆ صدقه بعضهم، وتعاطف معه آخرون، حتى كاد هو نفسه ينسى أنه لم يكن ضحية الجدار، بل مهندسه.

◆ يكتشف الإنسان الحقيقة أحيانًا، ويعجز عن إنكارها، لكنه لا يسلم لها كامل اعترافه. يعترف بالفعل، وينكر الاختيار. يقر بالنتيجة، ويرفض المسؤولية. يقول: نعم، فعلت، لكنني كنت

مضطرًا. وهكذا لا يمحو الواقعة، بل يمحو نفسه منها، كأن يده تحركت وحدها، وكأن القرار مرّ عبره دون أن يسكنه.

◆ الضرورة واحدة من أكثر الكلمات التي ظلمها البشر. لها معناها النبيل حين تضيق السبل حقًا، ويقف الإنسان أمام خطر لا يملك دفعه، لكنها تتحول إلى حيلة حين يستدعيها كل من أراد أن يفعل ما يشتهي دون أن يتحمل كلفة الاعتراف بأنه اختار.

◆ الغبي هو من يوسع مساحة الضرورة حتى تبتلع حياته كلها. يبرر صمته بالخوف، ونفاقه بالحكمة، وخيانته بالحفاظ على النفس، وقسوته بالمسؤولية، واستسلامه بالواقعية. لا يبقى من إرادته شيء إلا ذلك القدر الصغير الذي يستخدمه في شرح عجزه.

◆ أخطر ما في عبارة «لم يكن لدي خيار» أنها تبدو بريئة، بينما تخفي غالبًا اختيارات كاملة لم نرد الاعتراف بها. كان هناك خيار، لكنه أصعب. وكان هناك طريق، لكنه أطول. وكان هناك موقف، لكنه يهدد مصلحة، أو مكانة، أو راحة. لذلك لم يكن الخيار غائبًا، بل كان الثمن حاضرًا.

◆ الإنسان لا يهرب دائمًا من الاختيار، بل من ثمنه. يرفض أن يسمي خوفه خوفًا، فيسميه ضرورة. يخشى أن يقول

إن المنصب أغراه، فيقول إن المصلحة العامة فرضت عليه البقاء. لا يريد أن يعترف بأن الصمت كان مريحًا، فيقول إن الكلام لم يكن مجديًا.

◆ تملك اللغة قدرة عجيبة على غسل الأفعال. الكذب يصبح مناورة، والتراجع يصبح مرونة، والتخلي يصبح إعادة تموضع، والطاعة تصبح انضباطًا، والجبن يصبح حسابًا دقيقًا للموازين. يتغير الاسم، فيخف وقع الفعل على الضمير، كأن الجريمة تفقد معناها إذا ارتدت ربطة عنق.

◆ الحقيقة أكثر خشونة من هذه الكلمات المهذبة. تقول للإنسان ببساطة: كنت تستطيع أن ترفض، لكنك خفت. كنت تستطيع أن ترحل، لكنك طمعت. كنت تستطيع أن تعترض، لكنك فضلت السلامة. لا تهينه هذه الحقيقة، لكنها تعيده إلى مكانه الصحيح داخل الحكاية.

◆ رأيت في السياسة رجالًا يبدأون بالقول إنهم دخلوا المشهد لتغييره، ثم ينتهون إلى القول إن المشهد غيّرهم لأنهم لم يملكوا بديلًا. يبررون كل تنازل بأنه الأخير، وكل صمت بأنه مؤقت، وكل انحناءة بأنها ضرورة عابرة، حتى يصبح الانحناء هيئة دائمة لا يذكرون كيف بدأت.

◆ السلطة تجيد صناعة الضرورات الزائفة. تضع المجتمع

كل يوم أمام اختيار مصطنع: إما الأمن أو الحرية، وإما الدولة أو المعارضة، وإما الصمت أو الفوضى، وإما الحاكم أو المجهول. تضيق مساحة الاحتمال، ثم تقدم ما تريده بوصفه الطريق الوحيد، مع أن الطريق الوحيد غالبًا هو الطريق الذي أغلقت السلطة ما سواه.

◆ الأنظمة التي تخشى الاختيار الحر لا تلغيه فقط، بل تقنع الناس بأنه خطر. تصنع من البديل وحشًا، ومن المجهول جحيمًا، ومن الحاضر السيئ نعمة ينبغي حمدها. يتحول الخوف إلى دستور غير مكتوب، ويصبح المواطن مطالبًا بأن يختار سجنه لأنه لا يعرف شكل الشارع خارج الأسوار.

◆ المعارضة تقع أحيانًا في الفخ نفسه. تقنع نفسها أن كل خطأ فرضته الظروف، وأن كل انقسام صنعه الخصوم، وأن كل عزلة نتجت عن القمع وحده. لا شك أن القمع يغلق أبوابًا كثيرة، لكن الباب المغلق لا يعفي من فشلنا في البحث عن نافذة، ولا يمنحنا حق تحويل العجز إلى عقيدة.

◆ الجماعات المغلقة تحب الضرورة لأنها تحمي قياداتها من المساءلة. كل قرار يصبح استجابة لظرف استثنائي، وكل إخفاق يُنسب إلى حصار خارجي، وكل اعتراض يؤجل حتى تنتهي المعركة. لا تنتهي المعركة أبدًا، لأن انتهاءها يعني أن يبدأ الحساب.

◆ هكذا تتحول الضرورة من ظرف إلى نظام حكم، ومن استثناء إلى حياة كاملة. يعيش الأفراد تحت قانون الطوارئ الداخلي، يؤجلون فيه الصدق، والمراجعة، والاعتذار، والتمرد على الخطأ، بحجة أن الوقت غير مناسب. يصبح العمر كله وقتًا غير مناسب للحقيقة.

◆ لا ينكر العاقل قسوة الظروف. بعض الناس يولدون في طرق أشد ضيقًا من غيرهم، وتفرض الحياة على البشر اختبارات لا تتساوى في شدتها. الحرية ليست مساحة واحدة موزعة بالعدل، لكن ضيق الاختيار لا يعني انعدامه دائمًا، كما أن صعوبة الموقف لا تمنح كل قرار حصانة أخلاقية.

◆ الفرق كبير بين إنسان اضطر حقًا، وإنسان اختار الأقل كلفة ثم ادعى أنه لم يختر. الأول يتألم لأنه دفع ثمنًا لم يرده، والثاني يختبئ لأنه لا يريد الاعتراف بالثمن الذي وفره لنفسه على حساب غيره.

◆ تستطيع معرفة الفرق من طريقة الحكاية. المضطر الحقيقي يروي ما حدث بحزن وتردد، ولا يحول ألمه إلى بطولة. أما الذي يتخفى خلف الضرورة، فيكثر من شرح براءته، ويبالغ في وصف الحصار، ويحذف من القصة كل لحظة كان يستطيع فيها أن يتصرف على نحو آخر.

◆ الضمير يعرف مواضع الأبواب التي تجاهلناها. قد تخدع الناس وتخفي الأدلة، لكنه يتذكر اللحظة التي كان يمكن أن تقول فيها «لا»، واللحظة التي آثرت فيها الصمت، واللحظة التي نظرت فيها إلى الطريق الأصعب ثم أدرت وجهك عنه.

◆ لا تعني المسؤولية أن الإنسان يملك العالم، بل أن يعترف بالجزء الذي ملكه من قراره. ربما لم يختر العاصفة، لكنه اختار موضع الوقوف. لم يصنع الخطر، لكنه اختار من يدفع ثمن النجاة. لم يخلق السجن، لكنه ربما وافق أن يصير حارسًا كي يحصل على زنزانة أوسع.

◆ يبدأ النضج حين يستبدل الإنسان عبارة «لم يكن لدي خيار» بعبارة أكثر صدقًا: «كان لدي خيار لم أملك شجاعة دفع ثمنه». تؤلم الجملة الثانية أكثر، لكنها تفتح بابًا للمستقبل. أما الأولى فتمنحه البراءة، وتسلبه القدرة على التغيير.

◆ من يعلن نفسه بلا اختيار يعلن نفسه بلا إرادة. قد يربح عذرًا أمام الناس، لكنه يخسر سلطته على حياته. فكيف يتغير غدًا من أقنع نفسه أنه لم يصنع شيئًا بالأمس؟

◆ الغباء هنا ليس في اتخاذ القرار الخاطئ وحده، بل في دفن القدرة على اتخاذ قرار أفضل. كل إنسان يخطئ، لكن بعضهم يتعلم من خطئه، وبعضهم يحوله إلى قدر حتى لا يضطر إلى مراجعته.

◆ الطفل يقول إن يده لم تكسر الكأس، والرجل يقول إن الظروف كسرت موقفه. تتغير الكلمات، بينما تبقى الرغبة القديمة نفسها: أن يقع الفعل من دون فاعل، وأن توجد النتيجة من دون مسؤول.

◆ مؤلم أن يعترف الإنسان بأنه خان ما كان يؤمن به. أسهل عليه أن يقول إن الزمن تغير، وإن الواقع فرض منطقه، وإن المبادئ الجميلة لا تصلح للحياة. ربما تغير الزمن فعلًا، لكن المبادئ لا تسقط لأنها صعبة، بل يسقط بعضنا حين يتعب من حملها.

◆ الواقعية ليست أن تبرر كل انحناء، بل أن تعرف متى تنحني للعاصفة كي تواصل السير، ومتى يصبح الانحناء قبولًا بالعبودية. المرونة تحمي الفكرة، أما الانتهازية فتحمي صاحبها من الفكرة.

◆ تستخدم الدول كلمة الضرورة لتبرير قوانين استثنائية، ثم تنسى أن الاستثناء يجب أن ينتهي. وتستخدم الأحزاب الكلمة لتبرير التحالفات الرديئة، ثم تكتشف أن التحالف المؤقت أعاد تشكيل ضميرها. ويستخدم الأفراد الكلمة لتأجيل المواجهة، ثم يصبح التأجيل طبعًا لا ظرفًا.

◆ أخطر الضرورات تلك التي نصنعها بأيدينا، ثم نخضع

لها. نراكم الديون حتى يصبح السداد قيدًا، ونوسع الامتيازات حتى يصبح فقدانها مستحيلًا، ونكثر من الأكاذيب حتى يصبح الصدق كارثة. يبدأ الأمر باختيار صغير، ثم يتحول إلى سجن نقسم أننا لم نختر دخوله.

◆ الحرية لا تعني أن تتاح لنا اختيارات بلا ثمن. هذا وهم آخر. الحرية الحقيقية أن نعرف الثمن، ثم نختار، ثم نتحمل مسؤولية ما اخترناه. وحده الغبي يريد حرية القرار وبراءة النتيجة معًا.

◆ الشجاعة ليست أن تتخذ دائمًا القرار الصحيح، بل أن تظل حاضرًا في قراراتك، فلا تختبئ بعد الخطأ خلف الظروف، ولا تسلم اسمك للضرورة، ولا تدع القدر يوقع بدلًا منك على أوراق كتبتها يدك.

◆ يحتاج الإنسان أحيانًا إلى أن يغفر لنفسه، لكن الغفران لا يبدأ بإنكار الاختيار. يبدأ بالاعتراف به، وفهم ضعفه، ورد ما يستطيع من الضرر، ثم تعلم الطريق الذي لم يملكه أول مرة. أما البراءة المصطنعة فتغلق القضية من دون أن تصلح شيئًا.

◆ لا يطلب الصدق منا بطولة خارقة. يطلب جملة واحدة لا يتقنها كثيرون: «نعم، كانت الظروف قاسية، لكن هذا كان اختياري». جملة تنزع عن الضرورة قناعها، وتعيد للإنسان حقه

في أن يكون مسؤولًا عن نفسه.

◆ ربما كانت الكرامة، في جوهرها، ألا نسمح للظروف أن تكتب توقيعنا كاملًا. تترك أثرها فينا، وتضيق مساحاتنا، وتثقل خطواتنا، لكنها لا تملك كل شيء ما دمنا نحتفظ بذلك الجزء الصغير الذي نستطيع فيه أن نقول: هذا أنا، وهذا قراري، وهذا ثمنه.

◆ الغبي هو من يقتل اختياره، ثم يقيم مأتمًا طويلًا لإرادته. يبرئ نفسه من الماضي، فيحكم عليها بالعجز في المستقبل. أما الحكيم فيعرف أن الاعتراف بالمسؤولية ليس قيدًا، بل المفتاح الأول للخروج من القفص.

◆ فإذا اعترف الإنسان بأنه كان يملك خيارًا، فهل يحتمل أن يرى مقدار ما ضيعه من عمره في تأجيل القرار؟ أم يخترع حيلة جديدة، فيقول إن الوقت لم يحن بعد، حتى يمضي الوقت كله؟

ورقة من كتاب «الغبي» (35)

✳ الغبي... يؤجل حياته ✳

«الغبي لا يضيع عمره لأنه اختار الطريق الخطأ... بل لأنه ظل يؤجل السير في الطريق الصحيح حتى انتهى العمر».

◆ جلس الرجل على مقعد خشبي في محطة قديمة، يحمل حقيبة صغيرة، وتذكرة لم يستخدمها، وعمرًا ظن أنه أطول من كل القطارات. كان يعرف وجهته، ويرى اسمها مكتوبًا بوضوح، ويسمع النداء يتكرر فوق الرصيف، لكنه كلما اقترب موعد الرحيل، وجد سببًا جديدًا للبقاء. قال في المرة الأولى إن الحقيبة لم تكتمل. وقال في الثانية إن الطقس لا يطمئن. وفي الثالثة أقنع نفسه بأن القطار التالي سيكون أهدأ، وأقل ازدحامًا، وأكثر ملاءمة لما تبقى من يومه.

◆ مرت القطارات واحدًا بعد آخر، وبقي الرجل مكانه. حفظ أصوات العجلات، ووجوه المسافرين، ورائحة الحديد حين يبتل بالمطر. صار خبيرًا في مواعيد الرحيل، من غير أن يرحل. يعرف أي القطارات أسرع، وأيها أكثر راحة، وأي المقاعد تطل

على المشهد الأفضل، لكنه لم يجلس يومًا في مقعد يتحرك.

◆ الغباء لا يظهر دائمًا في السير إلى الوجهة الخطأ، بل في البقاء الطويل على الرصيف بعد معرفة الوجهة الصحيحة. فالإنسان قد يعرف ما ينبغي أن يفعله، ويملك جزءًا كافيًا من القدرة عليه، ثم يؤجل الخطوة الأولى حتى تتحول المعرفة إلى عبء، والقدرة إلى حسرة، والوقت إلى شاهد لا يملك الرحمة.

◆ التسويف ليس كسلًا دائمًا. قد يكون خوفًا يرتدي ثياب التريث، أو رغبة في الكمال تخفي عجزًا عن البدء، أو أملًا في لحظة مثالية لا تأتي. يقول الإنسان إنه ينتظر الظروف المناسبة، بينما ينتظر، في الحقيقة، أن تزول عنه كلفة القرار. يريد طريقًا بلا مخاطرة، واعتذارًا بلا انكسار، ورحيلًا بلا ألم، وبداية بلا ارتباك. وحين لا تمنحه الحياة هذه الشروط، يؤجل الحياة نفسها.

◆ بعض الناس لا يقولون «لا»، بل يقولون «ليس الآن». وهذه العبارة أكثر مكرًا، لأنها لا تغلق الباب، ولا تفتحه. تبقيه مواربًا، وتمنح صاحبها شعورًا بأنه لم يرفض الحقيقة، بل أجلها قليلًا. ثم يمتد القليل حتى يصير عمرًا، ويصبح الباب الذي ظل مواربًا جدارًا لم يعد أحد يتذكر أنه كان بابًا.

◆ يؤجل الإنسان الاعتذار، لأنه يتخيل أن كلماته ستكون

أصدق غدًا. ويؤجل الرحيل، لأنه يظن أن الألم سيكون أقل بعد شهر. ويؤجل المواجهة، لأن ميزان القوة قد يتحسن. ويؤجل الكتاب، والمشروع، والحب، والصلح، والتمرد على العادة، حتى تتحول الأشياء التي كان يمكن أن يعيشها إلى أشياء يرويها بصيغة الاحتمال.

◆ ما أقسى أن يصبح الإنسان خبيرًا في الحياة التي لم يعشها. يعرف كيف كان يمكن أن يكون أكثر شجاعة، وأكثر وفاء، وأكثر حرية، لكنه لا يعرف كيف يحول هذا الإدراك إلى خطوة. يصف الطريق بدقة، ويشرح منعطفاته، ويحذر الآخرين من حفره، بينما يظل هو جالسًا في المحطة، يحرس حقيبته من سفر لم يبدأ.

◆ خلال سنوات طويلة من الصحافة والسياسة والعمل العام، رأيت أناسًا لم يسقطوا بسبب قرار خاطئ، بل بسبب قرار صحيح تأخر حتى فقد معناه. كانت هناك لحظات كان يكفي فيها موقف واضح، أو كلمة شجاعة، أو انسحاب نظيف، أو مراجعة صادقة، لكنهم انتظروا. وحين تكلموا، كانت الكلمات قد فقدت حرارتها، وحين تحركوا، كان الطريق قد امتلأ بأقدام سبقتهم.

◆ للتوقيت أخلاقه كما للقرار أخلاقه. فالموقف الصحيح

إذا جاء بعد أن يدفع الآخرون الثمن وحدهم، لا يبقى كامل الصواب. والاعتذار الذي يصل بعد موت المحبة لا يعيدها. والنجدة التي تأتي بعد غرق السفينة لا تصبح بطولة لمجرد أنها وصلت. هناك حقائق لا يكفي أن نقولها، بل يجب أن نقولها في وقتها.

◆ الغبي لا يفهم أن الزمن جزء من المعنى. يظن أن الفعل يبقى هو نفسه مهما تأخر. لكن الكلمة التي تنقذ اليوم، قد تصبح غدًا تعليقًا باردًا على مأساة اكتملت. والقرار الذي يفتح بابًا الآن، قد يصبح بعد سنوات مجرد اعتراف بأن الباب كان موجودًا.

◆ السلطة تؤجل الإصلاح كما يؤجل الفرد اعتذاره. تقول إن الوقت لا يحتمل التغيير، وإن الأولوية للأمن، وإن الاقتصاد يحتاج إلى صبر، وإن السياسة يمكن أن تنتظر. ثم تمر الأعوام، فيتحول التأجيل إلى نظام، والاستثناء إلى قاعدة، والمشكلة القابلة للعلاج إلى مرض مزمن. لا تسقط الدول دائمًا لأنها لم تعرف الطريق، بل لأنها أجلت السير فيه حتى ضاق الطريق واتسعت الكلفة.

◆ المعارضة بدورها قد تجعل الانتظار عقيدة. تنتظر اللحظة المناسبة، والفرصة الدولية، والانقسام داخل السلطة، والغضب الذي يكتمل، والجموع التي تتحرك وحدها. تتحدث كثيرًا

عن المستقبل، لكنها لا تصنع له أدوات. ومع الوقت، يصبح الانتظار بديلًا عن العمل، والتوقع بديلًا عن التنظيم، والحديث عن اللحظة بديلًا عن الاستعداد لها.

◆ الجماعات المغلقة تعرف كيف تحول التأجيل إلى طاعة. تقول لأعضائها إن المراجعة ستأتي بعد المعركة، وإن الديمقراطية الداخلية يمكن أن تنتظر، وإن المساءلة تضعف الصفوف، وإن الأسئلة تؤجل حتى يزول الخطر. لا يزول الخطر، ولا تأتي المراجعة، لأن القيادات التي تعيش على التأجيل تعرف أن أول يوم للحساب قد يكون آخر أيام امتيازها.

◆ يعيش كثيرون تحت قانون طوارئ داخلي لا ينتهي. يؤجلون الصدق حتى تهدأ الظروف، والرحيل حتى يضمنوا البديل، والرفض حتى يقوى موقفهم، والحياة حتى تكتمل شروطها. كأن العمر عقد مؤقت قابل للتمديد إلى ما لا نهاية، وكأن الزمن موظف مطيع سيبقى واقفًا عند الباب إلى أن نفرغ من خوفنا.

◆ الزمن لا يعاقب أحدًا، لكنه لا ينتظر أحدًا أيضًا. يمر في هدوء، من غير ضجيج المحاكم، ولا صوت الأحكام. لا يقول للإنسان إنه تأخر، بل يتركه يكتشف ذلك حين يحاول أن يعود إلى لحظة لم تعد موجودة. وتلك هي أقسى العقوبات: أن

تفهم ما كان ينبغي فعله، بعد أن يصبح الفهم بلا فائدة.

◆ التسويف يمنح الإنسان لذة صغيرة اسمها الوهم المؤجل. فهو لا يشعر أنه تخلى عن حلمه، بل يضعه في الغد. لا يعترف بأنه خاف، بل يقول إنه يتهيأ. لا يقر بأنه تراجع، بل يسمي بقاءه انتظارًا حكيمًا. وهكذا يحتفظ بصورته أمام نفسه، ويخسر ما كان يمكن أن يصنعه بهذه الصورة.

◆ ليس كل تأجيل غباء. هناك قرارات تحتاج إلى نضج، وخطوات يفسدها الاستعجال، ومواقف يكون الصبر فيها شجاعة. لكن الفارق بين الصبر والتسويف أن الصبر يعمل في الخفاء، أما التسويف فينام. الصابر يهيئ نفسه، ويجمع أدواته، ويقترب من لحظته. أما المسوف فيكرر الجملة ذاتها، ويعيد ترتيب الأعذار، ويطلب من الزمن أن يؤدي عنه ما لم يؤده هو.

◆ يستطيع الإنسان أن يعرف الفرق من أثر الانتظار عليه. فإن جعله أكثر وضوحًا، وأكثر استعدادًا، وأكثر قدرة على الفعل، كان صبرًا. وإن جعله أشد خوفًا، وأقل ثقة، وأكثر تعلقًا بالأعذار، كان هروبًا طويلًا ارتدى ساعة الحكمة.

◆ الكمال أحد أكثر شركاء التسويف تهذيبًا. يؤجل الكاتب كتابه حتى يجد الجملة التي لا تشوبها شائبة، ويؤجل السياسي موقفه حتى يضمن ألا يخسر أحدًا، ويؤجل المحب اعترافه حتى

يتأكد من النتيجة، ويؤجل الإنسان حياته حتى يصبح كامل الاستعداد. لا يأتي الكمال، وتذهب الفرصة. فالحياة لا تفتح أبوابها للكاملين، بل لمن يملكون شجاعة الدخول وهم ناقصون.

◆ الخوف من الخطأ يدفع بعض الناس إلى خطأ أكبر: ألا يفعلوا شيئًا. يفضلون سلامة الرصيف على مخاطرة القطار، ثم يكتشفون أن البقاء نفسه كان قرارًا، وأن عدم الاختيار اختيار، وأن اليد التي لم تمتد إلى الباب شاركت في إغلاقه.

◆ الغبي يريد ضمانًا قبل أن يعيش، بينما الحياة لا تعطي ضماناتها مقدمًا. تمنح علامات، واحتمالات، وفرصًا، ثم تترك للإنسان مسؤولية الخطوة. من يطلب يقينًا كاملًا قبل الحركة، سيبقى ثابتًا، لأن اليقين الكامل لا يصل إلا بعد أن تنتهي التجربة، وعندها لا يعود قرارًا، بل تقريرًا عما مضى.

◆ العلاقات تموت أحيانًا من التأجيل أكثر مما تموت من القسوة. كلمة حنان أجلناها، ومصالحة استثقلناها، واتصال قلنا إننا سنجريه غدًا. ثم يأتي غد لا يجيب فيه أحد. يتعلم الإنسان عندها أن بعض الكلمات لا تفقد قيمتها لأنها كاذبة، بل لأنها وصلت إلى باب أغلقه الغياب.

◆ الغربة تعلم الإنسان قسوة التأجيل على نحو لا تعلمه المدن المألوفة. يؤجل الصديق اتصاله، وتؤجل الأسرة لقاءها، ويؤجل

القريب رسالة يظن أن الوقت متاح لها دائمًا. تمر الأيام، ويصبح الغياب عادة، وتتحول العلاقات إلى تهان جاهزة ورموز باردة تصل في المناسبات. لا يموت الود دفعة واحدة، بل يبرد في ثلاجة الغد.

◆ عرفت في الغربة أن بعض الأصدقاء لا يغيبون لأنهم ابتعدوا جغرافيًا، بل لأنهم أجلوا الحضور حتى نسوا كيف يكون. يرسلون وردة إلكترونية بدل كلمة، وإشارة إعجاب بدل موقف، ووجهًا دامعًا بدل أن يسألوا عن الوجع. لا أقسو عليهم، لكنني أتأمل كيف استطاعت الشاشة أن تمنح الغياب مظهر الحضور، وأن تحول الصداقة من كتف إلى رمز.

◆ الإنسان الذي يؤجل علاقاته يظن أن المحبة رصيد ثابت لا ينقص. لكنه ينسى أن القلوب، مثل البيوت، تحتاج إلى فتح النوافذ، وإلى أصوات تسكنها، وإلى حضور يبدد عنها غبار الأيام. الصداقة التي لا تجد وقتًا للحياة، تتحول إلى اسم قديم في قائمة طويلة، نعرفه ولا نعرف صاحبه.

◆ لا يحتاج بعض القرارات إلى مزيد من التفكير، بل إلى قدر من الوفاء لما عرفناه بالفعل. نعرف أن علينا أن نعتذر، وأن نغادر موضعًا يهيننا، وأن نبدأ ما تأخر، وأن نقول الحقيقة، وأن نستعيد من غربتنا من نستطيع استعادته. لكن المعرفة تظل معلقة ما لم تسندها خطوة.

◆ الشجاعة لا تعني أن يركب الإنسان أول قطار، بل أن يكف عن خداع نفسه بشأن القطار الذي يعرف أنه قطاره. قد يختار البقاء، وهذا حقه، لكن عليه أن يسمي البقاء اختيارًا، لا انتظارًا. فالأسماء الصادقة لا تغير القرار وحدها، لكنها تمنعنا من تحويله إلى قدر.

◆ النضج يبدأ عندما يتوقف الإنسان عن مفاوضة الزمن. يعترف بأن بعض الفرص عابرة، وبعض الأبواب تفتح مرة، وبعض الناس لا يبقون إلى الأبد، وبعض الكلمات إذا لم تقل في وقتها تحولت إلى مراث لا يسمعها أصحابها.

◆ لا يحمل هذا المعنى دعوة إلى العجلة، بل إلى الحضور. أن يكون الإنسان حاضرًا في يومه، لا مؤجلًا إلى نسخة مستقبلية من نفسه. أن يفعل بما يملك، لا بما يتمنى أن يملكه لاحقًا. وأن يفهم أن البدايات المتواضعة أكثر صدقًا من المشروعات الكاملة التي لم تغادر الخيال.

◆ الغبي هو من يستهلك عمره في إعداد نفسه للحياة، ثم يكتشف أن الإعداد كان حياته كلها. يلمع الحقيبة، ويراجع التذكرة، ويتابع حركة القطارات، لكنه لا يصعد. وحين يخلو الرصيف، لا يبقى له إلا أن يروي للآخرين كيف كان يستطيع أن يصل.

◆ الحكيم لا يملك وقتًا أكثر، لكنه يملك علاقة أصدق بالوقت. يعرف أن اللحظة لا تصبح مثالية، وأن الخوف لا يختفي تمامًا، وأن الخطوة الأولى غالبًا ما تكون مرتبكة. ومع ذلك يمضي، لا لأنه ضمن الطريق، بل لأنه رفض أن يجعل الانتظار قبرًا مفتوحًا لأيامه.

◆ ربما كانت الحياة كلها فرصة قصيرة بين قطارين: قطار مضى لا نستطيع اللحاق به، وقطار لم يصل لا نملك ضمانه. أما ما بينهما، فهو الرصيف الذي نقف عليه الآن، والقرار الذي لا يملك أحد أن يتخذه نيابة عنا.

◆ لا يضيع العمر حين تمر الأيام، بل حين تمر من غير أن نكون فيها. وحين نترك أحلامنا في الغد، واعتذاراتنا في الغد، وصدقنا في الغد، نكتشف أن الغد لم يكن مخزنًا للأشياء المؤجلة، بل كان اسمًا آخر للوقت الذي لم نعشه.

◆ الغبي لا يفوته القطار وحده، بل يقنع نفسه أن المحطة كانت وجهته. يزين مقعد الانتظار، ويكوّن صداقات مع العابرين، ويتحول بقاؤه إلى هوية، حتى يخيفه النداء الأخير أكثر مما يوقظه. فالسفر بعد طول انتظار لا يحتاج إلى تذكرة فقط، بل إلى شجاعة مغادرة الإنسان الذي تعود البقاء.

◆ ومن هذه العتبة تبدأ الورقة التالية. فحين يدرك الإنسان

أن قطارات كثيرة مضت، قد ينهض أخيرًا، أو يختار حيلة أشد قسوة: أن يحتقر ما فاته، ويقنع نفسه بأنه لم يكن يريده أصلًا. هناك يتحول العجز عن الوصول إلى سخرية من الطريق، ويبدأ وجه جديد من وجوه الغباء.

[اقرأ هذه الورقة "الأخيرة"، فربما أنت المقصود](!)

✳ غباء الأصدقاء... وسر الـ 4 حروف ✳

(لأنه غادر المشهد!)

◆ ما أكثر الذين نبحث عن أرقامهم بعد رحيلهم، ونقرأ رسائلهم القديمة، ونكتشف أن المكالمة التي أجلناها كانت أقصر طريق إلى السلام مع أنفسنا .

الموت لا يمنحنا فرصة ثانية، لكن الحياة تمنحنا كل يوم فرصة صغيرة، ونحن الذين نبددها بغباء، في الزحام.

◆ لست أطالب أحدًا بأن يطيل المكالمة، أو أن يزور كل شهر، أو أن يكتب رسائل مطولة.

فبعض الناس لا يجيدون التعبير، لكنهم يجيدون الصدق. كلمة قصيرة منهم تكفي، لأننا نشعر بصاحبها واقفًا خلفها. وهناك من يكتب صفحات كاملة، فلا يصل منها شيء، لأن اللغة حضرت وحدها دون المعنى.

◆ الإنسان لا يحتاج دائمًا إلى حل. قد لا تملك لصديقك مخرجًا من أزمته، ولا تملك لقريبك دواء لوجعه، ولا تستطيع أن تعيده إلى وطنه أو ترفع عنه محنة.

لكنك تستطيع ألا تتركه وحيدًا داخلها. تستطيع أن تمنحه يقينًا بسيطًا بأن هناك من يراه، وأن ألمه لم يمر أمام الجميع بلا شاهد.

◆ أعرف أن للحياة أثقالها، وأن كل إنسان يحمل ما يكفيه. أعرف أن البيوت مزدحمة بهمومها، وأن العمل يبتلع الأيام، وأن السياسة فرقت بين من جمعتهم، وأن الخلافات القديمة تركت ندوبًا لا تزال حاضرة. لكنني أعرف أيضًا أن قلبًا يريد الوصول لا تعجزه دقيقة. المسألة ليست في ضيق الوقت، بل في اتساع المكان الذي ما زلنا نحتله داخل حياة بعضنا.

◆ وربما كان أكثر ما يضاعف ألم الغربة هو أن ترى المحبة تتحول إلى واجب موسمي. تهنئة في عيد، ودعاء في صباح الجمعة، ووردة في يوم الميلاد، ثم صمت يمتد حتى المناسبة التالية. كأن الإنسان لا يستحق أن يسأل عنه إلا حين يضيء أسمه على الشاشة.

◆ المناسبات جميلة، لكنها لا تستطيع وحدها حمل العلاقات. العيد لا يعوض عامًا من الغياب، والتهنئة الجاهزة لا تصنع قربًا، والدعاء المنسوخ لا يساوي لحظة صدق تقول فيها

لشخص: تذكرتك اليوم لأنني اشتقت إليك، لا لأن التقويم ذكرني بك.

◆ في أعماقي، لا أزال ذلك الإنسان الذي يفتح بابه لمن غاب، ويستقبل من جاء، ويحاول ألا يقيس المحبة بميزان الحساب. لا أريد أن أفقد هذه القدرة، ولا أن أتحول إلى نسخة من الصمت الذي يؤلمني. ولهذا كان أول ما قلته في هذه الورقة أن أكثر ما أخشاه هو أن أصبح مثلهم؛ أن أتعلم الغياب، وأن أستسهل الرمز، وأن أكتفي بتأدية واجب بارد وأقنع نفسي أنني حضرت.

◆ أريد أن أبقى قادرًا على السؤال، حتى عمن لم يسأل. لا لأنني أنسى، ولا لأنني بلا كرامة، بل لأنني لا أريد للغياب أن يعيد تشكيل قلبي. قد أتوقف عن انتظار بعض الناس، لكنني لا أريد أن أتوقف عن الإيمان بالإنسان. فخسارة علاقة تؤلم، أما خسارة القدرة على المحبة فهزيمة لا أريدها.

◆ التسامح لا يعني مساواة من حضر بمن غاب، ولا يعني أن نمحو الفروق بين الوفاء والنسيان. القلب يعرف من وقف عند بابه في العاصفة، ومن جاء بعدما هدأت. ويعرف من كان صوته جسرًا، ومن كانت رسالته واجبًا. لكنه يستطيع أن يعرف كل ذلك دون كراهية، وأن يحتفظ بالامتنان لمن يستحقه،

وبالمسافة التي تحميه ممن لا يعرف قيمة القرب.

◆ ربما كان العدل في العلاقات أن نمنح كل إنسان مكانه الحقيقي، لا المكان الذي كان يشغله قبل عشرين عامًا. فالأسماء القديمة لا تضمن قربًا دائمًا، والقرابة لا تمنح حصانة من الجفاء، والتاريخ المشترك لا يعفي الحاضر من واجبه. من حضر يكبر في القلب، ومن غاب يبتعد، لا عقابًا له، بل لأن القلوب أيضًا لها قوانينها.

◆ لم أكتب هذه الورقة الاخيرة من الكتاب،

كي أقول إنني وحيد. حولي قلوب حقيقية، وأصدقاء لم تبدلهم الأيام، وأقارب يعرفون كيف يسألون، ورفاق عبروا المسافات، وأناس عرفتهم متأخرًا فكانوا أوفى من كثيرين عرفتهم في البدايات. هؤلاء هم الدليل على أن المشكلة ليست في العصر وحده، ولا في الأدوات، بل في الاختيار الإنساني.

◆ بعض البشر يجعل المنفى أقل غربة، وبعضهم يجعل الوطن نفسه منفى. الأول لا يحتاج إلى كثير من الكلمات؛ حضوره يملأ الفراغ. والثاني قد يرسل كل صباح، لكنه يترك خلف رسائله بردًا لا يزول. القرب ليس كثرة ما يصل، بل مقدار ما يصل إلى القلب.

◆ لهذا لم تعد المسافة عندي بين القاهرة وإسطنبول، ولا بين بيت وبيت، ولا بين بلد وبلد. المسافة الحقيقية بين إنسان يكتب لك لأنه افتقدك، وإنسان يضغط على صورة لأنه رأى اسمك. بين من يحمل صوته إليك، ومن يرسل علامة تنوب عنه. بين من يمنحك لحظة من عمره، ومن يمنحك لونًا على شاشة.

◆ ◆ وبعد كل ما كتبته في هذا الكتاب عن العقل، والوهم، والتبرير، والكبرياء، والذاكرة، والسلطة، والجماعات المغلقة، أصل في الورقة الأخيرة إلى أبسط وجوه الغباء وأشدها إيلامًا :

■ أن يخسر الإنسان من يحبهم، لا لأنه كرههم، بل لأنه ظن أن المحبة تستطيع أن تعيش بلا حضور.

◆ الغباء الذي ينكسر بسببه القلب لا يأتي دائمًا في صورة فعل قاس. أحيانًا يأتي في صورة لا شيء؛ مكالمة لم تحدث، وطرقة باب لم تأت، ورسالة شخصية استبدلت بصورة، وسؤال ظل عالقًا في قلب صاحبه لأن الطرف الآخر ظن أن الصمت لا يؤذي.

◆ ◆ الصمت مؤذي.

والإهمال يترك ندوبًا.

والغياب المتكرر يعيد ترتيب العلاقات،

حتى لو لم يتعمد أحد شيئًا. قد نستيقظ يومًا فنجد أن من كنا نعرف تفاصيل صوته صار مجرد اسم،

🔸 وأن من كان وطنًا صار عنوانًا قديمًا، وأن الطريق الذي اعتدنا أن نسلكه إلى بعضنا امتلأ بالحشائش لأن أحدًا لم يمر به طويلًا.

🚥 أقولها بوضوح ويقين-:

🔸 لا أريد لهذه الورقة أن تكون مرثية لعلاقات ماتت، ولا بكائية على زمن مضى.

أريدها أن تكون نافذة مفتوحة قبل أن يكتمل الغياب، ويدًا تمتد قبل أن يصبح الوصول مستحيلًا .

■ فهل ما زال هناك وقت لأن نسأل،

وأن نزور، وأن نعتذر، وأن نعيد إلى العلاقات بعض دمها، وأن نثبت أن الإنسان لم ينسحب كله من هذا العالم.

⭕ هذه الورقة الاخيرة ليست بكائية شخصية بل هي رسالة لكل الانسانية.....

🔸 فقد يقرأ قريب هذه الكلمات، فيتذكر قريبًا أهمله. وقد يقرأها صديق، فيبحث عن رقم لم يتصل به منذ زمن. وقد يقرأها رفيق قديم، فيدرك أن التاريخ وحده لا يكفي، وأن أجمل ما يمكن

أن يقدمه للماضي هو أن يمنحه حاضرًا.

◆ لا تبحثوا عني وحدي في هذه الورقة.

ابحثوا عن كل إنسان اختصرتموه في رمز،

وكل قلب ظننتم أنه قوي إلى الحد الذي لا يحتاج فيه إلى سؤال،

وكل شخص قلتم إنكم ستتصلون به غدًا،

ثم مضت شهور وسنوات ولم يفعلوا او تندموا .

ابحثوا عن الذين يعيشون خلف الصور،

وعن الأصوات التي خفتت لأنها تعبت من النداء.

◆ ربما كانت عظمة العلاقات في بساطتها. لا تحتاج دائمًا إلى اعتذارات كبرى، ولا إلى مشاهد درامية، ولا إلى عهود طويلة. قد تبدأ استعادتها بمكالمة قصيرة لا تحمل خبرًا مهمًا، ولا طلبًا، ولا مصلحة .

مجرد صوت يصل إلى صوت،

ويقول له: ما زلت أذكرك كما كنت،

لا كما يظهر اسمك على الشاشة.

☀️قبل أن تغلق هذا الكتاب ... **من الغبي؟** ☀️

◆ في نهاية هذه الرحلة مع الغباء الإنساني، لا أملك حكمًا أخيرًا، ولا أريد أن أرفع إصبعًا في وجه أحد.

✧❖✦✣

{الغبي ربما أنت أو غيرك او أنا}

هذه الصفحات، أترك لكل من يقرأها أن يرى نفسه أو غيره فيها (كما يشاء).

من وجد أنه حاضر، فليحمد الله على نعمة المكاشفة. ومن وجد أنه غاب، فما زال الطريق مفتوحًا، لمزيد من المصارحة.

- نصيحه اخيره، مستوحاة من الصفحة الاخيرة-:

ألا تؤجلوا الإنسان.

لا تؤجلوا الصديق حتى تهدأ الازمات،

ولا القريب حتى تنتهي المشكلات،

ولا الأم حتى يأتي العيد،

ولا الأخ حتى تذكركم مناسبة،

ولا رفيق العمر حتى يصبح اللقاء عزاء فوق قبر .

فالوقت لا يسرقنا دفعة واحدة؛

يأخذ منا يومًا بعد يوم،

بينما نظن أن الغد مخزن واسع ندخر داخله كل ما لم نفعله.

دون ان يكون لدينا تأمين ضد الحريق او التلف

◆ أما أنا، فلا أحتاج إلى وردة أكثر لمعانًا، ولا إلى قلب أشد احمرارًا، ولا إلى دعاء أطول. ولا نكته مضحكه فقط أحتاج إلى ذلك الشيء البسيط الذي لا تصنعه البرامج، ولا تنسخه المنصات، ولا ترسله القوائم إلى الجميع في اللحظة نفسها .

أحتاج إلى أن أعرف أن إنسانًا، في مكان ما، توقف لحظة، وفكر في أنا ، لا في المناسبة.

◆ حاجتي باتت متواضعة، بعد حياة صاخبة بالمعارك والمواقف والسجون والمنفى. لكنها الحقيقة. فبعد، تجاوز الستين، أحيانا يظل الإنسان طفلًا كبيرًا

أمام سؤال صادق. فمهما كبر اسمه، واتسعت تجربته، وتراكمت على كتفيه السنوات، يبقى محتاجًا إلى صوت لا يخاطب صورته العامة، بل يخاطب ذلك الإنسان الخفي الذي يتعب ويشتاق ويصمت.

◆ لذلك، لا أطلب قلبًا مرسومًا. لا لأنني أحتقره، بل لأنني أعرف أن وراءه قلبًا حقيقيًا أشتاق إلى أن يصل. ولا أطلب خطابًا طويلًا .

لا أحتاج إلى أن تحدثني عن السياسة،

ولا عن الوطن، ولا عن آخر ما كتبت،

ولا عن متى سأعود .

* ⭕ أحتاج إلى أربعة حروف لا تعرف البلاغة،

لكنها تعرف الطريق. أربعة حروف فقط،

قد تبدو أقل من أن تختم كتابًا،

لكنها، في ميزان القلب، تكفي أحيانًا لفتح باب أغلقته سنوات،

وردم مسافة صنعتها المنافي، وإعادة إنسان إلى إنسان.

هذه الحروف هي-:

[(*<< **إزيك** >>*؟)]

✣✦❖✧

المحتويات

إهداء ٥

مقدمة [كتاب الغبي]... ..... ٧

>>رحلة في اكتشاف الإنسان عبر أوهامه<< ٨

الغبي ١٢

الغبي ١٥

الغبي... والأحمق... والعاقل(1) ٣٥

الغبي (2) ٣٦

ومضة من كتاب «الغبي » (3)..... ٣٨

فصل من كتاب «الغبي» ٣٩

الغباء السياسي .. سجون مريحة... نصنعها لأنفسنا ٤٠

الباب الثاني: الوهم... والمرايا المكسورة ٥١

الوجه الذي رسمه الآخرون ٥٢

ورقة من كتاب «الغبي» (4)..... ٥٩

ورقة من كتاب «الغبي» (5) الإنسان أمام مرآته... لماذا يخدع نفسه أولًا؟ ٦٤

ورقة من كتاب «الغبي» (6) الإنسان في قفص اليقين... حين يصبح الشك فضيلة ٦٨

ورقة من كتاب «الغبي» (7) ✸ الإنسان الذي يسمع صدى صوته فقط ✸ ٧٥

ورقة من كتاب «الغبي»(8) ✸ الإنسان الذي يعبد الفكرة ✸ ... ٨٢

ورقة من كتاب «الغبي» (9) ✸ غبي من يخاف أن يقول: لا أعرف ✸ ٨٩

ورقة من كتاب «الغبي» (10) ✸ من الغباء رفض الاعتذار بدعوى الكبرياء ✸ ٩٦

ورقة من كتاب «الغبي»(11) ✸ غباء العقل الموروث... حين يفكر الآخرون بالنيابة عنا ✸ ١٠٣

ورقة من كتاب «الغبي»(12) ✸ غباء العقل الذي اكتفى ✸ . ١١٠

ورقة من كتاب «الغبي»(13) ✸ الغبي يري نفسه في مرايا متقابلة ✸ ١١٦

ورقة من كتاب «الغبي»(14) ✸ غباء العادة وشجاعة الجهل بها ✸ ١٢٢

الغبي [مقدمة الباب الثاني]..... ١٢٧

✸ وجوه الغباء ✸ ١٢٨

ورقة من كتاب «الغبي»(15) ✸ غباء الرجل الريتويت... الذي يتنازل أن يكون نفسه ✸ ١٢٩

ورقة من كتاب «الغبي»(16) ✸ غباء الضباب... وضباب الغباء ✸ ١٣٦

ورقة من كتاب «الغبي» (17) ✷ مدمن التصفيق ✷ ١٤٠
ورقة من كتاب «الغبي» (18) ✷ القطيع الذي يصفق ✷ ١٤٨
ورقة من كتاب «الغبي»(19) ✷ مصنع الأوهام ✷ ١٥٣
ورقة من كتاب «الغبي» (20) ✷ المقدس الذي صنعناه بأيدينا ✷
..... ١٥٨
ورقة من كتاب «الغبي» (21) ✷ العقل المستعار ✷ ١٦٣
ورقة من كتاب «الغبي» (22) ✷ اليقين الذي لا يرى ✷ ١٦٨
ورقة من كتاب «الغبي» (23) ✷ الألم الذي يوقظ العقل ✷ . ١٧٢
ورقة من كتاب «الغبي» (24) ✷ العودة إلى القفص ✷ ١٧٦
ورقة من كتاب «الغبي» (25) ✷ الحجر الأول في السجن ✷
..... ١٨١
ورقة من كتاب «الغبي» (26) ✷ السجين الذي يدافع عن سجنه ✷
..... ١٨٥
ورقة من كتاب «الغبي» (27) ✷ العادة عقل الغبي البديل ✷ . ١٨٩
مقدمة الفصل الثالث..... ١٩٧
لماذا «الغبي»؟..... ١٩٨
ورقة من كتاب «الغبي» (28) ✷ الغبي... الإنسان الذي يستبدل
مشقة الفهم براحة أول تفسير ✷ ٢٠٠
ورقة من كتاب «الغبي» (29) ✷ الشاهد الذي لا نغفر له ✷ ٢١٠

ورقة من كتاب «الغبي» (30) ✴ الغبي... حين يتحول العقل إلى غرفة لا يسمع فيها إلا صداه ✴ ٢٢٢

ورقة من كتاب «الغبي» (31) ✴ الغبي... يصنع الأدلة التي يريدها ✴ ٢٣٢

ورقة من كتاب «الغبي» (32) ✴ الغبي روائي خائب يعيد تأليف ماضيه ✴ ٢٣٧

ورقة من كتاب «الغبي» (33) ✴ غبي من يطفئ النور عندما يرى اول الطريق ✴ ٢٤٣

ورقة من كتاب «الغبي» (34) ✴ الغبي... من ضيع في الأوهام عمره ويخترع الضرورة كي يبرئ نفسه ✴ ٢٥٣

ورقة من كتاب «الغبي» (35) ✴ الغبي... يؤجل حياته ✴ ... ٢٦٢

[اقرأ هذه الورقة "الأخيرة"، فربما أنت المقصود](!) ✴ غباء الأصدقاء... وسر الـ ٤ حروف ✴ (لأنه غادر المشهد!) ٢٧٣

{الغبي ربما أنت أو غيرك او أنا} ٢٨١

المحتويات ٢٨٤





الدكتور أيمن نور

مفكر ليبرالي وكاتب وبرلماني وسياسي مصري، وُلد في الإسكندرية في 5 ديسمبر 1964، وهو رئيس حزب غد الثورة الليبرالي المصري. حلّ ثانيًا بين عشرة مرشحين في أول انتخابات رئاسية تعددية في تاريخ مصر، وأقـام في لبنان خلال عامي 2013 و2014، ويقيم في إسطنبول وباريس منذ عام 2015. وهو مالك ورئيس مجلس إدارة قناة الشرق الفضائية، كما أسس مركز الشرق الثقافي وجمعية الشرق للإعلام في إسطنبول. حمل القلم كما حمل الحلم، فصار أحد أبرز أصوات الحرية في العالم العربي، وخاض معارك الكلمة والسجن والمنفى، وظل مؤمنًا بالحكمة والاعتدال، وبأن الكلمة أعدل من السيف، وأن الوطن فكرة لا تُنفى. يكتب أوراقه كمن يكتب عمرًا على ضوء شمعة، بين حب ووجع، بين مصر التي أحبها والمنفى الذي لم يُبعد صوته. تُرجمت مؤلفاته وبرامجه إلى لغات عدة، وبقي صوته شاهدًا على زمن يعيد السؤال الأبدي: كيف نكون أحرارًا؟ وقد بيعت كتبه في معظم الدول العربية، ويُقرأ صوته في قلوب عشاق الحرية أينما كانوا.

...أُهدي هذا الكتاب إلى كل غبي...
(...لا أقصدك)
ولا أُهديه للذين سيغلقونه غاضبين؛
لأنهم يظنون أنه كُتب عنهم لا عن غيرهم.
فالغبي لا يرى إلا نفسه.
هذا الكتاب ليس لإدانة أحد.
فقط هو محاولة لإنقاذ كل أحد من أقرب أعدائه إليه!
إنقاذ كل أحد من الغبي الذي يسكن داخله، وداخلي، وداخلك...
الدكتور أيمن نور
إسطنبول - سبتمبر 2026

9 781291 564273

TASQ

http://tasqpublishing.com
contact@tasqpublishing.com
tasqpublishing
+213784029344